

أحمد توفيق المدني

المسلمون في جزيرة صقلية

وجنوب إيطاليا



عاصمة الثقافة العربية

صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع

أحمد توفيق المدني

المسلمون في جزيرة لا صقلية
فَجَنُوبُ إِيطَالِيَا



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

اجل ! انها لصفحة شرف وفخار ، من تاريخ حافل مجيد .

تلك هي الصفحة التي كتبها اجدادنا الاكرمون بدمائهم الزكية ، على اديم الارض الصقلية ، وسجلوها بجلال اعمالهم في سفر الوجود ، واقتحموا بها وبامثالها ابواب الخلود .

ويا لها من ذكريات تشيرها في نفوسنا تلك الصحف المطهرة صحف جهاد الاجداد في سبيل الفتح الاسلامي ، وفي سبيل العمران والرقى ونشر المعرفة والمدنية الحقة .

انها لذكريات اجداد كرام بررة ، تركوا لنا راسا في التاريخ عاليا ، وذكرنا في الخافقين مجيدا ، انهم لقوم قهروا في سبيل الله وسبيل المدنية اشاوس الارض وطغام البحر ، وتغلبوا بقوة ايمانهم ومثانة سواعدهم وشدة شكيמתهم على كل معترض لهم في طريق حف بالصعاب ورص بالعقبات ، كان رائدهم يومئذ نكران الذات وتضحية النفس في سبيل المثل الاعلى ؛ على غرار سنة استنهاهم محمد بن عبد الله ، رسول الله ، وخلفاؤه من بعده ؛ فنالهم هنالك الاذى واصابتهم في طريقهم النكبات فما وهنوا لما اصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ؛ وما بين مشرق الشمس وبين مغربها ، وما بين جليد الشمال وسعير الجنوب ، رفعوا فوق هام البر وفوق عباب البحر اعلامهم عالية خفاقة ، مرعية الجوار عزيزة الجانب ، وضع النضال حول هامتها هالة من نور الحق وعزة الانتصار .

وانننا قوم الشمال الافريقى ، ابناء الاطلس الابرار ، لاحق باحياء هذه الصفحة الصقلية وبنفض ما تراكم فوقها خلال عصور الانحطاط ، من غبار . ذلك لانها صفحة خاصة باجدادنا فى هذا الشمال ، فهم الذين فتحوا هنالك ومدنوا وتغلبوا ، وهم الذين انخذلوا بعد ذلك تحت تأثير عوامل شتى ، وتحت ضربات اعداء الداخل والخارج ، فضاع عنهم ما فتحوه حسا ومعنى بعد طول جلالاد .

فعلينا - ونحن ابناءؤهم - ان ندرس برورا بهم ، تاريخهم فى حالتيه ، لنحيى ذكركم ، وننصفهم حقهم ، ولنقيم لهم باقلامنا وفى قلوبنا ، تمثالا خالدا هو عنوان الاجلال والاعتراف بالجميل ، ثم لنستخرج من كل ذلك عظات وعبرا تنير امامنا جادة السير فى طريق الحياة الحقة حياة العمل والجد والسعادة وتحقيق الآمال .

فهذه الصفحة الطيبة الثرية ، صفحة التاريخ الاسلامى بصقلية لم تكتب بعد ، ولم يقبض الله لها من يفردها بدراسة قيمة ، كما درست من قبل فتوحات المسلمين فى سائر الاقطار ، فنحن لا نجد من اخبار صقلية الاسلامية الا ما تذاثر فى كتب التاريخ بين عربية وغربية ، وخاصة فى كتب ابن خلدون وابن الاثير وابن الخطيب وابن جبير ، وبعض امهات الكتب الاخرى ، على ان تلك الاخبار المقتضبة التى كانت تذكر استطرادا ، لم تكن تهتم الا بكبريات الحوادث الحربية ، وتاريخ تولى الولاة ووفياتهم على اضطراب بينهم فى الترتيب . وقل من المؤرخين من تعرض لآثار ذلك الفتح ، وما كان له من ضلع كبير فى اشراق انوار المدنية والمعرفة على ربوع اوروبا ؛ وبعبارة اصرح ، مدى مشاركة المسلمين الصقليين فى بناء هيكل المدنية الحاضرة ؛ فيكاد يخيل اليك وانت تتلو كتب التاريخ القديمة ان مقام المسلمين بصقلية ما كان الا سلسلة من حروب وفتن واضطرابات ، وانه لم يكن وراء تلك الحروب والفتن سوى دماء تسفك ، ومعالم تخرب ، وحرمان تنتهك ؛ وتلك لعمري هفوة من مؤرخينا ، علينا ان نتداركها ، وعلينا ان نسد هذه اشلة فى هيكل تاريخنا القومى العربى .

نعم ! يجعل بهذه المناسبة ، وفي هذا الميدان ان نذكر وان نعترف بجميل عالين جليلين ، ومؤرخين مبجلين اولهما السنيور ميكايل عماري (١) وقد نشر سنة ١٨٥٨ كتابه الحافل (المكتبة العربية الصقلية) وقد جمع فيه اغلب ما تناثر في كتب العرب من اخبار صقلية والصقليين ، ايام دولة المسلمين ؛ والف كتابا حافلا باللغة ايطليانية (تاريخ العرب بصقلية) في خمسة اجزاء ضخمة .

وثانيهما صديقي الكبير وامتناذي الجليل ، السيد الوزير حسن حسني عبد الوهاب ، مدرس التاريخ باثلدونية سابقا ، وعضو مجمع اللغة العربية ؛ حيث قدم نلؤتمر المستشرقين الرابع عشر المنعقد بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥ رسالة قيمة باللغة الفرنسية (١) عن مسلمي صقلية وما كان لهم من اثر محمود في ميادين العلم والمدنية .

(١) هو صاحب السيف والقلم ، وبطل العلم والسياسة ، واحد كبار المجاهدين في سبيل الامة والوطن ، والدرة الملمعة في تاريخ الاستشراق الغربي على الاطلاق ؛ ولد في مدينة بالرمة سنة ١٨٠٦ من عائلة زينة كانت تنحدر من اصل عربي حسبما يدل عليه اسمها ، وحسبما يدل عليه اتجاه هذا البطل العظيم من احياء تاريخ المسلمين بصقلية . وجمع آثارهم والاشادة بما كان لهم من فضل على العلم والمدنية بحيث انه قد عمل وحده في هذا المضمار ما تنوء تحت وقرة العصبية القوية من العاملين .

ولقد شب في بيت ثائر ، اذ كان ابوه من رجال الحركة الوطنية الاستقلالية بصقلية ، وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثين سنة ؛ فكان ميكايل متشبعا منذ نشأته بتلك الافكار لكنه اندفع في ميدان العلم فحلق العربية ، مدفوعا لذلك بعاطفة غريزية ولا ريب ، واخذ منذ شبابه يدرس تاريخ المسلمين ؛ وعندما حدثت الثورة في سبيل الحرية سنة ١٨٤٨ اندفع صاعدا في مضامرها وخاض غمارها ، وسمى نائبا عن وطنه في مجلس الامة ؛ وتولى وزارة المالية حيث جاهد بجهاد الابطال في سبيل الشعب والمستضعفين ؛ ثم ترك السياسة واعتكف على الدراسة والانتاج الخصب . لكن ثورة غاريبالدي عام ١٨٤٠ اخرجته من جديد لعالم السياسة والجهاد فشارك في الثورة مشاركة محسوسة ، واصبح بعد نجاحها مدير المعارف بمدينة بالرمة ثم وزير المعارف للدولة الطليانية الموحدة سنة ١٨٦٢ .

ثم اعتزل السياسة من جديد ، واخذ يدرس العربية في جامعة فلورنسا ، وتراس بتلك

ثم نشر حفظه الله بمدينة بالرملة سنة ١٩١٠ القسم المتعلق بالشمال
الافريقي وجزيرة صقلية من كتاب اعمال الاعلام ، لابن الخطيب ، مع هوامش
مفيدة باللغة الفرنسية متداركا بذلك ما سها العلامة ميكايل عماري الآنف
الذكر عن حشره ضمن (المكتبة العربية الصقلية) .

* *

ولقد كان اهتمامي بموضوع التاريخ الاسلامي بصقلية قديما ، وكانت
ولا تزال رغبتى فى اختراق مجاهله اكيدة ؛ فنشرت فى الجزء الرابع من كتابى
تقويم المنصور سنة ١٩٢٦ بحثا وجيزا عن تلك الحقبة من التاريخ ، ولربما
كنت قد وفقت يومئذ بعض التوفيق ، فى تعبيد ذلك الطريق .

واننى لأعود اليوم الى هذا الموضوع ، مقدما بين يدي الامجاد ، قوم
الشمال الافريقي ما اوصلنى اليه جهد البحث والاستقراء عن تاريخ صقلية
الاسلامية متوسعا فى ذلك ، حسبما امكنتى ان اتحصل عليه من مختلف الوثائق
والمعلومات وبيت طيات ما وضعت اليه من كتب عربية وفرنجية ؛ مشبها على
هامش ذلك ، حسب طريقتى ؛ اهم الاحداث الكبرى ، بالشرق وبانغرب ، حتى

المدينة مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٧٩ ، واستمر عاملا جادا فى سبيل العربية والتاريخ الاسلامي
الصحيح الى ان توفى بفلورانس سنة ١٨٨٩ ، ومن اهم آثاره (تاريخ المسلمين فى صقلية)
فى خمسة اجزاء ضخمة ، نشره سنة ١٨٥٤ ، واعيد طبعه من تعليقات مفيدة وكتاب (المكتبة
العربية الصقلية) جمع فيه اهم ما كتبه المؤلفون المسلمون عن صقلية ، وكتاب (الآثار العربية
المنقوشة على الحجارة بصقلية) وكتاب (مذكرة عن حوادث التاريخ فى القرآن الكريم) وترجم
للطليانية كتاب سلوان المطاع لابن طغر : ورحلة ابن جبير بصقلية وتاريخ ابن خلدون . الخ .
وقد اقام المستشرقون حفلا رائعا بمناسبة مرور مائة عام على ولادته ؛ وبذلك المناسبة نشر
استاذنا حسن حسنى القسم المتعلق بصقلية وافريقيا من (اعمال الاعلام) .

وانى لأعتقد انه لا يتسنى للعرب الاطلاع على حقائق ودقائق تاريخ مسلمى صقلية ما لم
يقض الله من بينهم من يترجم اللغة الضاد كتاب عماري الحافل الشرى « تاريخ المسلمين فى صقلية »
فهل من مجيب ؟

(1) La domination musulmane en Sicile

يمكن لقارىء كتابي ان يخرج بالتاريخ المحلي عن عزلته ، ويربط الحوادث
الصقلية فى مختلف ادوارها بمجرى التاريخ العالمى .

لكننى - والحمد لله - بعيد عن الفرور وكاذب الادعاء ! فاقول بكل صراحة ،
ان كتابى هذا لا يجب ان يعتبر الا تمهيدا لدراسة تاريخ المسلمين فى صقلية ؛
فان كنت قد علمت شيئا وسجلته ، فقد غابت عنى ولا ريب اشياء ؛ وان كنت
قد ادليت خلال هذه الدراسة التاريخية ببعض آراء وافكار ، فما انا بمقدمها
الا لكى تعرض على مجال البحث والمناظرة ، حتى يظهر من الحقائق التاريخية
ما اخفته دفات الكتب ، او طمست معالمه حوادث الايام .

بل اننى ازيد غلوا فى الصراحة ، فاقول للعلماء والكتاب والمؤرخين من
بنى قومي ، اننى ما اقدمت على وضع كتابى هذا ، ونشره ، وعرضه على
النقادين ، الا لكى استفز منهم المشاجر ، واستحث فيهم الهمم ، عليهم يندفعون
بهمة وعزيمة وبما آتاهم الله من علم ، فى هذا الباب ، يتداركون النقص ويأتون
بفصل الخطاب ، تلك هى غايتى ، وذلك هو مناى (١) .

واننى لأبتهل الى الله ، ان يلهمنا الحق والصدق والصواب ، ويهدينا سواء
السبيل ، حتى نخدم تاريخنا الخدمة المثلى ؛ فنخلد بذلك ذكرى اجدادنا ،
ونقدم الامانة سليمة لاحفادنا .

وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت ، واليه انيب .

الجزائر - ١٢ ربيع الانور ١٣٦٥



(١) من المؤلف حقا ، انه لم يصدر حول هذا الموضوع ، منذ هذا النداء ، الا كتاب واحد لاغير ،
الى يومنا هذا . سنة ١٩٦٨ ، ويكاد يكون قاصرا على ذكر الادب والشعراء والاثر الحضارى .

القسم الاول

وصف جزيرة صقلية ومناخها وعمرانها

معقل طبيعي ، صنعته يد الله في منتصف البحر الابيض المتوسط ، فقسمة الى شطرين شرقي وغربي ، فهيمن على حركة المرور بينهما . وحصن حصين ارتكز بين القسمين البارزين من قارتى اوروبا وافريقيا حيث تجابه شبه جزيرة شريك ، فى هيئة تحد ظاهر ، شبه جزيرة قلورية ، كان كلا منهما يريد ان يمد ذراعه نحو الاخرى ، فتقوم بينهما جزيرة صقلية ، لتكون فى بعض الاحيان حكما ووسيطا ، ولتكون فى كثير من الاحايين جسرا يعبر عليه اهل الجنوب الى اهل الشمال ، او ينحدر منه اهل الشمال الى اهل الجنوب ، حسب القوة والاستعداد ، ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض .

شكل مثلث تكاد تتساوى اضلاعه ، اطلق عليه الاقدمون من اجل ذلك اسم « اترينا كريبا » اى المثلث يفصله بحرا عن قلورية (بايطاليا) مضيق مسينا وهو لا يكاد يجاوز ٣ كيلو مترات ، ويفصله عن البلاد التونسية معبر صقلية ، وعرضه ١٢٠ كيلومترا ؛ ويمسح هذا المثلث الصقلي ٢٥٤.٦١ كيلومترا مربعا .

فاذا نحن قمنا بحركة طواف حول الجزيرة الصقلية مبتدئين سيرنا من مدينة مسينا ، رأينا منذ النظرة الاولى ان هذه الجزيرة تكاد تكون مقطعة من ايطاليا حيث تستمر فيها ، فى اتجاه واحد جبال الابيان ، وتكاد تستأنف منها فى نفس ذلك الاتجاه نفس تلك الجبال فى الشمال الافريقى ، متخذة لنفسها اسم « الاطلس التلى » ولا يسع الرأى يومئذ الا الاقتناع بان افريقيا واروبا كانتا متصلتين فى غابر الازمان قبل عهد التاريخ ، بمعبر قلورية ، صقلية ، شبه جزيرة شريك ؛ ولقد صدق الله العظيم اذ يقول : « او لم ير الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقا ففتقنهما » .

ترى اثر خروجك من مسينا ، لاول وهلة ، كتلة هائلة من الصخر والتراب والمعادن المختلفة ، ترتفع الى عنان السماء قمتها ، وينزل الى قاع البحر اصلها ، ذلك هو فلقنان « الاتنا » او جبل النار ، حسبما تسميه كتب التاريخ العربى ، وانه ليثور فى بعض الاحيان ، فيخرج من جوفه فى اصوات كهزيم الرعد القاصف حمما ونيرانا متقدة ودخانا كثيفا ، فلا يبقى حواليه ولا يذر ، يحطم المدائن وانقرى والدساكر ويهلك الخرب والنسل ؛ ثم لا تكاه تنقضى ثورته حتى يعود الصقليون الى تجديد ما حطمته النيران وما غمره الحما المسنون ، فكان المعركة هناك خالدة مستمرة بين قوى الطبيعة وبين الانسان ، وكان الله سبحانه وتعالى اراد ان يقيم منها مثالا دائما للجلد والثبات ، والتغلب على العقبات ، والصبر على النائبات .

فاذا نحن انحدرنا من مدينة مسينا نحو الجنوب رأينا ساحلا صخريا ، لا نتوء فيه ولا جون ولا خليج ، ويستمر كذلك الى مقربة من مدينة قطانيا ؛ ومن هنالك تتغير حياة الساحل فيغدو رمليا لطيفا ، وترى فيه مصب وادى « ليريتو » ثم يبرز الى البحر فى جمال رائع ، راس اكروتشى .

ومن ثم نستمر فى انحدارنا صوب الجنوب ، فنجد عروس صقلية مدينة الفن والجمال ، والصيت التاريخى الرائع ، والذكريات المجيدة ، سرقوسة ، واننا لا نذكرها حتى يتراءى لنا شبح بطلها العظيم ارخميدس (١) الاغريقى حيث اجتمع العلم والوطنية والتضحية فى ذهن واحد جبار ، فهو الى جانب اكتشافاته العلمية العديدة التى تعد فتحا للعنصر البشرى ، تراه يوالى اختراع آلات الدفاع لصد غارة الرومان عن وطنه ، وقد جندله اخيرا سيف الطفيان بيد احد الوحوش الرومانيين .

(١) من اكبر علماء البشرية على الاطلاق . ولد بسرقوسة وقتل بها (٢٨٧ - ٢١٢ ق.م) من اهم اكتشافاته . الثقل النوعى وان اى جرم دخل فى الماء نقص وزنه بمقدار ما ازاحه من الماء ؛ وقد اكتشف هذه القاعدة الخالدة التى كانت اساسا لعدة اكتشافات اخرى وهو يستنجم ؛ فاخذه السرجى بنشوة الاكتشاف وخرج من حمامه عاريا يجرى فى طرقات سرقوسة ويصيح بالكلمة الماثورة EUREKA, EUREKA اى وجدت ، وجدت .

ومن سرقوسة الى رأس باسيرو ، يتكون من الساحل شكل هلالى ليس فيه ما يستحق الذكر ، وهناك ينتهى الساحل الشرقى من صقلية ؛ ويبلغ عمق البحر المتوسط حوالى ذلك نحو ٣٦٠٠ مترا ، وناخذ طريقنا صاعدين مع الساحل الجنوبى فى حركة تدريجية وعلى خط يكاد يكون مستقيما ، وهناك ينصب وادى سالسو ؛ ثم تقوم مدينة جرجنتى ذات الذكر الطويل فى تاريخنا العربى الصقلى ومن ثم نزيد ارتفاعا نحو الشمال الغربى فنرى سواحل كثيرة المياه ، وافرة المراعى والمروج ، حيث تقوم مدينة « مرجالا » ، ذات الرقيق الرقيق ، وبعد ذلك نصعد صوب الشمال حيث نجد مرفأ « طرابنة » اللطيف الشهير والذي سيمر بنا ذكره كثيرا اثناء البحث التاريخى .

عند رأس كستىلا مارى ، تنحنى الجزيرة ويبتدىء الساحل الشمالى على خط مستو يمتد من الغرب الى الشرق ، فنراه ساحلا صخريا جبليا ، ونلاحظ فيه بادىء ذى بدء خليجا تام الاستدارة بهى الشكل ، بديع الاطار ، هو خليج « كستىلا مارى » ومن عجب انه لا يحتوى الا على بليدة « الكانو » الصغيرة وبعض اكواخ لصائدى الاسماك ، فان خرجنا منه وجدنا رأس « دى قالو » ومن عليائه نشرف على جون مدينة بالرمة البديعة الطيبة عاصمة صقلية الاسلامية ، ومركز ادارتها الى يومنا هذا . ثم نستمر فى سيرنا مع سواحل صخر وجمال حتى نصل مدينة « مسينا » ذات البهاء والجمال والحركة المستمرة والعمران المتواصل ، ومنها ابتدأنا سيرنا حول سواحل الجزيرة . فلنتجه الآن بانظارنا فاحصين دواخل الجزيرة باحثين فى جبالها وسهولها وانجادها وانغوارها .

الجمال : ان جبل « الأتينا » ، هو اول ما يستحق الذكر ويستجلب النظر فى صقلية ، فارتفاعه يبلغ ٣٣١٣ مترا ، من ذلك كان أكبر جبال النار فى أوروبا . ولقد ادركه انهرم من قديم العصور فكلل الثلج هامته بمشيبة سرمدى ؛ لكن لم يكن ذلك بمانع لثورة ضميره ، والقاء ما فى قرارة نفسه

امام العالم حيننا بعد حين ؛ اما مساحته فتبلغ نحو ١٢٠٠ كيلومتر مربع ويمكن الصعود الى اعلى قمته بكل سهولة حيث الافواه الرهيبة التى يخرج منها على الدوام دخان يكون تارة لطيفا وطورا كثيفا ؛ وتسمع منها زمجرة نار الله الموقدة وهى تتميز من اتفيظ ، فكان الصاعد هنالك يشرف من عل على جهنم الحمراء او يرى عينة منها على الاقل .

وجبل « الاتنا » لا يكاد يتصل باى سلسلة من الجبال الصقلية الاخرى . فى شمال الجزيرة تمتد سلسلة من اشرق الى الغرب وهى جبال صخرية جرداء قلما رايت عليها اخضرار نبات او ابتسمت فى وجهك منها زهرة ؛ تتكون طبقتها الخارجية من حجارة كلسية ، ومن انواع الرخام الرفيع ؛ وهذه السلسلة وهى سد طبيعى يحمى الجزيرة من غارات الشمال ، ويقبها رياح الشمال الباردة ، يبلغ ارتفاعها نحو الالفى متر ، وهى تعتبر امتدادا من وراء مضيق مسينا لجبال الابنين بايطاليا ، وتعتبر ايضا ، تمهيدا لجبال الاطلس كما اسلفنا ؛ ومنها تتكون بعض جبال فرعية ، تنحدر من اعلى الجزيرة الى اسفلها ، اهمها الجبال التى ارتفعت فوقها مدينة « قصر يانة » ، ويبلغ ارتفاعها نحو ٩٩٠ مترا ، والجبال التى تنحدر صوب مدينة « جرجنتى » ، واسمها جبال مادونيا ، وارتفاعها يبلغ ١٥٨٦ مترا ؛ وفى هذه الجبال ثروة ذريعة من الخرف ، والملح المعدنى ، والجص .

وما بين هذه الجبال ، تجد وهادا ونجودا ، وسهولا ضيقة خصبة ، وغابات قليلة قفرة . .

المياه : ان كانت ارض الجزيرة تختلف بين الشمال والجنوب ، فاوديتها وانهارها تختلف مثل ذلك ، فالساحل الشرقى القاحل ، لا تكاد تجد به الا اودية ضئيلة غير مستقيمة السير ، ومنها ما لا يبلغ عرضه اكثر من متر واحد ، يجف اغلبها ابان المصيف ؛ او هى تلوح كمثل اطلال خاوية ؛ كباقي الوشم فى ظاهر اليد ؛ هنالك واد واحد يستحق الذكر ، هو وادى القنطرة ، وقد احتفظ باسمه العربى هذا ؛ ويبلغ طوله ١١٦

كيلومترا ؛ و يروى حوضا مساحته ٤٣٨٩ (كم) مربع .
اما الساحل الجنوبى ؛ فاوديته غنية بمياهها صيفا وشتاء حيث تغذيها
سلسلة الجبال الشمالية ؛ واهم هذه الاودية : وادى سالسو ، وطوله ١٤٤
كيلومترا وحوضه نحو الالفى (كم) مربع .
وبالجزيرة بعض بحيرات ذات اهمية ، اكبرها شانا بحيرة لنتينى فى
مقاطعة سرقوسة ، ومساحتها ١١٩ كيلومترا مربعا ، وتليها بحيرتا برغوسا
وبالتشى .

اما الامطار ، فمعدل نزولها فى السنة هو ٧٦٠ ملمترا ، والايام المظيرة
تبلغ ١١٢ يوما فى السنة .

المناخ : خص الله هذه الجزيرة الطيبة ، بحكم موقعها ووضعية الجبال
فيها ، بمناخ جميل ، وهواء معتدل ، وجو صاف ، بحيث انه ليس فى قارة
اروبا ما يعادلها من حيث اعتدال الطقس ولطف الهواء .

فصل الشتاء فيها ليس بقارس البرد ، يبتدىء من شهر نوفمبر وينتهى
عند شهر مارس مع انقطاع الامطار غالبا فى شهر جانفى ؛ وخلال
شهرى النمو فى افريل وماية ينزل من انسماء ماء غزير هو قوام حياة البلاد
اذ يذكرى حركة الزراعة والغراسة .

اما فصل الصيف فهو كذلك لطيف معتدل ما لم تهب رياح السموم ،
ترسلها افريقيا تحية غير لطيفة الى هذه الجزيرة ؛ لكن السموم لا تزيد مدتها
هنالك عن ثلاثة ايام متوالية ؛ ومن غرائب عاداتها - ولماذا لا تكون للرياح
عادات كعادات البشر ؟ - انها تهب فى شهر افريل بصفة خاصة وعند اختلاف
الفصول الاربعة بصفة اعم فتأتى معها بجيش عرمرم من الغبار والرمل وتبلغ
عندئذ درجة الحرارة فى بالرمة وسوادها نحو ٢٧ درجة .

اما معدل الطقس فهو فى بالرمة نحو ١٧ درجة ، واقصى ارتفاعه الطبيعى
هو ٢٦،١٢ درجة ؛ واقصى نزوله زمن الشتاء هو ١١ درجة ، من اجل ذلك
سميت تلك الناحية « بلاد الربيع الابدى » ومن اجل ذلك كانت مستقر

الملوك والكبراء والحكام منذ العصور القديمة .

الثروة الطبيعية : اهم النتائج الطبيعية التي اشتهرت بها الجزيرة هو الكبريت le Soufre ويوجد غالبا في مقاطعات الجنوب الشرقي ؛ في « قاطانا سبتا » وجرجنتي و (قطانيا) وكذلك حول مدينة بالرمة ؛ ويلي ذلك في الاهمية الملح المعدني المستخرج من طبقات الارض ، والرخام بمختلف انواعه الرفيعة والعادية ، وحجارة الكلس والجص والقار بنوعيه .

ولقد كانت الجزيرة ايام الحكم الاسلامي ، وقبل ذلك ، مكتسية بالغابات الشاسعة الغنية التي تنتج انواعا من الاخشاب الصلبة المستعملة في بناء السفن والمراكب . الا ان سوء الادارة بعد ذلك وعدم التبصر بعواقب الامور ، وترك الحبل يجرى على الغارب دون مراقبة وانتباه ؛ قد افقر الجزيرة او كاد من غاباتها فاصبحت لا تحجب الا مقدار جزء من عشرين من ارضها .

اما الثروة الزراعية فتلك هي نعمة الله الكبرى على الجزيرة ، وذلك ما جعلها الى جانب مناخها الحسن وموقعها المنيح ، مطمح انظار الفاتحين منذ قديم العصور .

من حسنات المسلمين الخالدة بتلك الجزيرة انهم نقلوا اليها من شمالنا الافريقي ، ولا يزال يوجد هنالك وافرا ، النخل الباسق الذي ينتج الرطب الجنى ، واشجار الليمون وال نارنج والبرتقال والموز والزيتون .

والجزيرة تنتج كميات عظيمة من القمح والشعير والقطاني والكتان ، وتعتبر بعد البلاد التونسية اكبر منتجي زيت الزيتون .

اما اعنابها فذات شهرة بزت شهرة اعناب اليونان ؛ وتنتج صقلية خمورا وافرة تعتبر احسن خمور اوروبا واجودها ، عند اهل الخبرة .

وان كانت الماشية بالجزيرة غير ذات اهمية ، تشمل قطعان الغنم والبقر والماعز والخنازير ؛ فان سواحلها وافرة الغنى بما ينتجه صيد البحر من اسماك مختلفة الانواع ، يستهلك الاهلون في طعامهم الكثير منها ؛ ويصبر اغلبها ويوضع في العلب للتصدير كالتن والسردين وما اشبهها ؛ ونشأت عن ذلك

• صناعة ذات بال •

السكان - لا نريد ان نخترق غياهب العصور ؛ حيث يختلط التاريخ بالخرافات وتندمج الحقائق فى الاساطير ؛ لكى نبحث عن سكان صقلية الاصليين ؛ وهل كانوا فى العصر الحجري من اقوام الشمال انحدروا نحو الجنوب ؛ او من اهل الجنوب صعدوا نحو الشمال ايام ، كانت اوروبا وافريقيا قطعة واحدة ، وصقلية اداة وصل بينهما •

وان كان لى ان ابدى رأيا فى الموضوع ؛ لا يعتمد الا على الحدس والتخمين ، فهو ان سكان المغاور والكهوف انذين عمروا صقلية انما صعدوا اليها من افريقيا ولم ينحدروا لها من اوروبا ؛ ذلك ان مناخ صقلية اطيب ، ومراعيها اخصب ، ومياهها اوفر من افريقيا ؛ والانسان الاول فى فجر حياته كان يبحث عن كل ذلك ويسير نحوه حيثما وجده ؛ وعليه فسكان صقلية الاولون يكونون فرعا من اجداد البربر سكان الشمال الافريقى • وهذا البحث جدير بالاهتمام والدراسة •

انما الذى اثبتته التاريخ بصفة قطعية ، هو ان سكان صقلية فى العهد التاريخى كانوا من قوم « الصيقول » وهم امة نشأت فى بلاد البلقان ما بين مقدونيا وبلاد الاغريق ؛ ثم استوطنوا ايطاليا ومنها عمروا الجزيرة التى اشتقت يومئذ اسمها من اسمهم (صيقول = صقلية) فابتلعوا من سبقهم بها من الشعوب الاخرى •

ثم امت الجزيرة جموع وائرة العدد من جزيرة اقريطش ، واخيرا هاجر اليها قوم غفير العدد من الاغريق ، فعمروها وهذبوا حواشيها ، ومدنوها على غرار مدنياتهم انلامعة الزاهية ، وكانت يومئذ نبراس العالم المنير ؛ فابتلعوا فى بودقتهم كل العناصر الاخرى ؛ ولم يبق بالجزيرة الا الاغريقى الاصيل او الاغريقى الصيقولى الاصل •

اشتعلت نيران الحرب البونيقية بين روما وقرطاجنة فوق اديم الارض الصقلية فامتلات الجزيرة بالرومانيين والقرطاجنيين وبالتابعين وتابع التابعين

لكل من الفريقين من عبيد وجند مرتزق شمل اخلاطا من شعوب البربر والقوط والوندال .

ثم ان الفتح الاسلامي قد طبع البلاد بطابعه الخاص ؛ فترك بها من سلالات العرب والبربر ما لا يمحى اثره ، او تنعدم شمائله ، كما ترك اهل الشمال الترمانيون اثارهم كذلك بينة واضحة ، كما تركها من بعدهم الجرmaniون الذين اسسوا دولة « شواب » هنالك .

فالعنصر الصقلي انيوم ، مزيج من شعوب الشرق بين يونان وكنعانيين وعرب وبربر ؛ ومن لاتينيين وجرمانيين . ولا تزال بالجزيرة جماعة لا شك من اصلها الكنعاني ، تتكلم لسانها العربي المحرف على غرار اهل مالطة ، ولا تزال محافظة على شيء من طقوس من دينها الوثني القديم .

ولقد انتج اختلاط هذه العناصر وتساكنها ، بله وتنازعها البقاء ثم تشكل بقاياها في صفة امة ، قوما اقوياء البنية قصار القامة ، نحيفى الاجسام ، لا يزيد معدل الطول فيهم عن ميتر و ٦١ في السواحل وميتر و ٥٠ في داخل البلاد .

ولقد تقنى بعض الشعراء بجمال المرأة الصقلية ، كما ضربت بجمال المرأة الاسبانية الامثال . انما كلتا المرأتين لا تتميزان بشيء عن المرأة المتوسطة الاعرابية ببلادنا .

وليس للرجل الصقلي ما يميزه كثيرا عن الرجل الاسباني ، بل انك في اغلب الجهات تكاد تجده اسبانيا خالص السحنة ؛ اعين سوداء لماعة ، وبشرة سمراء قائمة ؛ وانف اقنى ، وخدود غائرة ، فهو بلاشك اقل جمالا من العربي الصميم .

وفى كثير من الجهات تجد الشعر الكستنائي والعيون الشهل ، وتجد احيانا على قلة الشعر الاشقر والاعين الزرقاء وذلك في الاوساط المشرية الراقية ؛ مما يدل دلالة واضحة على انهم من بقايا الترماني والجرمانيين . والصقلي بصفة عامة متوسط الذكاء ؛ ويكون ذكاؤه احيانا دون

المتوسط ، وهو غير مبال لعلم ولا لفن ؛ وكانت الامية تغلب على البلاد بصفة مدهشة قبل الاستقلال الماتى فهناك تجد ، الخرافات موطنا خصبا ، والاعتقاد فى القوى الطبيعية ومفعول اتسحر عظيم ؛ والعادات الوثنية قد تركت هناك اثرا لم تستطع محوه يد الاسلام ولا يد النصرانية .

المجتمع : سكان صقلية اليوم يزيدون عن خمسة ملايين نسمة ، يتكلمون نوعا من اللغة الطليانية المحرفة ليست بذات رقة ولا جمال ، ويعيش الناس هناك منقسمين الى طبقات اجتماعية ينفصل بعضها عن بعض ولم تستطع ايدى الاصلاح القليلة ان تغير من ذلك شيئا محسوسا . فالسواد الاعظم من الناس كان يعيش هناك مع السلطة الطليانية الملكية مهضوم الحقوق مهيض الجناح فاقد كل وسائل الحياة الشريفة . .

هناك طبقة مستعمرة غنية ؛ تملك الارض وما عليها ، تسرف فى الترف وتنعم بملذات الحياة ، وتتمتع بسكنى القصور الفخمة والحدائق الغناء؛ وترداد الاندية الفاخرة ؛ ثم هى تدير مزارعها الشاسعة مصدر ثروتها ومنبع غناها بواسطة نظار ماجورين ؛ وعمال فلاحين لهم عليهم اغلب الحقوق التى كانت للامراء الاقطاعيين فى القرون الوسطى ؛ وكانت هذه الطبقة قبل النظام الفاشيستي واثناءه ؛ تؤلف كتلة قوية تخضع لارادتها رجال الحكومة ونواب الامة وشيوخها ايام الحكم البرلماني ؛ وكثيرا ما مد هؤلاء الطفاة ايديهم لعبيدهم ؛ وساعدوهم على القيام بسافل المآرب مقابل المساعدة التى يلقونها منهم لتنفيذ غايتهم من مقاومة الحكومة ان ارادت اصلاحا لايرضونه ؛ ومن التعرض لنزع ملكية الارض لفائدة صندوق الدولة اذا ما تراكمت الضرائب عليهم ؛ وغير ذلك مما يطول ذكره .

ولقد شكل حثالة الصقليين جمعية سرية اسموها « لامافيا » انتشرت فى انحاء البلاد ونشرت شرورها وآثامها ؛ وتطخت بالدماء البريئة ارجاءها ؛ خدمة لمآرب سافلة وارضاء لمطامع نفسية دنيئة .

تاريخ صقلية - ٢

وتحت هذه الطائفة فى السلم الاجتماعى ؛ توجد طبقة المديرين والمحصلين والسماصرة الذين يباشرون الأمور وساطة بين كبار المستعمرين والمعملة .

واخيرا فى اسفل الدرجات ؛ تجد طبقة العمال الفلاحين وكانت تكاد تكون من طبقة الرقيق ؛ لا يرى الرائي لها مثيلا ، الا فى روسيا قبل ثورتها الشيوعية او فى بعض جهات الشمال الافريقى ايام الاستعمار الفرنسى الفظيع .

فالتبقات العاملة ، ليست لها مساكن صحية ، ولا تتقاضى من الاجر الا ما لا يكاد يسد الرمق ؛ وليس لها من اللباس الا ما يكفى لتمييزها عن بقية الحيوان ، ثم تراها بعد ذلك تروح تحت وطأة الضرائب العامة التى تصيب المواد الاولية الضرورية لحياة الانسان ؛ فالصقلى كان افقر انسان فى رعوية ايطاليا لكنه يتحمل اربعة اضعاف ما يتحمله الطليانى من الاعباء ؛ ثم هو لجهله وقلة ادراكه ؛ كان يطيع السادة الاقطاعيين طاعة عمياء ؛ ياتمر طوعا باوامرهم وينتهى بنواهيهم ؛ كانه يعتقد دينيا بان الله خلقه من اجل خدمتهم .

اما طبقة العمال فى المناجم والمعادن ، وبقية الصناعات الاخرى ؛ فقد تمكنت بفضل اجتماعها وتغلغل الافكار الاشتراكية فيها ؛ من تغير حالها والاحراز على بعض الحقوق ؛ ولقد جنحت فى بعض الاحايين لفكرة الشيوعية؛ الى ان ضربتها الفاشستية الهوجاء فسوت بينها وبين بقية العمال فى ايطاليا تحت لواء طغيانها . واستمر انين العمال خافتا ؛ الى ان اقلت شمس الفاشيستية ؛ وهاجمت قوات المتحالفين من انكليز واميركيين ارض الجزيرة ، فلم يحرك اهلها ساكنا ، بل تقبلوا الفاتحين بصدور رحبة ملئت الحرب ؛ وقلوب مبتهجة سئمت الجور والطغيان ؛ وكانهم قالوا ان ليس فى الامكان اسوأ مما كان ؛ فمرحبا بالقدام الجديد ؛ عله يصلح ما افسده الاقدمون .

وبعد كفاح طويل ، نالت الجزيرة ما كانت تصبو اليه من استقلال

ادارى ، وحكم محلى ، كما سترى فى الموجز التاريخى ، فانكب احرار صقلية
على اعمال الاصلاح الذى شمل الميادين الاقتصادية والاجتماعية • ولا يزال
مجال العمل امامهم فسيحاً •



القسم الثانى

تاريخ جزيرة صقلية من اقدم عصورها الى اليوم

الفنيقيون : منذ نحو الالف سنة قبل الميلاد (١) توطن شعب الصيقول الجزيرة التى اشتقت من اسمه اسمها ، واسس ذلك الشعب المدن والداكر ، واصلح الارض ، ولم يقع اى تصادم بينه وبين رواد المدنية الشرقية بحارة فنيقيا من بنى كنعان ، وقد كانوا يومئذ يجوبون عباب البحار ويؤسسون على سواحلها قرى تجارية كانوا يدعونها « المصارف » وبواسطتها كانت اشعة انوار المدنية الشرقية تبدد ظلمات الوحشية الغربية . وان المبادلات التجارية ولتعارف والتثالف حول تبادل المصالح لاحسن وسيلة لارتباط الشعوب بعضها ببعض وتآخيا فى سبيل التقدم الانسانى ، شتان بينها وبين وسائل الغزو بواسطة الحديد والنار ؛ واخضاع الشعوب الضعيفة تحت نير الاستعمار .

سلك الفنيقيون هنالك مسلكهم فى بقية الحوض الغربى من البحر المتوسط فاسسوا بالجزيرة مراكزهم التجارية العمرانية ومنها « معطية » و« بانورم » « بالرمة » و « صلديس » .

الاغريق : وانبثق بعد ذلك من الشرق نور جديد ، بسط على صقلية شعاعه مع رجال الاغريق ذوى المدنية الزاهية الزاهرة ، فاستوطنت جموع كثيرة منهم شرقى الجزيرة فعمروها واسسوا بها مدنا شهيرة مثل « سرقوسة » سنة ٧٣٤ ق م و « قطانية » خمسة اعوام بعد ذلك و « مسينا » حوالى ذلك التاريخ ، واستمر نفوذ اليونانيين الاغريق فى تقدم وازدياد نحو مائتى عام الى سنة ٥٣٦ ق م .

(١) فى نفس الوقت الذى ابتدأت فيه هجرات الكنعانيين الفنيقيين الى المغرب العربى .

تدخل قرطاجنة : تضاعف شأن الاغريق حيث كانت بلادهم ميدانا للانقسام والتناحر حول الحكم والمناصب ؛ وما كانوا يتورعون عن ايقاد نيران الحرب الاهلية فى ذلك السبيل ؛ وكانت يومئذ مدينة قرطاجنة الافريقية الكنعانية تسطع بدرا لا معا فى سماء العالم القديم ؛ وكانت رأسخة القدم فى بلاد الشمال الافريقى ، تربط بين مختلف ارجائه برباط المصلحة والمدنية ، ولقد مدت ابصارها الشرهة نحو جزيرة صقلية ورامت الاستحواذ عليها ، اما تمهيدا لوثبة اخرى من ورائها نحو القارة الاروبية ، واما اتقاء لشر غارة يشنها عليها من يثبت قدمه بتلك الناحية ؛ وقد كانت قرطاجنة احتلت قبل ذلك جزيرتى سردينيا وكورسكا .

لقد كان انزاع يومئذ مستفحما بين الاغريق والفينيقيين فى صقلية ، واصبح العنصران يتنازعان هنالك البقاء . فاغتنت قرطاجنة الفرصة وجهزت اسطوارها بحمل جندا عتيذا تحت قيادة السبط « مالى » . وكانت مهمته الظاهرة انجاد الفينيقيين فى الجزيرة ونصرتهم ضد الاغريق ؛ ومهمته الخفية نصب سلطان قرطاجنة على لبلاد . لكن السبط مالى اخفق فى انجاز مهمته . وتغلب عليه اغريق الجزيرة فاخلى ما احتله من البلاد ورجع خائبا الى قرطاجنة .

لم تكن الحيات العسكرية تشنى عزم القرطاجنيين عن مداومة الكفاح والنضال ، فاخذوا يستعدون لاعادة الكرة ، وادادوا قبل ذلك ان يأمنوا شر تدخل اجنبى فى الامر ؛ وادادوا ان يجعلوا الاغريق فى عزلة سياسية وحربية ، حتى لا يجدوا معينا لهم فى البحر المتوسط ، فتعاقدت قرطاجنة مع عدو الاغريق ، ملك الفرس « اكسريس » وتحالفت فى نفس الوقت مع الرومانيين الذين لم يتألق نجمهم بعد فى سماء البحر المتوسط ؛ ووضع القرطاجنيون بهذه الصفة جنوب البلاد الطليانية ضمن منطقة نفوذهم .

جهزت قرطاجنة حملتها الثانية تحت امرة « عملكرض بن ماغون » البرقى وارسلت به الى صقلية ، فتصادم تحت جدران سرقوسة مع الاغريق وما كان

نصيب هذه الحملة الا كنصيب الحملة الاولى : خذلان وفشل ذريع ؛ اما القائد فقتل ، واما الجند فاسر ، واما الاسطول فدمر .

وكانت بلاد الاغريق يومئذ قد وثبت وثبة جريئة واستعادت قواها ومنعتها فلم يكتف الاغريق بدحر القرطاجنيين بصقلية ، بل تغلبوا مع ذلك وفي نفس الوقت ، على الفرس اعدائهم الاقدمين في وقعة سلامين الشهيرة سنة ٤٨٠ ق م .

طلبت قرطاجنة يومئذ الصلح فنالته بعد لاي من الملك جيلون الاغريقى الصقلى ، وكان من جملة شروط الغالب على المغلوب ان التزمت قرطاجنة بالعدول عن تضحية الصبيان بين يدي الصنم ملك . . .

ولئن كانت الحيلة اليمية ، فقد كانت العزيمة عظيمة ؛ وما عثم القرطاجنيون ان جهزوا حملة ثالثة تحت امرة حنبعل بن عمكرض (هو غير حنبعل الشهير بطل الحرب البونيقية) فساروا اليها بقوة وعزم يحدوهم الامل ، وتدفع بهم نحو الامام عاطفة الانتقام والاخذ بالثار ، فنزل حنبعل الجزيرة ، واخرقها بجيوشه الجرارة ، ونكل برجال الاغريق تنكيلا ذريعا فذبح في المكان الذى قتل فيه ابوه عمكرض ثلاثة الاف من مقاتليهم المأسورين ؛ ووطد بعد ذلك سلطانه على نحو الثلث من الجزيرة ، ونال الفنيقيون المتوطنون هنالك فوزا عظيما . ثم انعقد الصلح بين القرطاجنيين وبين الطاغية دينس ، اليونانى ، ملك سرقوسية ؛ نال بواسطته كل من الفريقين الاستقلال بالحكم فى نصف من الجزيرة .

وما كان الصلح من دينس الا خدعة وكسبا للوقت ؛ فلما كانت تنقضى مدته المعينة ، حتى كان قد اكمل عدته واحسن عدته ؛ وشنها على قرطاجنيين والفنيقيين حربا شعواء ، دحرتهم آخر الامر فحطم مدنهم وخرب معاملهم ؛ واسر رجالهم ونساءهم فبيعوا رقيقا .

حاول السبط هملقون محاولة جريئة للأخذ بالثار ؛ وانقاذ ما يمكن انقاذه ، فحاصر سرقوسة فعلا واحتلها ودحر الاغريق فى عدة مواطن ، وكاد

يستتب له الامر نهائيا ، لو لا ان مددا عظيما جاء الاغريق من بلاد اليونان ام الوطن ، فدارت الدائرة من جديد على رجال قرطاجنة وانتحر السببط - هملقون - بالاقلاع عن الطعام ، وهذه اول مرة فى التاريخ على ما اعلم نرى فيها مثلا لاضراب الجوع الذى اشتهر فيما بعد فى تاريخنا الحديث باضراب الزعيم الارلاندى « ماكسويل » شيخ مدينة يورك وباضرابات زعيم الهند « غاندى » المتوالية ؛ واضرابات احرار الجزائر الصناديد ايام حرب التحرير . وخسرت قرطاجنة يومئذ سنة ٣٩٥ قم جميع ما امتلكته فى الجزيرة ، فاحتله الاغريق .

لكن المحاولة الخامسة لم تبطئ كثيرا ؛ فجهزت قرطاجنة القائد « ماغون » وارسلته صحبة جند ضخمة واسطول قوى ، فامتلك الكثير من السواحل الصقلية ، وثبتت هنالك اقدام القرطاجنيين الذين اتصلوا بالقائدين صدر بعل وعملكرض مددا ؛ والقت قرطاجنة يومئذ فى الميدان الصقلى باحسن ما كان لديها من جند وعتاد . واستمرت الحرب طويلا فى الجزيرة بين قرطاجنة وسرقوسة الى سنة ٢٦٤ قم ، حيث استتب لهم الامر بكامل الجزيرة ؛ لا بواسطة الحرب والقتار ، بل بواسطة انقلاب سياسى خطير ، ذلك ان الملك الاغريقى « هيارون » اذ راي نفوذ روما يقوى ويشتد ويتفاقم امره ، دخل تحت حماية قرطاجنة ، وتماقد معها على دحر كل طارق جديد .

روما وقرطاجنة : كانت رومة حقا قد نشأت يومئذ نشأة قوية واشتد ساعدها واخذت هى الاخرى ترمى بانظارها وراء البحار ؛ فرات مثلما رات قرطاجنة من قبل ان امتلاك صقلية ؛ انما هو عمل اساسى من اجل تحقيق امانها فى التوسع والاستعمار ، وان السلطان الرومانى لن يتحقق فى البحر المتوسط ، ما تم ينصب اعلامه من قبل فوق اديم الارض الصقلية ؛ ومن ثم شجرت الحروب البونيقية بين روما وقرطاجنة ، فدامت ١١٨ عاما ؛ فى ثلاث دفعات متوالية ؛ ابتداء بصقلية سنة ٢٦٤ وانتهت بتعطيم قرطاجنة وادامها من عالم الوجود ، بصفة وحشية ، سنة ١٤٦ قم .

كان السبب الظاهري للحرب البونيقية الاولى ؛ وهى الوحيدة التى يهمنى
امرها فى جزيرة صقلية ، هو ان جماعة من سكان ايطاليا كانوا يحتلون
مدينة مسينا المواجهة لبلادهم ؛ فكانت - حسب التعبير العسكرى الحديث -
راس جسر مده الطليانيون فى الارض الصقلية ؛ واذ كانت روما قد شبت
وترعرعت واصبحت تحلم بالسيادة البحرية ، راي القرطاجنيون ، كما راي
حليفهم الاغريقى ملك سرقوسة ، ان بقاء الطليانيين بمسينا يوشك ان يكون
خطرا يهدد الجزيرة بشر مستطير ؛ فجهز الحليفان حملة داهمت مسينا ؛
فاستنجد اهلها ببنى جلدتهم الرومانيين ، وكان هؤلاء لا ينتظرون الامثل هذه
الاشارة ، فارسلوا عشرين الفا من خيرة رجالهم ؛ يقودهم القنصل « ابيوس
كلوديوس » نزلوا مرسى ريجو ؛ وارغموا القرطاجنيين على فك حصار مسينا
واطردهم عن ساحتها ، فاعتصموا ببعض معاقلهم بعيدا عنها ؛ ثم لوى
الرومانيون عنانهم نحو الملك الاغريقى هبارون فاضطروه للالتجاء الى معقله
فى سرقوسة ، ثم فاضوء فى نكت عهدهم القرطاجنيين . وقد راي راي العين
قوة شكيمة الرومانيين ، وحسن نظامهم ، واقتنع بان الحسران سيكون
نصيب اعداء الامس وحلفاء الساعة ، فقلب لهم ظهر المجن واعلن محالفة رومة
واخلص لها الولاء . وذلك سنة ٢٦٣ ق م ، ورجع القائد حنون القرطاجنى
لوطنه مذموما مدحورا ، فاتهم هنالك بخيانة الوطن واعدم صلبا .

رأت قرطاجنة يومئذ ، والحق ما رأت ، ان المسالة اصبحت تتعدى
صقلية ، وان الهدف الذى يرمى اليه الرومانيون هو سيادة البحر المتوسط ،
وان الحرب ان غادرت الارض الصقلية فلكى تحل بويلاتها فى الارض
الافريقية . ومن اجل ذلك قررت وجوب التضحية بكل عزيز فى سبيل
الاحتفاظ بتلك الجزيرة ؛ او على الاقل بجعل الحرب منحصرة هنالك ، وقاية
لقرطاجنة وارضها الافريقية ؛ فجهزت من اجل ذلك حملة جديدة ، بلغ عدد
رجالها ٥٦ الف رجل ، نزلوا بمدينة « اقريجنت » ، وتصادموا حولها مع
جند الرومان تصادما رهيبا ، وما استطاعوا صد رجال رومة عن تلك المدينة،

فسقطت بين ايديهم ، وباع الرومانيون بيع الرقيق من بقى من اهلها حيا ،
وكانوا زهاء الخمسة والعشرين الفا .

وما كانت تلك خاتمة نكبات قرطاجنة بأرض صقلية ، فان هذه الدولة
التي أظهرت بهذه المناسبة ثباتا عز في التاريخ نظيره ، ارسلت القائد صدر
بعل سنة ٢٥٠ قم ؛ لمحاولة استرجاع ما فقدته بصقلية ، ولأمداد معاقلها
الباقية هنالك بالنجدة اللازمة ؛ فنال أول الامر فوزا وجيزا ، ثم دحره
القائد الروماني « ميتلوس » آخر الامر وكسره سر كسرة وقتل من جنده
اكثر من عشرين الف زجل ، ورجع القائد المندحر لقرطاجنة حيث كان
ينتظره الاعداء صلبا .

كانت تلك آخر عملية ذات اهمية قامت بها قرطاجنة هنالك ، وقد اعتقد
رجالها آخر الامر ، وعندما نصب معينهم ، ان صقلية قد افلشت من ايديهم
نهائيا وان لا قبل لهم بمقاومة الرومانيين ، فلم تكد تخفق المحاولات النهائية
اليائسة التي قام بها القائد عملكرض البرقى سنة ٢٤٢ قم ؛ حتى انسحبت
قرطاجنة نهائيا من تلك الجزيرة بعد تدخل واستيلاء داما ٢٧٤ عاما ، وانتهى
بذلك أمر الحرب البونيقية الاولى .

لقد كانت هذه الحرب اكبر اسباب انهيار قرطاجنة فيما بعد ، اذ فقدت
فيها تباعا زهرة رجالها ، وخيرة قوادها واكثر معداتها ومدخراتها ؛ كما
كانت هذه الحرب ايضا اول اشراق لبدر رومة الذي ازداد فيما بعد - طيلة
قرون عديدة - نموا ولعانا .

الحكم الروماني - اصبحت الجزيرة يومئذ من ممتلكات روما ، تابعة لها
في حياتها الادارية والاقتصادية ؛ واصبح تاريخها في ذلك العهد جزءا من
تاريخ الامبراطورية الرومانية عدة قرون ؛ شاركت فيها نمو الامبراطورية
وصعودها اوج القمة ؛ وشاركت فيها انحدارها في مهاوى الانحطاط والانحلال
شاركت صقلية روما في حروبها الداخلية الفتاكة ، فنالها من جراء ذلك
خراب كبير ؛ وعلى الاخص بعد تلك الفتنة الوحشية انفضيعة ؛ فتنة

اوكتافىوس ويومباى ؛ حيث خربت المعالم وحطمت المدن ، وعمت النكبة سائر اصقاع البلاد ، حتى اضطر امبراطور اغسطس لاعادة بناء مدنها وتعميرها من جديد بواسطة جموع من الرومان والافاقيين والعبيد .

وقد كان كبار المستعمرين الرومانيين يرسلون الى الجزيرة زرافات من العبيد يعملون هنالك كالانعام لفائدة السادة ، وكانوا يعاملون معاملة هي الوحشية بعينها ، رمت بهم الى احضان الثورة العنيفة مرارا ؛ فكانت ثورات العبيد الفتاكة ضد ساداتهم ، سنوات ١٣٩ و ١٠٤ ق م و ٢٥٩ بعده ؛ من اكبر نكبات الجزيرة اثناء الاحتلال الرومانى .

وعندما انقسمت الامبراطورية الرومانية شطرين : بيزنطية شرفية ، ورومانية غربية ؛ كانت صقلية من نصيب الرومانيين ونالها ما نالهم فى عصر الانحطاط والاضطراب ، من فتن فى الداخل ؛ وتدهور فى الاخلاق ، وانحطاط فى النفوس ، واخيرا السقوط تحت ضربات الشماليين ؛ الذين كانوا يدعونهم يومئذ « الباربار » اى الوحشيين .

صقلية الرومية - عندما استقرت قدم الوندال بالشمال الافريقى ؛ ونسفوا باعانة البربر فى سنوات قليلة كل معالم الرومانيين بهذه الارض ما دية كانت او معنوية ؛ اصابتهم ممن سبقهم بقرطاجنة عدوى الفتح والتوسع ، فتوجهوا صوب صقلية ايام عاهلهم العظيم جنصرىق ، واستحوذوا عليها دون عناء كبير واتخذوها مركزا لغزواتهم ضد ايطاليا وما حولها .

لكن ايام الونداليين لم تطل كثيرا هنالك ؛ حيث ان الروم البيزنطيين اعادوا الكرة عليها ، واستخلصوها القائد بليزار من ايديهم نهائيا سنة ٥٣٠ م (١) ، واصبحت منذ ذلك العهد ، ولمدة ثلاثمائة سنة ، قطعة من الارض البيزنطية ، اصابها اثناءها ما اصاب بقية الارض الرومية ، وخاصة الشمال الافريقى ، من فتن واضطراب ، وفساد فى الادارة ، وفتن ودسائس ؛ حيث اصبحت الرشوة هى القانون العام الذى يخضع له الموظفون واصحاب السلطة والنفوذ ؛ فما ترك الروم الجزيرة الا وهى اشبه شىء بالحراب البلقع ، وذلك سنة ٨٢٧ م .

صقلية الاسلامية - توطد سلطان المسلمين بالبلاد حسبما سيأتي تفصيله ،
وتوالت على الجزيرة وفود العرب والبربر ؛ للفتح والسكنى والاستعمار ،
فبنوا فيها القرى والديساكر ، وعمرّوا بساتينها ، واحيوا حقولها ، واسسوا
المدارس والمساجد ، وانشأوا بها صناعات كانت يومئذ مجهولة في اوروبا ،
وادخلوا فيها كما رأيت في القسم الجغرافى ؛ اشجار الزيتون ولنخيل
والليمون ولبرتقال وقصب السكر ؛ ثم تركوها جنة يانعة ؛ حسبما سيمر
بك في آخر الكتاب ، رغما عما كان يقع بينهم من فتن دامية واضطرابات ،
ورغم الوقائع الحربية التى كانت مسترسلة بينهم وبين المسيحيين دون
انقطاع .

ولقد حكم المسلمون صقلية ، غازين فاتحين ممدنين ، مدة ٢٣٣ عاما
عنها ، فكانوا طيلة عهد النرمان ، هم الذين يديرون الملك ويدبرون شؤون
السياسة ، ويعمرون قصور الامراء ودور العلم ، ويشيدون المعالم والمعاهد ؛
هجريه (٢٢٤ عاما ميلادية) من سنة ٢١٧ الى ٤٥٠ هـ .ج . ومن سنة ٨٣٢ الى
سنة ١٠٥٦ م .

الا ان نفوذهم بقى عظيما قويا فى الجزيرة ، بعد ان تقلص سلطانهم
والمعاهد فكانوا يومئذ يشتركون فى حكم الجزيرة اشتراكا فعليا ، حتى انه ليكاد
يتقرر بان ازهى واظهر عصور المسلمين فى صقلية انما هو العصر الذى عملوا فيه
اعمالهم التمدينية الباهرة تحت سلطة امراء النرمان .

ولقد اتخذ اولئك الامراء الشماليون . وكانوا حديثى عهد بالمدنية ،
سيرة ملوك المسلمين ، فلبسوا لباسهم ، وتحلوا باخلاقهم ، وسكنوا
مساكنهم ، واستعملوا فى دواوينهم لغتهم العربية ، فكانت الدولة يومئذ

(١) بعد اربعين عاما ، سنة ٥٧٩م ازدان العالم بازياد سيد البشر محمد بن عبد الله صلى الله
عليه وسلم بمكة المكرمة ؛ ايام حكم كسرى انوشروان بالفرس ، وحينما كان ابرهة ملك
الحبشة ، صاحب الفيل ، يحاول فتح مكة لتحطيم الكعبة ، فدمره الله شر تدمير ، وللبيت
رب يحييه .

دولة نرمانية اسلامية ، ودامت الحالة على ما ذكرنا سائرة لا محالة فى طريق الضعف والانحطاط والتدلى طيلة ١٩٣ عاما ؛ الى ان طغى سلطان التعصب الدينى ، فأخرج الامبراطور افريدريك الالماني المسلمين عامة من الجزيرة وانزلهم بالسواحل الافريقية ؛ وبقيت منهم بقايا بالبلاد تنصرت او ماتت هما وكندا .

وهكذا اقام المسلمون من اهل الشمال الافريقى بالارض الصقلية بين حاكمين ، ومشاركين فى الحكم ، ومحكومين ٤٢٦ عاما : تفصيلها بالتاريخ الهجرى :

مدة الحكم الاسلامى (٢١٧ - ٤٥٠) ٢٣٣ سنة

مدة الحكم النرمانى (٤٥٠ - ٦٤٣) ١٩٣ سنة

النرمان - النرمان ، واسمهم مشتق من كلمة نور Nord اى الشمال قوم انحدروا من اعالي اوروبا ، وخاصة من قطرى النرويج والدانمارك ، نحو جنوب تلك القارة وشرقها ، فاغاروا خلال القرن التاسع الميلادى على بلاد الشرق الاروبى وكانت تلك الطائفة المغيرة منهم تدعى « روس » فتوطنوا السهول حوالى نهر « دنيابر » وعمرؤا مدن سمولنسك وكييف وغيرها من شهيرات المدن التى سارت بذكرها الركبان خلال الحرب العالمية الثانية ، ثم توغلوا فى الارض ميممين شطرن الجنوب الشرقى ، مقتحمين امبراطورية بيزنطة ، حتى وقفوا تحت جدران القسطنطينية ، ثم رجعوا عنها خائبين ، وثبتت اقدامهم بالشرق الاروبى ، فاصبحت البلاد هنالك تدعى باسمهم « روسيا » .

ولقد كان لمقامهم بالغرب الاروبى ، ما كان لمقامهم بالشرق من اثر كبير ؛ فانهم كانوا يتدفقون نحو الغرب فى جماعات متوالية ، قليلة العدد ، يركبون مراكب خفيفة سريعة ، يلقون مرساها عند مصب الانهر الفرنسية الكبرى ؛ وخاصة نهر السين ، وهنالك كانوا يطلقون لعواطفهم الوحشية العنان من نهب وسلب ، وتخريب معالم ، وهتك حرمت ، لا يراعون فى مخلوق الا ولاذمة ؛ وابتدأ ذلك الخطب الوبيل حوالى سنة ٨٠٠ ، عند ما كان الامبراطور

شرلمان يتولى امر امبراطورينه الغربيه ، وعند ما كان ابراهيم بن الاغلب يؤسس فى افريقيا دولته المستقلة ، ضمن دائرة الخلافة العباسية .

واما ملك الانكليز القريد الكبير ، فقد ار قف تيار هجرة النرمانيين الى بلاده بواسطة معاهدة عقدها مع كبرائهم ، بدل فى سبيل تحقيقها غالى الثمن ، واشترى بواسطتها راحة بلاد الانكليز اى حين .

اما شارل الاصلح ملك فرنسا ، فقد أخذ يحدو حدو الانكليز ، ويشترى بالثمن اتفاحش مرة بعد اخرى ، انسحاب النرمانيين من بلاده . ولقد نقضوا مرة العهد ، وضيّقوا على مدينة باريس الحصار ، فلم ير شارل السمين ، ملك فرنسا يومئذ بدا من بذل ثمن لانسحابهم لم يرو لنا التاريخ مثلا له فى حطته ودناءته : سمح لهم بمقابل فك الحصار عن باريس بنهب مقاطعة برغونيا الغنية الزاهرة ، ولا نسل عما وقع هنالك من فظائع واهوال ووحشية تقشعر لذكرها الجلود (١) .

واخيرا تعاقد معهم نهائيا ملك فرنسا شارل البسيط ، فاقطعهم الناحية الشمالية الغربية بفرنسا ؛ على ضفاف بحر المانش ، وهى التى اتخذت منذ تلك الساعة اسمهم فاصبحت تدعى « نورمانديا » وهى اليوم من ازهر وابدع جهات فرنسا ، وفى مقابل ذلك اعترف اميرهم رولون بالتبعية لملك فرنسا ، فتأقلموا فى البلاد وانتهى امر عدوانهم .

(١) كان من نتائج اعمال النرمان بالبلاد الفرنسية ، ان انتظمت بها حياة « السادة » الاقطاعيين ؛ واصبح لهم النفوذ المطلق بالبلاد ؛ حيث ان عامة الشعب لم تكن قادرة على الدفاع عن نفسها ؛ فأخذ الاغنياء ينشئون القصور المحصنة ويحيطونها بالاشوار المنيعه والخنادق العميقة ، وكلما تم بناء قصر ؛ امته جموع الشعب فسكنت حوله ، واحتمت به ، فكان سيد القصر يبذل حمايته لتلك الجموع ويعودها فى الحرب مقابل اطاعتها له واذعانها لأوامره ، وازدادت تلك الطاعة مع مرور الزمن حتى اصبحت عمودية مطلقة ؛ واصبح السيد يملك رقاب رعاياه ومتاعهم ، ومن جملة حقوقه الدخول على كل امرأة عند زفافها قبل زوجها ؛ ونعاقم نفوذ هؤلاء السادة ، حتى اصبحوا اشبه شئ بالملوك المستقلين ، ومنهم من نما سلطانه واستقل فعلا وبتر علاقاته مع الملك ، وامتلات القرون الوسطى بفظائع ووحشية هؤلاء السادة الهمج . وكان لهم خلال العدوان الصليبي على بلاد الاسلام شأن كبير .

الا ان اغرب غزواتهم وابعدها مدى واكبرها اثرا ؛ هي غزوتهم لجزيرة صقلية ، وغزوتهم بلاد الانكليز على يد غليوم الفاتح امير نورمانديا ، المولود بمدينة فاليز من مدنها اثنتى لا تزال قائمة الجدران ؛ فانه قد اغار بجموعه على بلاد الانكليز سنة ١٠٦٦ وقتل ملكها فى موقعة هاستينغ التى كانت اعظم انتصار تحصل عليه النرمان فى تاريخهم ، فبايعه الانكليز ملكا عليهم فى مدينة لندن ، واحاط عرشه بسياج متين من الاشراف واللوردات وكبار الامراء ؛ فطبع بلاد الانكليز بطايعه الخاص الذى لا يزال الى يومنا هذا موجودا ، رغم تطور الزمن .

اثناء هذه الحوادث كان فريق آخر من النرمان فى الجنوب الاربى ؛ قد وطدوا ملكهم على انقاض ممتلكات الاغريق بالبلاد الطليانية الجنوبية ، وفى سنة ١٠٦١ اجتاز احد ملوكهم روجى (رجار) مضيق مسينا ، ووضع قدمه فوق الارض الصقلية لمحاربة المسلمين والقضاء على ملكهم هنالك ، فنشبت بين الفريقين حرب عوان استمرت ثلاثين سنة ، وانتهت عام ١٠٩٦ (١) بتعطيم آخر مقاومة حربية اسلامية ؛ وقد كان حينئذ الامير روبرت ، شقيق الملك رجار ؛ قد مد سلطانه فى ايطاليا شمالا حتى مدينة نابولى .

تولى الملك فى صقلية سنة ١١٠١ ، الملك رجار الثانى الحكيم ، وكان فى اعماله وفى تصرفاته ملكا اسلاميا ، نالت الجزيرة فى عهده اوج عزها ومنتهى

(١) من غرائب الصدف ، ان تاريخ انتهاء آخر مقاومة اسلامية بصقلية كان تاريخ ابتداء تلك الحملة الشعواء الهائلة ، التى شنتها المسيحية على الاسلام ؛ والتى تعرف بالحروب الصليبية . فقام المسيحيون فى كامل البلاد الاروبية يحدوهم النعصب الاعمى نحت تأثير بطرس الراهب ؛ والبابا اوريانوس الثانى ، وكانت نتيجة الحملة الاولى من هذه الحرب الوحشية ، احتلال بيت المقدس سنة ١٠٩٩ ؛ وكان المسلمون قد التجأوا الى مسجدها الاعظم عندما اندحر جيشهم المؤلف من اخلاط الترك والعرب ، فاقتحم الصليبيون المسجد ، وذبحوا فيه وفيما حواليه . وبمساعى الفاعل من المسلمين ، ويقول التاريخ ان الدماء كانت تسيل يومئذ كالأودية بين الازقة والطرق . وقد استرجع البطل الاسلامى صلاح الدين الايوبى بيت المقدس من الصليبيين سنة ١١٨٧ ؛ واندحر ملك فرنسا لويز التاسع تحت جدران فرطاجنة . وتحت ضربات المستنصر بالله الحفصى سنة ١٢٧٠ ، وسنة ١٢٩١ سقطت آخر معاقل النصارى فى بلاد الشام بايدي المسلمين ، وبذلك انتهت المعامع الصليبية التى لطخت ارض الشرق بالدماء ما يقرب من مائتى عام فى ثمان حملات .

سؤدها ، وقال من البابا ١١٣٠ لقب ملك « الصقليتين » .
مملكة الصقليتين - كانت هذه المملكة تشمل صقلية ، وجنوب البلاد
الطليانية الى شمالى مدينة نابولى ، ولقد فقدت صقلية بتأسيس هذه المملكة
تيانها الذاتى ، واصبح تاريخها مرتبطا بتاريخ البلاد انطليانية .
لقد كان ازهر عصر من عصور هذه المملكة الفتية الناشئة هو عصر الملك
رجسار الثانى الآنف الذكر ، وكان قد وطد دعائم ملكه على كواهل المسلمين
وعلى سواعدهم وأسس بواسطتهم المدارس الكثيرة العالية التى بثت علوم
المسلمين فى كل انحاء ايطاليا ، وبقية البلاد الاروبية ، وكانت عن حق
اساس النهضة الاروبية الحديثة .

الحكم الجرمانى - لكن صقلية النرمانية الاسلامية سقطت سنة ١١٩٤
تحت سيطرة اباطرة المانيا من عائلة السواب الجرمانية ، واصبحت قسما من
تلك الامبراطورية التى تخضع عن كره منها لسلطان الجرمانيين . ومن اشهر
اباطرة هذه الدولة افريدريك الثانى ، فقد اعاد تنظيم الدولة واسس لها
مؤسسات حديثة جريئة ، فجعل منها اهم دولة اوروبية فى عصره (١٢٢٢ -
١٢٥٠) وكان بلاطه الملكى فى بالرمة بفضل العرب اشهر بلاط فى بلاد اروبيا ،
وقد عمر الدولة مدارس ومعالم ، واختط المدن والقرى واكثر العمران ، وكان
ميالا للعلوم والفنون والآداب ؛ وسأتيك شىء من تفصيل حياته الغريبة .

اخراج المسلمين - الا انه الى جانب ذلك ، جنى جناية على صقلية قاست
- ولا تزال تقاسى - من جرائمها الامرين ؛ ذلك انه بعد سيرته الحسنة الطويلة
مع المسلمين ، اراد ان يوحدتها فى المسيحية ؛ وان يخرج منها الطائفة
الاسلامية القليلة التى بقيت بها فاركب جميع المسلمين البحر ؛ واجتاز بهم
الى الارض الافريقية ؛ ففقدت البلاد بذلك اذكى عناصرها واشدهم عملا
واكثرهم مدنية ؛ (١) واكبر دليل على ذلك ، هو ان الدولة اخذت فى الانحطاط
والتدلى عندما تم ذلك الجادث الجلل ؛ واخذت او صالها تتفكك ، وتطاول
الادعاء عليها فانهار بنيانها ، واغتتم البابا كليمون الرابع فرصة ذلك الانهيار

فافتك الدولة من ايدي النرمان والشواب ؛ ونصب على مملكة الصقليتين الامير الفرنسي شبارل دانجو شقيبث الملك لويس التاسع ، المعروف باسم القديس لويس الذي حارب المستنصر بالله الحفصي في الحملة الصليبية واهلكه الطاعون تحت جدران قرطاجنة تونس .

وانه لمن رائب الاقدار ، ان دولة النرمانيين ما عاشت في صقلية ، الا ما دامت معتمدة على جماعات المسلمين الذين افتكت البلاد منهم ؛ فلما اخرجتهم من البلاد انهار ملكها ودالت دولتها .

مذابح صقلية - كان عهد الفرنسيين بمملكة الصقليتين عهدا ثقيلا الظل غير مرغوب فيه . فالملك شارل ابتدا امره جاهلا عادات البلاد وتقاليدها ، فجرح احساس القوم ، واثقل الضرائب بصفة فاحشة ، واخذ يسحوذ ظلما وعدوانا على املاك الرعايا ويوزعها على رفاقائه الفرنسيين ، فكانت نتائج كل ذلك ان عمد اهل المملكة الى السلاح ؛ وقاموا ثائرين في وجه الطاغية الظالم وانصاره ، وتلك الثورة تعرف في التاريخ باسم (صلاة العصر الصقلية) **« Vepres Sicillienne »** : ذلك

لانيها انفجرت يوم عيد الفصح في سنة ١٢٨٢ (١) وكانت العلامة المتفق عليها بين الثائرين هي قرع نواقيس الكنائس ايذانا بصلاة العصر المسيحية ؛ فانقض الصقليون على الافرنسيين وقتلوهم حيثما ثقفوهم ؛ وعلى الاخص في مدينة بالرمة حيث لم ينج من الفرنسيين الا فارسان اثنان ؛ وكانت مذبحة من افطع واقسى ما رواه لنا التاريخ . وكان الزعيم يوحناى ابروتشيدا هو الذى تولى كبر الثورة واشرف على تنظيمها . واصبحت كلمة « صلاة العصر الصقلية » تطلق في الادب على كل مؤامرة تنتهى بمذبحة عامة .

دام الاضطراب بعد ذلك فى كل جهات الجزيرة ، وعم بها الخراب

(١) واقتدى به من بعد ملوك اسبانيا ، بعد سقوط غرناطة ؛ فابعدوا المسلمين كافة (ثلاثة ملايين) خلال قرن ونيف ، وقضوا بذلك على العلم والعمران واوقعوا البلاد فى وحدة الجهل والخراب .

والدمار ، فاستنجد الصقليون عائلة ارغون الحاكمة في بلاد الشرق
الاسباني (٢) ، فانجدتهم ضد الفرنسيين ، الذين ثبتوا في الجنوب الايطالي،
وكان خلفاء الملك شارل الفرنسي يتخبطون في دياجير الدسائس والفتن
والاضطراب ، وذاقت صقلية بعض الراحة تحت حكم الاسبانيين .

الحكم الاسباني - ورث ملوك قشتالة الاسبانيون ، عائلة ارغون فيما
كانت تحكمه من الارض ، وذلك اثر انقراضها ، فنصبوا سلطانهم على اديم
الارض الصقلية منذ سنة ١٤١٢ (٣) ثم استتب لهم الامر بالجنوب الايطالي،
فمحقوا خيال الحكم الفرنسي فيه ؛ واعادوا تأسيس مملكة الصقليتين كما
كانت اول مرة ، (١) وكان الفرنسيون يوالون محاولاتهم وتدخلهم مفسدين
على البلاد راحتها ، فعادت الفتن والاضطرابات من جديد ولطخت الدماء
الارض ، ودام ذلك الفساد نحو من تسعين سنة ، سادت فيها الظلمات
ارض الجزيرة وانمحت منها معالم المدنية التي شاهدها المسلمون هنالك
والنرمانيون .

ما صفا الجو للحكام الاسبانيين في مملكة الصقليين ، وما قُضوا على
آثار الاضطراب القديم الا حوالى سنة ١٥٠٣ ، ودام ذلك الحال في صفوف
نسبي خلال مائتي عام ؛ انخفت اثناءها دولة النمسا في محاولة نصب
سلطانها على الجزيرة ، وما كانت ايام الحكم الاسباني الا ايام ظلمات لم يقع
اثناءها اى اصلاح رغم بعض محاولات فاشلة حاولتها بعض ملوك البربون .

(١) سنة ١٢٩٩ . استقل الامير عثمان التركي في قطعة من بلاد آسيا الصغرى وانشأ على
انقاض المملكة السجوقية الواهية ، السلطنة العثمانية الكبرى التي شغلت كامل التاريخ
الحديث الى سنة ١٩٢٢ .

(٢) وقع ذلك بمدينة « القالة » على الساحل الشرقى الجزائرى ، حيث قام الاسبان باول محاولة
لاستعمار المغرب الاوسط ، في القرن الثالث عشر .

(٣) فى هذه السنة اعاد السلطان محمد الاول العثماني بناء السلطنة العثمانية بعد ان هد
اركانها الطاغية النثرى نيمور لك ، فى واقعة اقرة الشهيرة سنة ١٤٠٢ ؛ حيث سقط المجاهد
العظيم بايزيد الاول اسيرا ، وبنازع الولاده الامر بعده مدة عشرة اعوام .

الجمهورية - انبثق فجر الثورة الكبرى سنة ١٧٨٩ ، فالتهمت نيران الافكار الجديدة ؛ وسرى تيارها فى مختلف البلاد ، وهب جماعة من الصقليين تحت زعامة شامبيوني ، شيخ مدينة نابولى ، واصلوا اعتناقهم تلك المبادئ السامية الخلافة ، مبادئ اعلان حقوق الانسان ، والتساوى بين عامة البشر ؛ وان لا حكم فى بلاد الا لامة ؛ ثم نادوا بتأسيس الجمهورية الشعبية الحرة .

انما حركة الرجعيين كانت قوية عنيفة ؛ اذ جمع رجال الطغيان من رهبان الكنائس ، امراء الاقطاع ، ورؤساء الطوائف ، امرهم ضد حركة الشعب ؛ اذ ايقنوا ان الثورة الجمهورية تذهب باموالهم وبجناهم وبامتيازاتهم الفاضحة ، فتحزبوا زمرا واشتروا باموالهم جماعة من اللقيف والرعاى يخربون بيوتهم بايديهم ، وصادموا الجمهورية الفتية فنسفوها وارجعوا الملك فرديناند الى عرشه مؤيدا من قبل الاميرال الانكليزى الشهير نلسون ، عدو فرنسا الالذ ومحطم اسطول بونايرت ؛ فامعن الملك البطش بالجمهوريين ، وارهف سيف الطغيان فوق هاماتهم ، فاسقط منها ما يزيد عن العشرة آلاف راس ، وسجن منهم نحو الثلاثين الفا ونفى من الارض حوالى السبعة آلاف نسمة . تلك كانت اكبر تكبات صقلية فى العصر الحديث .

بونايرت - تدخل نابليون بونايرت فى المسألة الصقلية الطليانية ؛ وكاد يصبح يومئذ صاحب الحكم المطلق فى الغرب الاروبى ؛ فاعلن خلع العائلة الاسبانية التى لم يبق بين يدها سوى صقلية وحدها ، ونصب شقيقه بجوزاف ملكا على دوتة نابولى ؛ ولقد حاول ملك نابولى الجديد الاجتياز الى صقلية ونصب سلطانه عليها الا ان الاسبانيين دحروه عند كل محاولة ؛ فكانت مملكة نابولى تحت امرة بونايرت تزدهر وتنمو ، وتتفشى فيها افكار الثورة

(١) خلال هذه الحوادث فى ٢٩ من شهر مايو سنة ١٤٥٣ ، وقع الحادث التاريخى الجسيم : استيلاء السلطان العثمانى محمد الفاتح - قدس الله روحه - على مدينة القسطنطينية العظمى . ودخل الاسلام اوروبا من جهة الشرق واستقر بها راسخا متينا الى يومنا هذا والى ان يرث الله الارض ومن عليها . وقد اتفق المؤرخون على اعتبار هذا الحادث نهاية القرون الوسطى وابتداء التاريخ المعاصر الحديث . وبعد اربعين سنة من ذلك ، اى سنة ١٤٩٣ ، سقطت مدينة غرناطة بايدي الاسبان ، وانقرضت بذلك دولة الاندلس الزاهرة .

الفرنسية ، بينما كانت بلاد صقلية تحت امرة الاسبان خاضعة لسلطان الضلال .
لكن ايام جوزاف بوناپرت لم تدم بمملكة نابولي طويلا ، فاندحار شقيقه
نابوليون وانسحابه مرغما من ميدان السياسة الاروية قد جعل عرشه واهى
الاركان وما اغنت عنه محاولة استمالة الاعداء ولا الاستنجاد بالنمساويين
شيئا ؛ ونادى بتوحيد الطليانيين تحت زعامته فذهبت جهوده ادراج الرياح ،
وانتهى امره بان اعدم رميا بالرصاص سنة ١٨١٥ (١) فاجتاز فرديناند ملك
صقلية الى الارض الطليانية واعاد « مملكة الصقليتين » سيرتها الاولى ، وأرجع
لاصحاب الكنيسة ورجال الاقطاع كل حقوقهم القديمة .

انما الشعب كان قد افاق من غفلته وتشبع بالافكار الحديثة ، وقد تركت
فكرة الجمهورية في نفسه اثرا ، فسادت جمعية « الكاربوناري » اى الفحامين
السرية ، واخذت تفتك بالظالمين وتبطلش بالمتجبرين ؛ وكانت نتيجة هذه
الحركة ان ارغم الملك فرديناند سنة ١٨٢٠ على اعلان الدستور ، واجتمع
البرلمان انشعبى لأول مرة في مدينة نابولي .

عهد الظلمات - اغتنم الملك الطاغية فرصة انعقاد مؤتمر لايباخ ؛ فخرج
من مملكته وذهب يستنجد دولة النمسا ضد رجال الحرية من قومه الذين
ارغموه مكرها على اعلان الدستور ؛ وكانت امبراطورية النمسا مهد الرجعية
ومعقل المستبدين ، فامدته بجند كثيف دخل على رأسه محاربا جنود الحرية
فدحروهم ؛ واعلن حكم الاطلاق من جديد ، وارسل الى الموت والى التعذيب
وبطون السفن للتجذيف آلافا مؤلفة من الرجال الاحرار ؛ ودامت الحالة بثيسة

(١) كان السلطان محمود الثانى العثمانى يقاسى ازمة عنيفة من جراء الثورة الوهابية ببلاد
العرب ، التى اخمدتها بشدة طوسون بن محمد على وائى مصر (سنة ١٨١٣) ؛ ثم ثورة ببلاد
البانيا . وقد حاول السلطان ادخال الاصلاحات الحديثة لبلاد السلطنة ؛ واعدم فرق الانكشارية
الطاغية ، وانشأ الجند الحديث ؛ الا ان ثورة محمد على باشا في مصر واقتحامه بلاد السلطنة
حتى قونية ؛ وحرب اليونان ؛ وتحزب فرنسا وانكلتيرا وروسيا ضد تركيا ؛ تعظيم الاسطول
الاسلامى في معركة نوارين (١٨٢٧) قد جعلت السلطان يخفق في كل اعماله ؛ واخذ تدهور
السلطنة العثمانية يتفاقم امره تحت معاول اروبسا ، وبمساعدة سائر العناصر المسيحية
في البلاد .

دامية طيلة ايام هذا الطاغية السافل ، وايام ابنه الذى خلفه فى الحكم فرانسوا الاول (١٨٢٥ - ١٨٣٠) (١) وكذلك ايام فرديناند الثانى بن فرانسوا الاول ، اذ سار على غرار ابيه وجده فى محاربة الحرية والاحرار ، وبطش بطش الجبار بمحاولة دستورية قام بها رجال صقلية سنة ١٨٣١ - ١٨٣٧ ؛ فقمع حركتهم وشنّت شملهم .

انما - هل يلد هذا الضغط العنيف المستمر سوى الانفجار الهائل المدوى ؟ فكانت نتيجة هذا انطغيان الجائر ان ثار اهل صقلية ثورة عنيفة منظمة هائلة سنة ١٨٤٨ (١) وعمت تلك الثورة سائر جهات الجزيرة ، واعدت خلع الملوك الاسبانيين واستمرت الحرب سجالا ؛ وفضاعتها متوالية ؛ وخراباتها عامة الى ان توطد لامد قصير سلطان الملك الظالم .

غاريبالدی - ما مآل الظالمين الا السفوط والانهيار ، فان رجال الثورة الاحرار ؛ هبوا من جديد يحدوهم الامل فى نسف قلاع الاستبداد؛ ويستشهد بين ايديهم قوم ذاقوا نير الجور ، وفضاعة الاستعباد ومرارة التنكيل والاضطهاد . ولقد كان على رأس الثائرين هذه المرة زعيم له صفات تؤهله لقيادة الشعب فى طريق الحرية ، هو غاريبالدی الشهير ، فدحر الثائرون الاحرار جنود الملك فرانسوا الثانى ، حتى الجأوه الى فرار صعبة آله وذويه . وكانت ايطاليا يومئذ قد وحدت صفوفها وجمعت كلمتها تحت امرة الملك فيكتور عمانويل الاول ؛ واصبحت بفضل سياسيتها الاكبر « كافور »

(١) كان يتولى ملك فرنسا يومئذ الطاغية الظالم شارل العاشر ؛ فامعن فى خنق الحرية وضيق على الناس ، حتى اخذت بوادى الثورة تظهر ، فاراد ان يشغلهم بحرب خارجية عله بواسطة انتصار حربى يستطيع النجات ؛ فارسل جندا وعمارة قويتين هاجمتا واحتلتا مدينة الجزائر (٥ يولية عام ١٨٣٠) بعد مقاومة عنيفة . لكن ذلك المصير لم يخن عنه شيئا ، وثار الشعب الطالب للحرية ثورة عنيفة فى ثلاثة ايام يدعوها التاريخ « الثلاثة الماجدة » وذلك بعد اربعين يوما من احتلال الجزائر ؛ واضطر الملك الطاغية للتنازل عن العرش .

(٢) فى ٢٧ فيفري من هذه السنة ؛ اسقط الجمهوريون والاحرار الفرنسيون آخر ملك من ملوك فرنسا ؛ لويز فيليب ، واسسوا الجمهورية الثانية التى ما عمت ان اصبحت « الامبراطورية الثانية » حيث اعلن رئيس الجمهورية . نظرا لخلافات الامة وكثرة شقاقها ارجع امبراطورية نابوليون ؛ واطلق على نفسه اسم نابوليون الثالث .

دولة قتيّة ، قامدت الثوار الغارين بالدين بصقلية وساعدتهم على التخلص من الطاغية ، وبشت في البلاد دعاية نشيطة في سبيل الانضمام للوحدة الطليانية ، ففي اكتوبر سنة ١٨٦١ ، اى بعد انهيار الملك فرانسوا بنحو الثمانية اشهر ، وقع في صقلية استفتاء شعبي كانت نتيجته اعلان صقلية ارادتها في الانضمام للوحدة الطليانية .

الحكم الطلياني - انما لم تكن صقلية سعيدة الحظ في وقت من الاوقات وهي قابضة تحت السيادة الطليانية الجديدة . فالضرائب الثقيلة والاثاثات الباهضة حطمت جهود الشعب ، واضطرت له لاعلان الثورة مرارا ، وخاصة سنة ١٨٩٣ ، حيث هاجم انشوار مراكز جمع الضرائب واوقدوا فيها النيران؛ ثم تكلمت بهم الحكومة الطليانية تنكيلا ذريعا ، وغدت صقلية ولاية من ولايات ايطاليا يخيم عليها الجهل كما يخيم على ولايات كلابرا وبلاد الجنوب الطلياني؛ وضاق على الصقليين الارض بما رحبت ، فلبأوا الى الهجرة افواجا نحو البلاد التونسية او اميركا الجنوبية وغيرها من البلاد . وشارك الصقليون الطليانيين في اعتدائهم الاول على بلاد النجاشي منليك امبراطور الحبشة ، ذلك الاعتداء الذي انتهى بكارثة « عدوة » المخجلة ؛ كما شاركوهم في اعتدائهم الاثيم على ولايتى طرابلس وبرقة العثمانيتين وما وقع خلال ذلك من فظائع ومنكرات ، وشاركوهم في الحرب العامة الاولى ، وفي الاعتداء الثانى على بلاد الحبشة ، وفي الحرب الاثيمة العالمية الثانية .

انما لم تنل صقلية اثناء كل ذلك ، سواء خلال الحكم الدستوري او الحكم الفاشيستي ، اى اصلاح جوهرى يغير نظامها الاقتصادي الاقطاعى ويجعل للفلاح وللعامل فيها مركزا اجتماعيا معقولا يتمكن الاول من الارض وتثبيت الثانى فى المصنع ، فكان الصقليون يتأفون من الحكم الطلياني انما يعجزون عن خلع نيره والثورة في وجهه .

فعندما حطمت الجنود الحليفة قوى الألمان واليطاليان بالبلاد التونسية سنة ١٩٤٣ واجتازوا الى صقلية يقتفون فيها خطى الالمان واليطاليان ، لم يبد الصقليون ادنى مقاومة ، بل قبلوا الفاتحين باذرع مفتوحة وصدور رحبة ؛ كأنهم املوا منهم اخراجهم من نير الاستبداد وربقة الاستعباد . وما كاد ينهار الحكم الفاشيستي البغيض فى ايطاليا حتى ابتداء رجال صقلية الاحرار يفكرون فى مستقبل بلادهم ، ويرجون الاحراز على استقلال ادارى واسع النطاق ان لم يتحصلوا على الاستقلال التام ، حتى يتمكنوا من فتح عهد جديد للجزيرة يعيد لها سالف مجدها وسؤدها ايام المسلمين والنرمان .

وحركتهم هذه سائرة فى طريق النجاح ، اذ اعترفت الحكومة الطليانية لهم فى اكتوبر ١٩٤٤ ، بامتيازات مركزية عديدة ؛ وقع توسيعها فى العشرين من نوفمبر ١٩٤٥ حتى اصبحت شبه استقلال داخلى .

وان حبنا للحرية يجعلنا نتمنى لهذا الشعب المسكين الذى ذاق مرارة الاضطهاد قرونا مديدة ، وانذى تربطنا به ذكريات عديدة ، عهدا جديدا كله حرية وسعادة ومحق لنظام الاقطاع وسيطرة الكبراء وتحقيق لعزیز الآمال .

واننا بهذه المناسبة لنقول فى كل صراحة وعلى رؤوس الملاء انه هيهات ان يستقر فى العالم السلام وان تنتهى الشحناء والا حن والحروب بين الامم ما لم تنل سائر الشعوب حريتها التامة واستقلالها ، سواء قسويها وضعيفها كبيرها وصغيرها وان تغدو العلاقات بين الامم علاقات صداقة وتعاون فى ميادين الثقافة والاقتصاد وتبادل المصالح لا علاقات فتح واستعمار وقضاء على حرية وكرامة وحياة الشعوب .

القسم الثالث

امهات المدن والقرى بصقلية

ومعالمها آثارها

بالرمة

من امهات المدن قديما وحديثا ؛ ومن اجل واجمل الحواضر فى كل الاقطار والامصار ؛ جمال فى المناظر ، واعتدال فى الطقس ، ومياه دافقة ، وحدائق وخمائل ، ومروج وبساتين ، وقصور شاهقة ، ودور فسيحة الرحاب ، وآثار باقية مما تركه السلف للخلف .

كان اسمها اليونانى « بانرموس » وكانت مدينة كنعانية قرطاجنية حسا ومعنى ؛ ولقد رأينا فى المقدمة التاريخية مدى ما بذلته قرطاجنة من جهد عنيف للاحتفاظ بالجزيرة وجوهرتها الفريدة . لكن بالرمة وقد استحوذت عليها روما لعدة قرون ، قد احتفظت بمركزها الممتاز واصبحت من المع دور التاج الرومانى . انما قد بلغت بالرمة اوج عزتها وسدرة منتهى رونقها وبهائها ، عندما اتخذت منها الامراء المسلمون ثم ملوك بنى المحسن ، عاصمة لملكهم ؛ واصبحت مركزا من اهم مراكز الحضارة والنور بالبحر المتوسط ، وارتفعت بتجارتها وصناعاتها وعلومها الى مصاف عواصم الاسلام الكبرى .

يسكن هذه المدينة اليوم نحو من ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة ؛ حول مرسى هو من اهم مراسى ايطاليا . وقسمه القديم يدعى الى يومنا هذا « القلعة » ، *la Cala* على مقربة من آثار القصر العربى القديم « قصر العمارة » *Castellammare*

ولم تبق حداثات الايام والحروب المتوالية على كثير من آثار الكنعانيين القرطاجنيين ، ولا من آثار الرومان والعهد الاسلامى ، الا ان آثار النرمانيين وهى من انشاء العرب قد بقيت قائمة الى يومنا هذا شاهدة بعظمة وحسن ذوق منشئها . وفى بالرمة العتيقة لا تزال حارات عديدة تحمل انطباع

الافريقى على شكل مدنتا الاسلامية بهذا الشمال ، ولا تزال هنالك حارة تدعى «Altarini» كانت بلا ريب حارة او سوق العطارين .

قصر الفوارة - هو من اهم آثار بالرمة الاسلامية ؛ ولقد ترنم بذكر محاسنه الشاعر عبد الرحمان بن ابي العباس حينما يقول :

فواره البحرين جامعة المنى * عيش يطيب ومنظر يستعظم

يقع هذا القصر الشامخ الذرى فوق جزيرة تحيط بها بركة صناعية من جهات ثلاث ، ولقد شاده وبألغ فى زخرفنه الامير جعفر ؛ من ملوك بنى الحسن ، فيما بين سنتى ٩٩٧ و ١٠١٩ ميلادية ، واتخذ منه هو وخلفاؤه من بعده مقرا للترف والتعيم .

وعندما ضرب الدهر بضرباته ونحطم سلطان المسلمين هنالك ، اصبح قصر الفوارة مقر اللهو واللعب والحلاعة لملوك النرمانيين ومن تبعهم ؛ ثم اخنى الدهر على هذا القصر عندما اصبحت الجزيرة العوبة بين ايدى الغاصبين من ملوك اوروبا فلم يبق منه اليوم الا الحرابات وكنيسة صغيرة شادها المسلمون للملك رجار وبعض اقبية وغرف ؛ وحوالى اتقصر لا تزال ترى البناء الذى يحيط بالبركة الصناعية ليحبس بها الماء ، ولا تزال ترى الحنايا الاسلامية الثلاثة التى كان الماء يجلب عليها للبركة المذكورة .

قصر العزيز - ويدعوه الأروبيون لازيزا la Ziza شاده ليتخذ منه مقرا للملكه وسلطانه ، الملك غليام الاول فيما بين سنتى ١١٥٤ و ١١٦٦ م ، بواسطة مهندسين وبنائين ونقاشين من المسلمين فكان القصر آية من آيات الفن المعماري الاسلامى ، ولقد ابقت الايام على اكثره ، ولم يحل به ما حل بقصر الفوارة من التخريب ، وهنالك ماشئت من باهر الاقواس الهندسية وبديع النقوش الحلابة والكتابة الكوفية على النمط الهندسى حول الابواب والعقود ، وعيون جارية تغذى فواره فى وسط البهو الاكبر ثم يتكون من ذلك سبيل لطيف من الماء يخترق القاعة ثم يختفى تحت ابوابها .

قصر القبة - هو بناء على شاكلة قصر العزيز ، اتم صنعه البناؤون المسلمون حوالى سنة ١١٨٠ م ، ولقد تحطم اكثره وياللاسف ، ولم تبق الا بعض جدرانه وقاعاته قائمة ، تذكر الايام بما سلف لها من مجد ، وعلى بعض الجدران ترى آثار الفسيفساء البديعة التنسيق ، وكتابة على النمط الكوفى ذات جمال خلاب ، وتقوش مدهشة على قواعد الرخام ، ومن اجمل ما ابقت عليه عوادي الايام بهذا القصر قاعة القبة ، وهى حينما يدل عليه اسمها قاعة فسيحة الارحاء تعلوها قبة منمقة بنقوش خلاصة من الرخام الصناعى .

الكنيسة الكاتدرائية الكبرى - هى من اهم بدائع الفن والجمال بالرمبة شيدت سنة ١١٨٥ على يد صناع من المسلمين ؛ وكانت خليطا من الفن العربى والفن الغربى ، انما تغلبت عليها الصبغة العربية . على ان قسما منها شيد على انقاض مسجد جامع لا تزال هياؤه على حائها تقريبا . وعلى ابوابها وبين اقواسها رسمت بالخط الكوفى من القرآن الكريم بالخط الكوفى .

القصر الملكى - آية خالدة من آيات الفن والجمال ، انشاء الملوك المسلمون فكان مقر الدولة والامارة ، ثم استقر به ملوك النرمان بعد ذلك ، فزادوا فى مساحته ، وازادوا اليه بواسطة البنائين المسلمين اقساما اخرى ، ولا يزال قائم الذات يذكر الحلف الغافل ، بعظمة تاريخ السلف الحافل . ومن روائع ولا يزال قائم الذات يذكر الحلف الغافل ، بعظمة تاريخ السلف الحافل . ومن اقسام هذا القصر الملكى : الكنيسة الصغرى التى ابتناها العمال المسلمون بامر لملك رنجر الثانى ، فيما بين سنتى ١١٣٢ - ١١٤٠ ، فهى درة وضياء وسط عقد الآثار الاسلامية الخلابة ، ومن ابداع ما يراه قاصدوا بالرمة ، تشد اليها رجال السائحين من كل قطر ؛ ومن اغرب ما يراه المشاهد هنالك سقف بديع الشكل يخلب الابصار ، وهندسة غريبة فى بناء النوافذ ، تكسب النور حينما ينعكس بعضه على بعض رونق الموسيقى وروعة الشعر الرقيق ، ولا سبيل للاطناب فى وصف ما هنالك من نقوش على الجص : (نقش حديدة) وفسيفساء خلاصة الالوان .

ومن جملة البدائع المحفوظة بهذه الكنيسة الفنية ضمن ذخائرها الغنية

صندوق من صنع المسلمين كله قطعة من عاج منقوش ؛ وعلى مقربة من القصر الملكي وكنيسته توجد كنيسة القديس يوحنا ، وقد بناها الصنائع المسلمون كذلك بأمر الملك رجار الثاني ؛ على النمط العربي الخالص ، وضمن هذه الكنيسة يوجد مسجد اسلامي قديم دخل في صلب الكنيسة وبقي على حاله غير متنافى في هندسته مع ما اضيف اليه .

المتحف الكبير - من أجل ما يرى ايضا بباثرمة متحفها الاثرى الرائع الذي جمع فاعوى : قيمة فنية كبرى ، وجمال عرض وبديع تنسيق ، وفيه قاعة اسلامية عربية عرضت فيها بدائع ما تركه الصنائع المسلمون هنالك من تحف نادرة وطرائف ثمينة من اواني وزخارف حديدية وبدائع من الحزف والبلور والرخام وغير ذلك من ادوات المنازل وكماليات الترف والنعيم . هذا علاوة على ما في المتحف المذكور من آثار الكنعانيين والقرطاجنيين ومن آثار الاغريق والرومان والنرمان وغيرهم .

وفي بالرمة ، دون ذلك ، عدة من متاحف اخرى تتعلق بالتاريخ الصقلي ؛ وفيها المكتبة البلدية التي تشتمل ما يزيد عن مائتى الف مجلد ، منها نحو الثلاثة آلاف مخطوط .

ضواحي بالرمة - على نحو ستة اميال من بالرمة توجد مدينة القاموق الاسلامية الاصل والتي اختفظت باسمها فهي تدعى اليوم Alcamo وسكانها يتجاوزون الخمسين الفا ، وحاراتها القديمة تذكر بايام المسلمين ؛ وعلى نحو الخمسين ميلا من بالرمة توجد مدينة الزقاق ، وقد احتفظت باسمها كذلك فهي اليوم Siacca وهي من اهم المدن الاثرية الصقلية ، لا يزال اغلبها على حاله كما كان ايام دولة المسلمين ودولة النرمان .

مسينا

من اهم المدن الصقلية واجملها موقعا ؛ يسكنها اليوم ما يزيد عن نسمة ؛ ومرسأها من اوسع مراسى البحر الابيض المتوسط واكثرها حركة ،

وتحيط المدينة بالمرسى فى استدارة بديعة ؛ حيث ترى عقدا ثمينا من القصور
الحلابة الجمال يحيط بجيد حسناء فاتنة . لكن نكبة مؤلمة اصابته المدينة
سنة ١٩٠٨ (٢٨ دسامبر) حيث اغتالها زلزال رهيب دام ٣٢ ثانية ، فحطمها
تحطيمًا فظيما وفتك باهلها فتكا ذريعا ؛ فمات فيها وحواليها ما يزيد عن
المائة الف نسمة ؛ ثم استرجع الانسان حقوق حياته ، فاعاد بناء المدينة على
انقاض الخرابات ، واصبحت مسينا الحديثة تكاد تعادل مسينا العتيقة بهاء
ورونقا وجمالا ، ولهذه الحادثة يشير شاعر النيل حافظ ابراهيم رحمه الله
حيث يقول فى وصف المدن الصقلية الطليانية :

ارضها جنة ، وهور ، وولدا * ن ، واستبرق ، وملك كبير

تحتها والعياذ بالله نار * وسعير ومنكر ونكير

وليس فى مسينا ما يدل على انها بقيت بعض قرون مركزا من اهم
مراكز العمران الاسلامى بصقلية ، ولعل الحروب المتوالية فيها وفيما حواليها
بين المسلمين والروم ؛ وبينهم وبين الايطاليين ، ثم النرمانيين قد جعل آثار
المسلمين هنالك منعمة الوجود .

من اعجب ما فى مسينا ؛ مقبرة ضحايا الزلزال اذكر آنفا ، فقد
جعلت هذه المقبرة فى ابداع مكان مشرف على المدينة ؛ يرى منه منظر قد اتفق
الباحثون على انه من اجمل مناظر ايطاليا وصقلية معا ، وغرست فيها حديقة
جمعت فى تناسق بديع كل انواع الاشجار والزهور والرياحين .

ومن اهم ما يرى بها متحفها الفنى الغنى ؛ وليس به الا القليل النادر
من آثار المسلمين ومنها فى الصالة رقم ٥ صندوق بديع الصنع حسن التركيب .

شيفالو

اما سيفانو ؛ فهى مدينة صغيرة يسكنها جماعة من الصيادين ، لا يتجاوز
عدد سكانها ، انما تمتاز بوجود كنيسة كتدرائية هى بلا ريب اجمل واقدم
كتدرايات صقلية ، امر ببنائها الملك رجار سنة ١١٣١ ، وابتناها كما ابنتى

غيرها في ذلك العهد البناؤون المسلمون ، وبالفوا في زخرفتها وتنميقها ، وفيها اقدم واجمل فسيفساء بالارض الصقلية . وتجاه الكنيسة متحف صغير بديع فيه مجموعة كاملة من النقود الصقلية في مختلف العصور ؛ ومن بينها بل ومن اهمها النقود الاسلامية . وعلى نحو ميل من المدينة وفوق صخرة ترتفع ٢٦٩ مترا توجد آثار قصر وصهريج من آثار المسلمين .

ترميني

واما مدينة ترميني ولا تبعد عن بالرمة الا ١٩٦ ميلا فهي تكاد تكون مدينة اسلامية خالصة بحاراتها وازقتها ودورها وطريقة العيش فيها ، كثيرة الحركة فيها حمامات حارة وفيها متحف بلدي يضم كثيرا من الآثار والنقوش والنقود الاسلامية .

مازرة

ولم يبق بها ما يكشف السثار عن ماضيها الاسلامي الحافل لو لا ما يدل على مشاركة البنائين المسلمين في اقامة هيكل الكاتدرائية وبعض الكنائس الصغرى التي أنشئ اكثرها على انقاض المساجد الاسلامية عندما دالت دولة المسلمين هنالك .

مرسى على

كانت هذه المدينة ايام المسلمين من اكثر المراسى حركة واكبرها تجارة لانها كانت نقطة الاتصال بين صقلية والبلاد الافريقية وقد فقدت المدينة اهميتها منذ انقطعت الصلات بين القطرين ، التونسي والصقلي ، فلم تبق لمرسى على الا اهميتها الحمرية ، وذاكراتها التاريخية .

تجاه مرسى على ، وعلى بعد نحو ٨ كيلومترات منها توجد جزيرة معطية القرطاجنية التي سبق ذكرها في المقدمة التاريخية وكان المسلمون يدعون

هذه الجزيرة « المعزية » ولقد اجريت حفريات فى هذه الجزيرة ووقع اكتشاف الكثير من آثارها القرطاجينية ومرسأها العتيق .

اطرابنش

تستدير هذه المدينة حول مرسأها فى شكل هلال ؛ وليست بها حركة تذكر كما انه لم يبق بها ما يذكر بايام المسلمين ، لولا ما هو موجود بمتحفها من قطع النقود الاسلامية وبعض اقمشة من صنع المسلمين .

قلعة النساء

لم يبق لها من القديم الا الاسم ، اشتهرت اليوم بتجارة الكبريت لايشغلونها سكانها الا بذلك وبما يمت له من صناعة . وبالمدينة متحف صغير فيه بعض آثار اسلامية ليست بذات اهمية ، والى جانب المدينة توجد آثار القلعة الاسلامية التى تدعى اليوم قصر بياترا روسا ؛ ومن هذه القلعة يشرف الانسان على قصر يانا التى لم يبق بها اليوم شئ من آثار المسلمين ، انما على مقربة منها (٣ كيلومتر) توجد « قلعة السبت » Calta Cibella ويمكن اعتبار هذه المدينة اقدم مدن صقليه. اليوم من حيث بناؤها السذى بقى على اصله منذ القرون الوسطى ومن حيث لباس اهلها وتقاليدهم التى بقيت فى معزل عن الحياة الحاضرة .

طبرمين وضواحيها

اذا استثنينا جمالها الطبيعى ومركزها الممتاز بالنسبة للمستوحين فاننا لا نجد فى طبرمين اهمية من ناحية التاريخ الاسلامى ؛ ولعلك تذكر ان المسلمين لم يحتلوا مدة طويلة هذه المدينة التى كانت باستمرار معقل المقاومة البزنطية ، حتى اذا تمكن المسلمون من ناصيتها نهائيا سنة ٩٠٢ ميلادية

دكوها دكا كى يقطعوا آخر امل للروم فيها ؛ وقد بقيت بها الآن آثار قصر
قديم ، يدعى « قصر المولى » Molo يشرف على المدينة وضواحيها .

ومن المدينة ، يسير الانسان نحو قرية لا تزال عربية
اسما هي « القنطرة » Alcantara على مجرى الوادى المدعو
بالقنطرة ايضا ، وهناك فى تلك الضواحي مدينة لا تزال كذلك
تحمل اسما عربيا وتكاد ديارها تحمل الطابع العربى الاسلامى ايضا وهى
قرية « الزعفرانة »

قطانية

ان كانت هذه المدينة تعتبر اليوم ثانى مدن صقلية
بعد بالرمة ، وان كانت بناؤها الضخمة وعماراتها البديعة
تجعلها فى مصاف المدن الكبرى ؛ فانها رغم كل ذلك لاتشبع نهم
الباحث العربى لانها لا تحوى شيئا يذكر من آثار المسلمين ، وذلك لانها
علاوة على التخريب الذى لحقها كما لحق كل مدن صقلية من جراء حوادث
الاحتلال النرمانى قد اصابتها زلزال عنيف حطمها تحطيمًا ذريعًا سنة ١٦٩٣ ؛
فلم يبق بها عمرانًا واهلك فيها ١٦٠٠٠ نسمة .

اهم ما يراه االباحث فيها اليوم متحفها الذى جمع فيه القطانيون كثيرا
من آثار صقلية ومجموعة ثرية من الصور والرسوم ؛ ومكتبة فيها نحو
الخمسين الف مجلد منها نحو الخمسمائة مخطوط نفيس والفى رق فيها الكثير
من اوائل العهد النرمانى .

سرقوسة

روعة وجمال ، وبهاء وجلال ؛ هى مهد الذكريات الاغريقية والقرطاجنية،
يهيمن عليها خيال ارخميدس العظيم وآثارها السابقة
للعهد الاسلامى غنية ثرية ؛ وبها متحف يكاد يكون مختصا

بدراسة آثار ومدنية شعب الصيقول ، وبدائع من صنع المدنية الاغريقية والفنيقية ؛ انما ليس بها ما يشبع نهم الباحث عن التاريخ الاسلامي ، واهم آثارها على الاطلاق هو المسرح اليوناني الشهير الذي ابتناه الملك هيارون حورين سنة ٤٧٠ ق م ؛ وهو اهم ما تركته لنا ايدي الزمان من مسارح الاغريق وتبلغ دائرته ١٢٨ .

نوطس

كانت اثناء التاريخ الاسلامي مركز ولاية ، وكانت ذات اهمية كبرى اسسها الصيقوليون ووسع دائرتها المسلمون ، واستمرت مدينة اسلامية في جميع مظاهرها الى سنة ١٦٩٣ حيث تحطمت بصفة تامة وهجرها سكانها فابتنوا على مقربة منها مدينة جديدة ؛ انما في آثارها رسم هياتها الاسلامية السابقة ، واما المدينة الجديدة فليست من الناحية الاثرية بذات اهمية .

القسم الرابع

الحكم الاسلامى

ايام الدولة الاغلبية

نشأة الدولة الاغلبية - رقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا .

كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يتلو هذه الآية الكريمة يوم الفتح الاكبر ، وهو يحطم الاصنام داخل البيت الحرام ، واضعا بذلك حدا فاصلا بين هدى الاسلام وضلال الجاهلية ، فاتحا بذلك عهدا جديدا فى تاريخ الانسانية هو عهد النور والمدنية الحقة ؛ عهد تحرير الفرد والجماعة من ربقة الذل والعبودية لغير الخالق ؛ عهد تحرير العقول من الاوهام والاباطيل ؛ عهد التساوى الحق الذى لم ير له العالم قبل ذلك ولا بعد ذلك مثيلا .

التهبت يومئذ نيران الثورة العالمية فى سبيل التحرير والمعرفة ، يحمل رايتها رفيعة وهاجعة قوم اسلموا لمحمد وآمنوا بما جاء به من الهدى ودين الحق فتدفقوا سيلا نورانيا جارفا يكتسحون الظلمات ، ويدكون اسس القيصرية والكسروية ، ويقيمون على تلك الانقاض البالية عدل الاسلام ، وحرية الاسلام ، واتخوة الاسلام .

وانه لم تكد تنقضى ثلاثة ارباع القرن على هجرة الرسول الاعظم حتى كان ما اريد ان اسميه « امبراطورية الاخوة الاسلامية » يشمل فضلا عن بلاد العرب العراق وفارس وما وراء النهر وبلاد الشام ومصر وطرابلس وشمالنا الافريقى حتى امواج المحيط الاطلسى .

على ان اصعب الفتوحات الاسلامية مراسا ؛ كان بلا ريب فتح اقطار هذا الشمال الافريقى ، وذلك لبعدها من جهة عن مركز الخلافة الاسلامية ، بالمدينة كان او بدمشق او ببغداد ، وصعوبة المواصلات بين قلب المملكة ومصدر الامر

والنهي ، وبين هذه البلاد النائية ، ولأنها من جهة أخرى كانت تسكنها امة البربر الأمازيغية الأبية ؛ وهي مجموعة اقوام ما وهنت امام جيروت الظالمين وما ضعفت قواها تجاه اربابهم وبطشهم الشديد ؛ وما استكانت لسلطان الاستعباد ايا كان مصدره ؛ وسواء جاءت من رومة اغلاله او صبت في بيزنطة قيوده .

فالبربر على تفرق شلهم ، كانوا اكثر الناس استماتة في سبيل الحرية واشد الناس تضحية في ميدان الاستقلال ؛ ولقد كانوا طيلة العهد الوندالي يمسون بين ايديهم زمام امورهم ؛ وقد تعاونوا مع اولئك الفاتحين الهمج ، على تخريب ما شاده الرومانيون لانفسهم بهذه الديار ، من معالم وآثار ، ثم كانوا طيلة العهد البيزنطي الحرب يباشرون داخل بلادهم مقاليد الحكم تاركين لرجال بيزنطة الاحتلال العسكري والادارة الاسمية والرسمية .

فلا غرو ان رأينا رجال البربر من جبال طرابلس الى كتلة الاطلس يقومون مرة اثر اخرى ضد غارات العرب الفاتحين منذ غزوة عبد الله بن ابي سرح سنة ٣٠ الى ان تمهد الامر نهائيا للفاتح الاكبر موسى بن نصير حوالي سنة ٩٠ هجري (١) .

فنحن نرى ان فتح العرب للمغرب قد استغرق من جهودهم زهاء الستين سنة ، واستنزف من قواهم خيرة الجند وجلة القواد ؛ كماوية بن خديج ، وعقبة بن نافع العظيم غالب كسيلة ومؤسس القيروان ، وحسان بن النعمان . قاهر الكاهنة ، وغيرهم من ابطال العرب واشبال المسلمين ؛ ولقد كان البربر ان خسروا المعركة اظهروا الانقياد والطاعة عن مضض ؛ فلا تكاد تتغير الحالة بتغير عامل من العمال او بتمرد في الجند ، حتى يعودوا الى الثورة والعصيان مرتدين عن الدين في اكثر الاحيان .

(١) في سنة ٩٦ توفي بدير مروان الخليفة الوليد ابن عبد الملك ، وكانت ايامه من اسعد ايام الدولة الاموية ؛ تم خلالها فتح اسبانيا وجنوب فرنسا ، وبلاد الترك ، وفتح القائد محمد بن القاسم الثقفي اكثر بلاد الهند .

بقيت الحالة كذلك بين صفو وكدر ، وامن وانتفاض ، طيلة ايام الامويين
واوائل عهد العباسيين .

وانه لمن اكبر تكبات هذا الشمال الافريقي ، سواء فى اول العهد الاسلامى ،
أو فى غيره من العهود : كثرة تداول الولاة عليه ، فلا تكاد تستقر به قدم واحد
منهم فيدرس حالته ويدرك قيمته ، ويختلط بشعوبه واممه ، وياخذ باسباب
ال عمران والانشاء والتكوين ، حتى تلعب فى مركز الدولة البعيد الدسائس
والفتن وتعمل السنة السوء والوشاية اعمالها ، وتلعب الغايات النفسية او
العصبية ألاعيبها الحبيثة ، فيصدر الامر بتولية عامل جديد يكون فى الكثير من
الاحيان عدو العامل القديم فيفد على البلاد يحدوه حب الانتقام ، ويسفر ذلك
عن وقائع تسيل فيها الدماء ، ويستفيد البربر الواقفون بالمرصاد من ذلك ،
فتكون الثورة ويكون الانتقاض (١) .

انما الى جانب هذا الاضطراب فى السياسة كان الدين الاسلامى على يد
رواده الامجاد يستقر استقرارا متينا فى البلاد ، وينتشر انتشارا عظيما .
ولقد فهم البربر اخيرا ؛ بعد طول اختلاطهم بالعرب ، واخذهم الدين
واللغة عنهم ، ان هؤلاء الفاتحين ليسوا كمثل الذين سبقوهم من الفاتحين ،
فسمو اخلاقهم ونبل عواطفهم وبساطة عيشهم وسهولة دينهم الفطرى ؛ كسل
ذلك يجعل بونا شاسعا بين هؤلاء واولئك ؛ ومن ثم امكن اتحاد العرب والبربر
تحت راية الاسلام المساوية ، وتحقق لهذا القطر ما كان يرجوه منذ قديم الازمان ،
ولم يتحصل عليه قبل ذلك ؛ تحقق له الاستقرار الدينى الذى دام منذ ذلك
العهد الى يومنا هذا والى الابد ، رغم ما وقع من شنان سببه خلافات مذهبية قد
استعملت فى اكثر الاحيان وسيلة سياسية يراد بها الوصول الى الحكم .

وما عتم ذلك الاستقرار الدينى ان اسفر عن استقرار سياسى ، بصفة اعلان
القطر المغربى الاسلامى استقالة عن مركز الخلافة الاسلامية ؛ وادارة اموره

(١) انظر كتابنا « قرطاجنة فى اربعة عصور » طبع تونس ١٩٢٧

المحلية بواسطة الانجذاب من بنيه .

لقد كان المغرب الاوسط - قطر الجزائر - اسبق جهات المغرب لاعلان الاستقلال ، وذلك بتأسيس الدولة الرستمية ؛ على يد كرام بررة من رجال البربر اسلموا وحسن اسلامهم ، واعتنقوا مذهب الامام ابن اباض رضى الله عنه ، وقد كان اول مذهب اسلامي انتشر في بلاد الاسلام ، واعتنقه قوم كثيرون بالشمال الافريقي والبلاد الطرابلسية ، ولقد قام بكبر تأسيس الدولة الرستمية البربرية الاسلامية القاضي عبد الرحمان بن رستم الفارسي سنة ١٦٠ (١) فحكمت البلاد حكما اسلاميا يذكر في كل عصر ويشكر ، وسجلت في تاريخها صفحات نبل وفخار لا تعتدى على ذكرها الطيبة الايام .

واذا كان العقد قد انتشر من الوسط ، واستقلت عن الخلافة العباسية وعن ولايتها بالقيروان دولة بنى رستم في تيهرت . فلم تعتم جهات المغرب ان اقتفت اثرها واعلنت استقلالها على يد بطل من ابطال العرب وسيد من سادة الاسلام وشريف من اشراف قریش ، هو ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، وذلك بمدينة مليلي سنة ١٧١ هجرى (٢) (٧٨٧ ميلادية) .

فما كادت تنتهى ولاية الامير روح بن حاتم بالقيروان ؛ سنة ١٧٥ حتى كانت الخلافة العباسية لا تحكم الا البلاد التونسية وبلاد الزاب ؛ اى القسم الشرقى من قطر الجزائر الحالى ؛ وما كادت تستقر بالبلاد اقدام الوالى الجديد ابراهيم بن الاغلب الكبير ، اثر حوادث كثيرة واضطراب ، حتى رأى ، ورأى وجوه

(١) وقع هذا بعد انهيار الدولة الاموية بالشرق ، بمقتل آخر خلفائها مروان ابن محمد سنة ١٣٣ هجرى . (٧٥٠) وقامت الدولة العباسية مقامها معتمدة على الفرس حاكمة ببغداد .

(٢) بعد سنة ، اى عام ٩٧٢ ، مات بالاندلس صقر قریش عبد الرحمان الداخل الاموى ، الذى استقل ببلاد الاندلس ، وانشأ فيها دولة اموية جديدة موحدة دامت هنالك زهاء ٢٩٠ عاما ودامت ايامه ٣٣ سنة وانشأ بقرطبة الثم اتخذها دار ملكه المسجد الاعظم الذى هو الى يومنا هذا اعجوبة الزمان .

القوم وكبراء الامة معه ، وجوب الانفصال الادارى عن بغداد ، والاستقلال بامور البلاد ، فراسلوا امير المؤمنين هارون الرشيد فى ذلك ، وجاءت المصادقة منه بعد استشارة اهل الحل والعقد بمركز الخلافة سنة ١٨٤ (٨٠٠ ميلادية) وتعاقبت الفريقات على ان تبقى الامارة الجديدة معترفة بسيادة الخلافة العباسية ؛ وان تدفع خراجا سنويا لبغداد ، مقداره ٤٠ الف دينار ، متنازلة عما كانت تتقاضاه اعانة لها من خزينة مصر ومقداره مائة الف دينار .

تمت الامارة بذلك لأبراهيم ابن الاغلب ، واصبح فى البلاد ملكا مستقلا ، مصلحا معمرا ساهرا على امور مملكته باسطة العدل والامن بين كل طبقات وعيته ؛ والتف حوله فى تضامن اسلامي « ووطني » بديع رجال العرب والبربر ، فتوطدت اسس الدولة واقبل الناس على صالح الاعمال ؛ والناس على دين ملوكهم . وهكذا نشأت الحضارة الاغلبية الزاهية الزاهرة ؛ واصبحت القيروان العظيمة عاصمة ملك وسلطان ، امتها رسل الامبراطور شارلمان مهنة (١) وامتلات قصورا وبساتين ، ومساجد ومدارس ودواوين ، وارسلت العمال من قبلها الى اقصى جهات المملكة ، وازدهرت المدنية ، وانتشرت العلوم والآداب وكثر العمران ، فلم تنقض ايام ابراهيم الكبير وابنه الاول عبد الله وابنه الثانى زيادة الله حتى كانت دولة بنى الاغلب من ازهى ممالك المسلمين ، وبلغ خراجها يومئذ الف الف درهم (نحو ٨٠٠٠ كيلو من الذهب) .

ولا نغفل لك فى خاتمة هذا الباب ، ما قاله الاستاذ فكتور بيكى فى كتابه « مدنيات شمال افريقيا » عن الدولة الاغلبية . قال : « لقد سار الامراء الاغالبية سيرة قسط وعدل ، محترمين للحقوق ، مظهرين جميل الاستعداد

(١) جاءت رسل امبراطور الغرب شارلمان مهنة بالملك والاستقلال راجية من ملك القيروان ان يرجع للمسيحية بقايا شهادتها وآثارهم ومخلفاتهم بالبلاد الافريقية . فاقبل ابراهيم ابن الاغلب سفارة شارلمان بقصر العباسية ، جوار مدينة القيروان ، واحتفى بهم احتفالا منعدم النظير واجابهم الى مطلبهم فرجعوا مبتهجين ؛ ثم ارسل ابن الاغلب حسبا تقتضيه التقاليد السياسية ، سفارة من لدنه ترد زيارة شارلمان ، فاقبل تلك السفارة بمدينة بادو بايطاليا ؛ اقتبالا لائقا فاخرا .

للقيام بجلال الاعمال لفائدة الامة .

« من ذلك انهم انشأوا وظيفة تلقى نورا غريبا على المجتمع في ذلك العصر فلقد نصبوا في كل مدينة شخصية سامية مهمتها الرسمية (حماية الشعب ضد عدوان الكبراء) « صاحب المظالم » وهيئات ان يجد مجتمعنا العصري عبارة اجمل من هذه العبارة ، لوضع صورة تمثل في آن واحد ؛ احترام العدالة واحترام حقوق الانسان .

« ولقد اشتغل امراء الاغالبية بالمنشآت العامة والاعمال النافعة ؛ فاكثروا من العمران والتجميل بمدينة سوسة وتونس ، وامر واحد منهم (هو الامير احمد ابن محمد بن احمد) بحفر وبناء الصهريج العظيم بمدينة القيروان (فسقية الاغالبية) حيث تجتمع المياه الواردة من جبال جلاص ، ودائرة هذا الصهريج تبلغ ١٢٨ مترا ولا يزال مستعملا الى يومنا هذا ؛ وان المسافرين لتأخذ منه الروعة كل مأخذ عندما تلوح له هذه الصفحة المائية الناصعة في وسط بيداء جرداء يخيل للنظر ان لا حد لها .

« يقع هذا الصهريج اليوم شمالي سور القيروان ، بعيدا عن البناء والعمران ، انما هو بلا ريب لم يكن خارج اسوار المدينة العتيقة ، وذلك ما يعطيك فكرة عن اهمية مدينة القيروان التي كانت في ذلك العصر آهلة غنية . « والى جانب كل ذلك ، كان امراء الاغالبية قواد جنود لا تنكر مهارتهم الفائقة في الحروب ، فاستطاعوا ان يوطدوا سلطانهم بصفة مستمرة على قبائل من طبعها انشعب والهرج ؛ وتغلغل بواسطتهم النفوذ العربي في البلاد الى حد بعيد .

« انما كان اولئك الامراء على الاغلب ، اذا استتب لهم الامر وسادت السكينة ارجاء المملكة ، ينهمكون في الملهيات والشبهوات والشراب ويقومون تحت تأثير ذلك باقسى الاعمال التي يدفع اليها جبروت ليس له من حد (١) ، « **المحاولات الاولى لفتح صقلية** - ان كانت بلاد المغرب العربي مطمح انظار كل من استقرت له قدم في جزيرة صقلية ؛ فقد كانت هذه الجزيرة كذلك مطمح

انظار كل من توطد له بالبلاد الافريقية الشمالية امر .

ولقد فصلنا فى مقدمة هذا الكتاب اعمال الدولة القرطاجنية فى صقلية وما قامت به من جهود عنيفة فى سبيل فتحها وفى سبيل الاستقرار بها .

فما كادت طلائع انفتح الاسلامى تبسط الويتها الظافرة فوق اديم هذه الارض فتجعل منها معقلا منيعا تلعبه والعروبة والاسلام ، حتى اتجهت الانظار ، انظار الفاتحين الاولين صوب صقلية ، وكانوا من وراء الجزيرة الصقلية ينظرون الى قارة أوروبا ، السابحة فى الهمجية التائهة فى بيداء الوحشية والظلمات .

كانت غزوة الاشراف ؛ اشراف الحسب والنسب واشراف الجهاد والجلاد اول غزوات المسلمين بالبلاد الصقلية . وكان القائم بكبر هذه الغزوة بطل العروبة والاسلام الخالد الذكر موسى بن نصير القرشى ، وقد اقر الله على يده الكريمة امر الاسلام بهذه الديار المغربية ، ووطد بها اركان الفتح العربى ، وتمت تلك الاخوة الاسلامية العظمى التى لم ير العالم لها من مثيل ، اخوة العرب والبربر ، لحمتها الدين الحنيف الذى سوى بين الناس ، وما جعل من فضل لعربى على اعجمى الا بالتقوى ؛ وسداها المصلحة المشتركة .

اراد موسى فى بادىء الامر ان يعبر الى القارة الاروبية ، متطيا سهوة الجزيرة الصقلية ، فانشأ بتونس دار صناعة جهزت له مائة سفينة وصاح فى الناس أن حى على الجهاد فلبى الناس داعى الجهاد فى سبيل الله افواجا ولم يبق شريف ممن كان معه الا ركب البحر ، ومن ثم دعيت هذه الغزوة غزوة الاشراف ، وعقد موسى لواءها لابنه عبد الله ؛ فنزل ارض صقلية ودحر قوى الروم بها وغنم مغنم طيبة ، انما لم يستطع البقاء بها واتمام فتحها ، فاكتفى بما ناله وقفل باسطوله الى البلاد الافريقية .

ولعل طول المسافة البحرية بين تونس وصقلية ، وصعوبة ارسال المدد الى الغزات من جراء ذلك هو الذى جعل موسى يعدل عن فتح صقلية ، ويعقد

(١) وهذا فى الحقيقة من اهم اسباب انهيار الدول العربية الاسلامية السالفة ، فى كل مكان .

العزم على مهاجمة اوروبا من ناحية اخرى تكاد تتصل فيها بالارض الافريقية ؛
وهكذا نشأت غزوة بلاد الاندلس من مجاز طنجة الذى اصبح يعرف فيما بعد
والى يومنا هذا ببوغاز جبل طارق ، وهو طارق بن زياد الليثى الذى اتم الله
على يده ذلك الفتح المبين .

ولى الامر بافريقيا من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك ، عبيد الله ابن
الحبحاب ، فرأى ان يقتفى اثر موسى بن نصير وان يدخل اوروبا من صقلية
بعد ان توطد فتح الامدلس ، فارسل فى اول الامر غزوة بحرية لقيت اسطولا
للروم يعترضها الطريق ، فدار القتال بين الاسطولين وانهزمت مراكب
الروم وولت الادبار ، الا ان المسلمين لقوا من جراء ذلك عنتا ، واسر الروم
منهم قبل انهزامهم عددا من رجالهم ، من جملتهم العالم الشهير الشيخ
عبد الرحمان بن زياد الذى بقى فى الاسر الى سنة ١٢١ (١) ثم رجعت مراكب
المسلمين بما غنمته من الروم .

لكن ابن الحبحاب لم يصبر على هذه الحثية وصمم على انفاذ السهم
فى صقلية فجهز من جديد حملة عظيمة وضع على رأسها القائد حبيب
بن ابي عبيدة بن عقبة بن نافع ، ومعه ابنه القائد الجسور عبد الله بن حبيب ،

(١) قبل ستة اعوام (٧٣٢ م) وقعت معركة ابواتية ، او بلاط الشهداء ؛ وبهر اوقف شارل
مارتيل زحف المسلمين على ضفاف نهر اللوار وقتل اميرهم البطل عبد الرحمان الغافقى ، وقد
كان المسلمون دخلوا بلاد فرنسا سنة 720 واحتلوا مدن نربون وقرقشنة ونيم ثم استولوا على
افينيون سنة ٧٣٠ وبوردو سنة ٧٣٢ ووضعوا جاليات اسلامية بهاتيك الديار ؛ فبعد معركة
ابواتية انسحب المسلمون الى الجنوب حيث استقروا امدا طويلا فى البلاد المواجهة لجبال البيرانات
الفاصلة بين فرنسا واسبانيا .

وقد كان المسلمون يتقدمون فى جنوب فرنسا الشرقى ملبيين دعوة الاهالى لهم وكان من
آثار المسلمين هنالك تأسيس جامعة « مونبيلي » وبعد انجلاء المسلمين جرد ملك فرنسا (بيبان
البريف) ابن شارل مارتيل حملة انتقامية ضد اهالى جنوب فرنسا الشرقى فامعن فيهم مدة ٢٥
سنة قتلا ونهباً وتمديبا .

وبهذه المناسبة يقول المؤرخون الغربيون ان الفاتحين العرب كانوا يتقدمون فى البلاد حسب
التقارير السرية التى كانوا يتصلون بها من اليهود الذين انشأوا يومئذ جوسسة واسعة النطاق
لفائدة الفاتحين المسلمين ؛ سعيًا منهم فى الخروج بواسطتهم عن احكام المسيحية الجائرة القاسية
التي كانت تمنع فيهم اضطهادا وفتكا وتمديبا .

وسار الاسطول الاسلامى من دار صناعة تونس سنة ١٢٢ فنزل الارض الصقلية وقاتل من اعترضه وهزم من قاتله حتى وصل تحت جدران سرقوسة الشهيرة ونصب عليها الحصار وضيقه وضرب باب المدينة ضربة رمزية بسيفه فائرت فيه ، واذعن الروم والاغريق للصلح وبذلوا فى سبيله جزية ذريعة ، وعزم حبيب وابنه عبد الله على البقاء بصقلية وانجاز فتحها ، وقد تيسرت لهما اسبابه . الا ان الحالة ساءت بافريقيا اذ وقعت ثورة فى ناحية طنجة قام بها البربر (١) فارسل ابن الحبحاب عليهم القائد خالد ابن ابى حبيب القهري ومعه وجوه القوم واسراف قريش ، وكأنه اراد بذلك ان يقمع الفتنة بوجه سلمى وبطريقة الاقناع والاذعان للحق على يد قوم لهم مكانة عالية فى الدين وفى المجتمع . الا ان الفتنة كانت عمياء هوجاء ؛ والتقى الثوار برسول الامير وكانوا جماعة غفيرة فقتلوه عن آخرهم وكاد امر الفتنة يستفحل ؛ فبادر عبد الله باستدعاء الجند الاسلامى من صقلية مقدما الأهم على المهم ؛ واضطر حبيب ومن معه لاخلاء الجزيرة مرة اخرى بعدما كادوا ينجزون فتحها ، ورجعوا على مضض الى البلاد الافريقية .

رأى عبيد الله بن الحبحاب خيبة أمله المزدوجة ، وفشل مساعيه الجسيمة فترك الولاية ؛ ورجع الى المشرق فى جمادى الاولى ١٢٣ ، وكانت ولايته سنة ١١٠ ومن آثاره العظيمة الجالدة الجامع الاعظم بتونس ، جامع الزيتونة العامر منبع النور والهدى بالشمال الافريقى زاده الله رفعة وسموا . وينسب له بعض المؤرخين بناء دار الصناعة بتونس ولعله حسنها وزادها اتساعا ونشاطا، لان موسى بن نصير كان قد استعمل بتونس دار الصناعة ، ومنها جهز مراكبه لغزو صقلية كما اسلفنا .

ثم فى ايام الوالى عبد الرحمان بن حبيب القهري اعاد عبد الله بن حبيب غزوة الجزيرة وكان الروم قد حصنوها وانشأوا بها اسطولا لا يقصدون به

(١) سبب هذه الثورة عسف العامل على طنجة من قبل ابن الحبحاب ، واسرافه فى الظلم والدوان ، مخالفا بذلك احكام القرآن ، وتعاليم الاسلام .

الدفاع فحسب ، بل كانت مهمته مهاجمة مراكب المسلمين وقطع البحر عنهم ؛ قال ابن الاثير : فكانوا كلما ظفروا بمركب من مراكب المسلمين اخذوه بما فيه . اشتعلت نيران الحرب بين الاسطولين ؛ وحطم ابن حبيب الكثير من مراكب الاعداء ؛ ودك حصونهم . ولم تكن نيته هذه المرة الاستقرار بالجزيرة ، فتركها بعد ان ضاحله الروم بها على مال كثير ورجع الى افريقيا مثقلا بالغنائم .

الفتح الاغلبى واسبابه - نشأت الدولة الاغلبية كما اسلفنا فى عزرة وكرامة وتوطد لها الملك والسلطان ، ودانت لها الناس ، فقامت بمآثرتها الخالدة على صفحات الوجود الا وهى فتح صقلية ، وموالاته الجهاد بها ، ونصب انوية الاسلام والعروبة فوقها عالية خفاقة زاهية .

كان أهم أسباب العزم على الفتح بضفة قارة مستمرة ، هو تمهيد السبيل لفتح البلاد الاروبية ومهاجمتها من الوسط ، حيث اخفق هجوم المسلمين عليها من ناحية الشرق عند جدران القسطنطينية ، وأخفق هجومهم عليها كذلك من ناحية الغرب فى سهول مدينة ابواتية امام شارل مارتال .

أما السبب الثانى الرئيسى لهذا الفتح فهو محاولة قطع دابر القرصنة البيزنطية الرومية وقد اتخذت صقلية كما أسلفنا مركزا لها ، تشن منها الغارة الفينة بعد الفينة على الارض الافريقية فتخرب الشغور وتنتهب الارزاق وتذهب بالسكان الآمنين اسرى حيث يباعون عبيدا ان لم يتبادر للدولة الاسلامية بدفع الفدية عنهم .

زد على هذين السببين الرئيسين سببا ثالثا هو رغبة الملك الاغلبى فى قطع دابر الفتن الداخلية والثورات التى كانت تجتاح البلاد مثل واعدة اخطر من الطاعون وافتك من الوباء ؛ باشتغال الناس من بربر وعرب ، بامر الجهاد فى سبيل الله فوق اديم ارض اجنبية ، ينسيهم فتنهم الداخلية ويلهيهم عن محاربة بعضهم بعضا . ولقد تخلص الملك الاغلبى بواسطة هذا الفتح من العناصر المتهيجة المثيرة فى الجند العربى ، والتي اوصلت المملكة الاغلبية تحت قيادة الزعيم الشائر منصور بن نصر امير المحمدية الى شافة القبر ، وما

امكن التغلب عليها الا بجهد جبار وتدبير حكيم .

وقد نجحت هذه الغايات السامية الى حد بعيد ، ونجح بلاط القيروان الزاهر فى عهد الاستقلال الذهبى ، حيث اخفقت محاولة الولاة فى عهد التبعية والحكم المباشر بواسطة الخلافة .

العزم على الفتح - تكاثر عدد المسلمين الاسرى بجزيرة صقلية ، فعقد الملك زيادة الله اتفاقا مع حاكم الجزيرة من قبل الروم ، تعهد به هذا بارجاع اسرى المسلمين الى البلاد الافريقية ، ولا يبقى منهم احدا بارض الجزيرة .

وكانت الحالة يومئذ فى صقلية على أسوأ ما تكون عليه حالة بلاد يحكمها من قبل الاجانب حكام غلاظ شداد ، ديدنهم الارتشاء ، ودينهم مصلحة الذات ، وسيرتهم الجور والعسف ، وسريرتهم الحقد والحسد ونية السوء ، والشعب المسكين يئن من جراء ذلك انينا منكرا ، وليس عليه الا الخضوع لارادة الظالمين . كان يتولى امر الجزيرة يومئذ من قبل امبراطور الروم فى القسطنطينية عامل يدعى قسطنطين ، جمع الله فيه ما تفرق فى بنى قومه من فساد السيرة وخلال السوء . وكان على الاسطول الرومى بالجزيرة امير البحر اوفيمياس Euphémias (ويسميه مؤرخو العرب فيمى) فلم يكن احسن من زميله سيرة ولا اظهر سريرة ، وكان الخلاف مستحكما بين الرجلين بصفة فظيعة فسمى الوالى لدى الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثانى ، واستصدر منه امرا بالقاء القبض على امير البحر ، وكان لهذا انصار واتباع يسرون تحت لوائه وينتفعون منه ، فثاروا على الوالى ، ونبذوا دعوة الامبراطور ، واعلنوا فى الجزيرة استقلالهم ، وانتصب اوفيمياس حاكما بامرهم هنالك .

لكن الدهر لا يصفو للظالمين ؛ فان اوفيمياس لم يمكث فى الملك طويلا ، حتى ثار عليه احد قواده ، بسلاطة ، وهزمه فى معارك عديدة واعلن رجوع البلاد لطاعة الامبراطور .

ضاقَت الاسباب بوفيمياس فقدم بجماعة من انصاره الى مدينة القيروان

مستنجدا بلاطها ضد خصمه .

كان مجلس شورى الملك زيادة الله يتفاوض يومئذ في مسألة الاسرى المسلمين بصقلية ، وقد علم رجال القيروان انه لم يزل بين ايدي الروم هنالك جماعة من المسلمين . وان العقد الذى عقده الملك مع والى الجزيرة لم ينفذ ، وكان الجدل يومئذ محتدما حول ذلك ؛ وهل يجوز نقض العهد معهم والعودة الى حربهم ؟ فقال قاضى الجماعة اسد بن الفرات : علينا ان نستخبر رسلهم ؛ يعنى (جماعة اوفيمياس) فائنا بواسطة الرسل قد عاقدناهم ، وكذلك بواسطة الرسل نقيم عليهم الحجة ونجعلهم ناكثين .

اوتى بالرسول يومئذ فستلوا عن الامر ، واكدوا انه لم يزل حقا بالجزيرة الصقلية خلافا للعهد ، جماعة كبيرة من المسلمين فى حالة رق واستعباد .

اذاك قرر المجلس ان العقد قد نكث من طرف الاعداء ، وان الحرب واجبة لرفع هذه المظلمة . ونادى زيادة الله بالجهاد فى سبيل الله ؛ فلبى المسلمون النداء واجتمع الاسطول الاسلامى بمدينة سوسة ، مرسى القيروان ؛ وكان يجمع مائة مركب تحمل كل مركب منها نحو من مائة وعشرة من المقاتلين مع الزاد والعتاد والخيول ، فكان الجيش الفاتح مؤلفا من عشرة آلاف راجل وتسعمائة فارس وامر عليهم قاضى الجماعة اسد بن الفرات .

اسد بن الفرات - وانه لمن اكبر الكبراء واعظم العظماء فى تاريخ الشمال الافريقى ، لا تدانى منزلته العالية فى العالم ، الا همته السماء وعلو كعبه فى الجهاد ، بين ميادين السيف والقلم .

وانه لمن واجبنا المقدس ان نسطر صفحة حياته النقية الطافحة بجلائل الاعمال بصفة موجزة (١) حتى نتخلص الى ذكر قيادته الجند واعماله فى صقلية . اعجمى الاصل ، ولد بمدينة من ارض خراسان سنة ١٤٢ ، وقدم مع

(١) راجع عن ترجمته باسهاب ؛ مقالا معتمدا للاستاذ العلامة الشيخ احمد المهدي النيفر نشرته مجلة الشريعة التونسية فى العدد السابع والثامن من سنتها الاولى .

والده وسنه لا يجاوز الاربعة اعوام صحبة الجند الاسلامي القادم مع الوالي محمد بن الاشعث لتمهيد الامر بافريقيا

تلقى في مدينة القيروان مبادئ علومه مدة خمس سنوات ، وارتحل في العاشرة من عمره الى مدينة تونس فانتقطع فيها للعلم نحواً من التسعة اعوام تعلم فيها القرآن وعلومه ، وروى فيها موطأ الامام مالك عن علامة افريقيا يومئذ وبحرهما النظامي الشيخ علي بن زياد (١) .

وكان اسد رحمه الله يقول مفاخرها ومذاعبها اقراه : انا اسد والاسد خير الوحوش ، وابي الفرات والفرات خير الماء ؛ وجدي سنان والسنان خير السلاح .

ولم يكفه ما روى به غلته من العلم في مدينة تونس ؛ فامتطى صهوة العزيمة والجلد ، وشد رحاله الى المشرق الذي كان يزهو ويزدهر يومئذ بما فيه من مصابيح العلم وائمة الهدى .

ام بادى ذي بدء مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهناك سمع عن مالك ابن انس رضى الله عنه الموطأ وتعمق فيه بعدما استوعبه اول مرة عن ابن زياد ؛ ثم غادر المدينة مزوداً بعلم مالك الغزير ودعائه الصالح ووصيته يوم الوداع : اوصيك بتقوى الله تعالى ؛ والقرآن ؛ والنصيحة لهذه الامة ، وام العراق فلقى جماعة من اصحاب ابي حنيفة النعمان ؛ اخص بالذكر منهم الامام ابا يوسف ومحمد بن الحسن فاخذ عنهما الشيء الكثير من علم ابي حنيفة وآرائه وفتاويه واخذ عنه ابو يوسف موطأ مالك وآراءه . ثم انتقل الى مصر وفيها جماعة كبرى من اصحاب مالك والناسجيين على منواله ، فصحب منهم الامام عبد الرحمان بن القاسم صحبة طويلة وامعن في

(١) روى الموطأ عن الامام مالك رضى الله عنه بالمدينة ؛ واخذه عنه الامام سحنون صاحب المدونة ؛ عرضت عليه الدولة مرارا تولى القضاء ، فرفض وابى تورعا منه ، وجبا للانقطاع للعلم ، حتى توفاه الله سنة ١٨٩ ، وودفن بتونس حيث لا يزال ضريحه الضخم تجاه ادارة المحافظة يزوره الناس احياء لذكراه واعترافا بجلال اعماله .

سؤاله وعرض المسائل المختلفة عليه ، حتى انقطع اسد في السؤال ، اذ لم يبق له شيء يسأل عنه ، ودون عندئذ كتابه الشهير « الاسدية » .

وبعد عشرة اعوام مضت في جهاد عنيف واجهاد نفسى عن نظيره في سبيل العلم والمعرفة ، رجع الى وطنه الافريقى حاملا في صدره علما غزيرا ، وفى وطابه كتابا عزيزا هو الاسدية ، وتصدى للعلم والتفيع ، فاشتهر امره وذاع صته .

وكان الامام سحنون يومئذ بالمشرق ينهل من معين ابن القاسم العذب وقد صحبه واطال صحبته وألف كتابه الاشهر « المدونة » ثم رجع به الى القيروان وانتصب للاقراء والتفيع والتدريس ؛ ولم تكن المدونة على وفاق تام مع الاسدية ، فهناك مسائل كانت محل خلاف واستشير الامام ابن القاسم فى الامر فرجح كفة المدونة على كفة الاسدية ، وأمر أسدا بان يصحح كتابه على المدونة فترك أسد رحمه الله اسديته وفقه ما بك ؛ وأقبل على مذهب أبى حنيفة النعمان يشرحه للناس ويعلمه للمخاصة والعامة .

ثم ولى قضاء القيروان سنة ٢٠٤ مشتركا فى ذلك مع القاضى أبى محرز الكنانى ؛ وكان بينهما شتآن كبير وخلاف عظيم .

وعندما وقع الخوض فى مسألة صقلية ومن بها من أسرى المسلمين ، كان من رأى القاضى أبى محرز الكنانى الثانى الى ان يتأكد الخبر ؛ ولو أنه كان عائشا فى عصرنا الحديث لطلب « تشكيل لجنة بحث » ، اما اسد فكان رأيه الأسد ، اذ قال علينا بسؤال الرسل ، فاننا بواسطة الرسل صالحناهم ، وبواسطة الرسل نجعلهم ناكثين ورجح هذا رأى كما رأيت ، ونادى منادى الجهاد ، واجتمع الاسطول فى سوسة .

عندئذ طلب القاضى اسد بن الفرات من اميره زيادة الله ، الاذن له بالخروج صحبة الجند الاسلامى حتى ينال شرف الجهاد او شرف الاستشهاد ، فلبى زيادة الله طلب القاضى الذى كان يومئذ فى العقد السابع من عمره ،

واولاه اماره الجيش الفاتح ؛ فقال اسد : واه يا مولاي ! اتعزلنى عن القضاء
لكى تولينى الامارة ؟ فقال زيادة الله كلا ؛ بل لك اماره الجيش مع القضاء .
وامر زيادة الله ان يخرج الجند الاسلامى فى موكب حافل ومهرجان مشهود
فخرج لوداع المجاهدين كبار الامة وعيون القوم من العرب والبربر والانديسيين ،
والسادة الاشراف ؛ قال الشيخ ابوبكر بن محمد المالكى فى كتابه « رياض
النفوس » : فلما رأى (اسد بن القرات) جمع الناس بين يديه وخلفه وعن
يمينه وعن شماله ، وقد صهلت الحياول وضربت الطبول ، ونشرت البنود
قال : لا اله الا الله وحده لا شريك له . والله يا معشر الناس ما ولى لى اب
ولا جد ولاية قط ، وما رأيت ما ترون الا بالاقلام ، فاجهدوا انفسكم
واتعبوا ابدانكم فى طلب العلم وتدوينه ، وكاثروا عليه واصبروا على شدته
فانكم تنالون به الدنيا والآخرة .

المعارك الاولى - اقلع الاسطول الاغلبى الاسلامى من مدينة سوسة ؛
يوم الاحد ١٤ ربيع الانور سنة ٢١٢ (١١ جوان ٨٢٧) ووصل سواحل
صقلية عند مدينة مازرة ، يوم الثلاثاء ١٧ ربيع الانور ؛ قاطعا فى ثلاثة
ايام ، ثلاثمائة كيلو مترا تفصل بين سوسة ومازرة .

نزل المسلمون مدينة مازرة ، ولم يجدوا بها من يدافع عنها لاختلال
امور الروم ، وزهد اهل البلاد فى الدفاع عنها لفائدة الغاصبين ، فاتم
المسلمون تفريغ الاسطول وانزلوا الى الارض ما اتوا به من معدات الفتح
والكفاح .

عندئذ قدم القائد بسلطة بجموع كثيفة من الروم ، تبلغ المائة الف
مقاتل ، اى عشرة اضعاف الجند الاسلامى ؛ اما امير البحر اوفيمياس الحائن
فقد تركه المسلمون وشأنه ولم يستعملوا جماعته وانصاره .

خرج المسلمون للقاء بلاطة ، وكان يعتزم الرمي بالمهاجمين الى البحر ،

تاريخ صقلية - ٥

والتقى الجمعان على مقربة من مازرة . قال ابن ابي الفضل وكان حاضرا
المعركة « ورايت اسد بن الفرات وبيده اللواء وهو يزمرم : فحملوا عليه ،
وكانت فينا روعة ، فاقبل اسد على قراءة يس : فلما فرغ منها قال للناس :
هؤلاء عجم الساحل . . . هؤلاء عبيدكم . . . لا تهابوهم : وحمل بالسواء
وحمل الناس معه : فهزم الله جل وعلا بلاطة واصحابه ، فلما انصرف اسد
رأيت والله الدم قد سال من قناة اللواء مع ذراعه حتى صار مع ابطه » .

ومعنى قول أسد : هؤلاء عجم الساحل ، اى هؤلاء الذين هربوا امامكم
من السواحل الافريقية .

اثر هذا النصر العظيم ، فرت فلول الجيش الرومى نحو الجهة الشرقية
معتصمة بمدينة سرقوسة ؛ وراى اسد ان يستثمر على الفور انتصاره الكبير ،
فسار بجيشه يقتفى اثر المنهزمين ، ففتح كامل الجنوب الصقلى فى مدة
وجيزة حتى وقف تحت اسوار سرقوسة قاطعا مسافة مائتى كيلومتر
الفاصلة بين مركز النزول مازرة والمدينة المحاصرة فى وقت وجيز .

كان أمير البحر أوفيمياس قد ندم على فعلته وخيائته ، اذ رأى أن المسلمين
يفتحون الجزيرة لحساب الاسلام لا لحساب رومى مهما كان شأنه ، فراسل
اهل سرقوسة يستحثهم على الصبر والثبات ريثما يقدم لنجدتهم ، فخرج
جماعة من البطارقة والرهبان يسالون الامان لاهل المدينة ويطاولون فى
المذاكرة ، وكان ذلك منهم خديعة حربية تمكنوا بواسطتها من كسب الوقت ،
وزيادة تحصين المركز ، واخفاء ما به من كنوز ونفائس .

أراد المسلمون أن يقتحموا المدينة فاخفقوا ، وأراد أهل المدينة أن يبعدوا
المسلمين عن أسوارها فاخفقوا كذلك . وأصبحت الحرب حرب مراكز
لا حرب حركة .

وقع المسلمون فى مخمصة عند ذلك وأصاب الجند جوع كبير حتى أكلوا
الحيول ، فخطبوا القايد ابن قادم فى الامر وسألوه التوسط لهم عند أسد
ليأمرهم بالرحيل الى افريقيا ؛ قال ابن القادم لأسد : ارجع بنا الى افريقيا

فان حياة مسلم واحد احب اليها من جميع المشركين ، فقال اسد : ما كنت
لاكسر غزوة على المسلمين ، وفي المسلمين خير كثير ؛ هنالك اخذ دعاء
الهزيمة يعملون أعمالهم وينشرون دعايتهم المنكرة ، وبدرت من ابن القادح
الذى تزعمهم كلمة سيئة ، فقال اسد : على اقل من هذا قتل عثمان بن عفان ؛
ثم تناوله وضربه ثلاثة او اربعة اسواط ، وكأنه قد ضرب فيه دعوة التردد
والهزيمة ، ونصر فكرة المقاومة الثبات والصبر ، فتم له ما اراد ، وعادت
العزيمة القوية الى الانفس التى لعبت بها حينما ما دعوة النكوص على الاعقاب .
واذ كان المسلمون قد احتلوا كامل الجنوب الصقل ؛ فقد سهلوا على
انفسهم امر تموين الجند ووصول النجيدات اليه من الارض الافريقية ، ووصلت
النجيدات والاقوت والمؤن فعلا للمسلمين ؛ ووصلت للروم فى سرقوسة مثل
ذلك من بقية الحاميات الرومية ، واستمرت الحرب سجالا حول سرقوسة ،
وقد حفر المسلمون حولها خندقا عظيما يمنع خروج حاميتها للمهاجمة .

كان اسد رحمه الله ورعى عنه يباشر امر الحصار بنفسه ، ويضيق على
المدينة ، لكن ذلك الجهد الحربي الذى بذله منذ نزل مازرة نال من جسمه
البالى فاصابه من جراء ذلك مرض اودى بحياته الجليلة ، ولبنى داعى ربه فى
ربيع الثانى سنة ٢١٣ هـ بعد جهاد متواصل عنيف دام ١٣ شهرا ودفن رحمه
الله بمقر استشهاده تحت اسوار سرقوسة ، ويقول بعض المؤرخين انه دفن
بمدينة قصر يانة ، وذلك غلط لأن تلك المدينة لم تكن قد فتحت بعد ؛ وكذلك
يقول بعضهم غلطا انه دفن فى بالارمة التى لم تفتح الا عدة سنوات بعد ذلك .

محمد بن ابى الجوارى

اجتمع المسلمون بعد انتقال اسد بن الفرات الى الرقيق الاعلى ؛ وولوا
عليهم محمد بن ابى الجوارى . وكانت النفوس قد ضعفت والعزائم قد وهنت ،
فأستقر رأى الامير محمد بن ابى الجوارى على اخلاء الجزيرة ، والرجوع
بالمسلمين الى افريقيا .

غلطة الروم ، توطد الفتح - ركب المسلمون عندئذ مراكبهم منسحبين ؛
واقلعوا ، وما كادوا يتوسطون عرض البحر حتى لقيهم اسطول الروم القادم
من القسطنطينية نجدة لاهل سرقوسة ؛ فسد على المسلمين طريق الرجوع
الى افريقيا ولم يترك لهم الا احدى الطريقتين : اما قبول المعركة مع الاسطول
الرومى ، وهو اوفر عددا واقوى عدة ، او الرجوع لصقلية ، والثبات بها
والصبر على شدة الحرب الى ان ياتى الله بامرهم .

عزموا ، وهم على متن البحر على مواصلة الجهاد والرجوع الى البر
فرجعوا مستبسلين ، عازمين على الفوز او الاستشهاد ، ولكى يقطعوا كل امل
لهم بالنكوص على الاعقاب والرجوع نحو افريقيا ، قاموا بعملهم الحازم الحاسم ،
الا وهو احراق اسطولهم عن آخره مقتدين فى ذلك بما فعله من قبل طارق بن
زياد عند فتح الاندلس ، حينما احرق المراكب وقال : ايها الناس البحر
وراءكم والعدو امامكم ، وليس لكم والله الا الصبر او النصر ؛ وبهذا الحادث
الرمزى ، توطد امر المسلمين فى الجزيرة وعزموا على انجاز الفتح الى النهاية .

ابن فرغلوش الاندلسى - وكيف الصبر على الجوع وعلى قلة المدد وعلى
ضعف العدد ، امام جموع الروم الغفيرة واقواها الوفيرة ؟ رأوا ان لا ملجأ من
الله يومئذ الا اليه فصبروا وانتظروا ؛ وكان نصر الله قريبا .

فى تلك الاثناء والازمة مستحكمة الحلقات ، كما جاءت سفن المدد من
افريقيا ارسى على السواحل الصقلية الجنوبية اسطول قرصان المجاهدين
المسلمين بالاندلس ، يقوده اصبح بن وكيل المشتهر باسم « ابن فرغلوش »
وكان الاسطول سائرا فى سبيل الغزو والمغامرة . فتجمع من العمارتين نحو
الثلاثمائة سفينة (١) .

تم الاتفاق بين مسلمى الجزيرة وقرصان الاندلس على ان ينزل الاندلسيون
الجزيرة لنصرة جندها ، وفتح مدنها والقضاء على حكم المسيحية فيها ، وعلى
ان تكون الامارة فيها عند انجاز ذلك لابن فرغلوش (٢) .

نزل الاندلسيون البر واشتد بهم ساعد أهل افريقيا ، وسار المسلمون

أقوياء العزائم فى طريق الفتح والنصر ، فاحتلوا مدينة مينا بعد حصار ثلاثة أيام ؛ ثم ساروا نحو جرجنت ففتحوها قسرا وساروا بعدئذ نحو معقل « قصر يانة » الذى كان أكبر صياصى الروم بالبلاد .

كان امير البحر اوفيمياس الخائن لا يزال يطمع فى تولي الامر بعد أن يمهّد له المسلمون السبيل رغم مساعيه السالفة الذكر ؛ فعندما وقف المسلمون تجاه قصر يانة ، وكان أهلها أشداء متفانين فى الدفاع ، أظهروا الاستسلام والخضوع ، وأبدوا رغبتهم فى تولية اوفيمياس أمرهم ، وما كان ذلك منهم الا مكيدة فتمكنوا من الخائن ودقوا عنقه ، وتحصنوا فى مدينتهم أثر ذلك فلم تستطع جموع المسلمين اخضاعها .

البوبسة - فى سنة ٢١٦ (٨٣١) أصاب المسلمين وباء شديد فتك بهم فتكا ذريعا ، وكان القائد المجاهد ابن فرغلوش من جملة من استشهد بذلك ، ومات فى تلك السنة نفسها الوالى محمد بن ابي الجوارى ، واضطرب امر المسلمين ، فبتولى امرهم مؤقتا عثمان بن قهرّب الى ان جاء من القيروان ابو فهر محمد بن عبد الله التميمى سنة ٢١٧ (١). فنفر ابن فهر عنها ولم تطل مدة ولايته ، ولم يستقم له امر ، ورجع اسطول الاندلس بمن بقى حيا من رجاله الى اسبانيا .

زهير بن عوف

أرسل زيادة الله الاغلبى ، زهير بن عوف عاملا على الجزيرة ، على ان يستمر فيها الجهاد ويتم فتح البلاد ؛ وأرسل معه جندا عظيما يبلغ عدده ٣٠ الفا ؛ (٢) فاشتد ساعد المسلمين هنالك ، واندفعوا يوالون الفتح . ويسيرون من نصر الى نصر .

(١) هذا ما يذكره ابن خلدون . وارى فى العدد مبالغة لا ريب فيها .

(٢) هذا يعنى - لو صحت الرواية - انفصالهم عن الدولة الاغلبية ؛ وهو لا يتفق مع ورود النجدة الافريقية . ولا مع بقية سرّ الحوادث ، فالرواية فيها نظر .

فتح بالرمة - والقد كان ملاك عمل ابن عوف رحمه الله فتح بالرمة عاصمة الجزيرة ودرتها اللامعة ؛ فلقد سار اليها على رأس الجند الاسلامي بعد ان توطد الفتح في الناحية الجنوبية كلها ؛ وكان الروم ومن لف حولهم من انصار المسيحية قد تحصنوا في العاصمة واستعدوا لتلقى الصدمة الرهيبة واعدوا لها ما استطاعوا من قوة وميرة ، ومن عزيمة وجلد .

وقف المسلمون تحت الاسوار المتينة ، وارسل ابن عوف الانذار الشرعى لرجال الحامية فرفضوا الانذار ، وتلاقت هنالك تحت جدران العاصمة الصقلية عزيمتان قدتا من زبر الحديد ، عزيمة المسلمين التى استقرت على وجوب الفتح ودك الاسوار ، وتحطيم كل مقاومة تقف فى سبيل انجاز المهمة الكبرى ؛ وعزيمة الروم التى توطدت على وجوب الدفاع عن العاصمة ، وفى الدفاع عنها دفاع عن كيان الجزيرة بأسره ؛ فاما الفوز ودحر المسلمين واما الانهيار مع انقاص المدينة .

نصب ابن عوف الحصار على بالرمة وضيق عليها الحناق من جميع اطرافها . ومهما ازداد شدة فى تضيق الحصار الا وازداد المدافعون تصلبا فى المقاومة واستماتة فى الدفاع ؛ وقد علم كل من الفريقين ان المعركة حاسمة ، وان نتيجتها ستكون اما فوز الاسلام بالجزيرة ، وتقلص ظل المسيحية فيها ، واما اندحار المسلمين ورجوعهم من حيث اتوا خائبين .

لكن الضائقة اشتدت بالمدافعين الى درجة لم يبق لهم معها احتمال الصبر ، وفقدوا كل أمل تهم فى النصر ، ولم يبق امامهم الا احد الطريقين : طريق الموت

(١) فى السنة الموالية ؛ ٢١٨ هجرية ، توفى امير المؤمنين الخليفة العباسى المأمون ابن هارون الرشيد ، وقد كان عصره ازهر عصور المسلمين من حيث العلم والثقافة وقد امر باحضار كتب العلم والحكمة والهندسة وغيرها من بلاد الاغريق وكلف بتعريبها جماعة من مهرة الترجمة ، وقد كان كثير التشيع لآل البيت حتى انه اوصى ولاية العهد لعلى الرضا بن موسى الكاظم ؛ وفى ايامه تجسست فتنة القول بخلق القرآن واشتدت محنتها ؛ وقد كان مفرما بالتجسس والاطلاع على كل الاحوال ، فعين ١٧٠٠ عجزو يجسّن خلال الديار ويطلعنه على مختلف الاسرار .

(٢) فى هذا العدد مبالغة قاضحة ، ولعلها من غلطات الوراقين . ولربما كان الصحيح هو ثلاثة آلاف .

والاستشهاد كابطال قرطاجنة الذين سقطوا فى ميدان الشرف مجندائين تحت
انقاض مدينتهم بين السنة اللهيبة ، او طريق الاستسلام والانسحاب . ولقد
كان هذا هو الذى استقر عليه الوالى الرومى ومن بقى معه من رجال المسيحية ،
فطلب من ابن عوف الامان على ان يغادر الجزيرة بحرا بماله واهله ، ومن اراد
اتباعه من وجوه قومه ، فامنه الامير المسلم واجابه لطلبه تقديرا منه للبطولة
التى اظهرها اولئك انقوم فى الدفاع ؛ وابحر الروم تاركين المدينة مفتوحة
امام المسلمين فدخلوها فى رجب سنة ٢٢٠ (٨٣٥) ، ولم يجدوا بها حسب
رواية ابن الاثير الا ثلاثة آلاف من السكان ، وقد كانوا قبل الحصار ٧٠ الفا .
اتخذ المسلمون يومئذ مدينة بالرمة عاصمة للملكهم ، كما كانت عاصمة الذين
سبقوهم ؛ وكما اصبحت من بعد عاصمة الذين خلفوهم ؛ واندفعوا فى ميدان
الاصلاح وال عمران والترميم ، يقيمون انقاضها ويشيدون جدرانها ويوسعون
دائرتها ، فما عثمت غير قليل حتى اصبحت تختال فى ثوب قشيب من المدنية
وال عمران ؛ وامتلات قصورا ومساجد ودواوين وحمامات واسواقا وحدائق
وبساتين ، وصارت جنة يانعة تمثل انوار الشرق الاسلامى ومدنيته اللامعة
الحلابة وعلومه وفنونه ومنشآته ، تجاه ظلمات القرون الوسطى فى العالم
الغربى .

استمرار الفتح - احتلال مسينا - اثناء حصار بالرمة ، نال المسلمون
نصرا عظيما وطد قدمهم فى ناحية الشمال الصقلى ؛ وذلك باحتلال مدينة
مسينا ، سنة ٢١٩ (٨٣٤) فانحصر الروم والمسيحيون فى الناحية الشرقية
من صقلية حوالى مدينة قطانيا ، واصبحوا لا يحتلون من الجزيرة الا مثلثا
يمتد من الشرق نحو الجنوب الغربى من مسينا الى قصر يانة ، ثم يرجع من
قصر يانة نحو الجنوب الشرقى الى مدينة نوتو ؛ وعلى هذا الخط الحربى الذى
كان يتضال شيئا فشيئا ، كانت تتوالى اعمال الهجوم من ناحية المسلمين ،
وكانت تتوالى اساليب الدفاع من ناحية المسيحيين .

هاجم المسلمون الخط من وسطه مرتين ، خلال سنتى ٢١٩ و ٢٢٠

محاولين احتلالا معقل قصر يسانة المنيع ؛ انما هم لم يستطيعوا ان ينالوا منه متالا ، فاكتفوا بغنائم غنموها ورجعوا الى معسكرهم .

كذلك حاولوا تمزيق الخط من اسفله ، فهاجموا مدينة سرقوسة بشدة ، لكنها تصلبت في الدفاع ، واشتدت مقاومتها بصفة أجبرت المسلمين على الرجوع الى مراكزهم . تكن هذه الحيلة انقلبت نصرا مبينا ، ذلك أن جند الروم رأى أن يقطع عن المسلمين خط الرجعة ويصددهم عن الرجوع الى مراكزهم ، فاعترض لهم في الطريق ، وانقلبت محاولته تلك وبالا عليه ؛ عليه ؛ اذ أن المسلمين ركنوا الى غابة كثيفة هناك حجبتهم عن انظار المتتبعين ، وكنوا هنالك الى حين ، ثم انقضوا فجأة على الجند الرومي فمزقوه شر ممزق ، وقتلوا البطريق قائده ، وغنموا زاده وعتاده ، ثم عادوا نحو سرقوسة فنصبوا عليها الحصار وضيقوه .

كذلك سار القائد محمد بن عبد الله على رأس كتيبة ، فناجز مدينة طبرمين القتال ولم يدخلها مكتفيا بالاستطلاع وبما ناله من غنائم واسلاب ، وأخيرا احتل مدينة كوزو Gozzo سنة ٢٢١ .

ابن ابي محرز القاضي - في هذه السنة سنة ٢٢١ مات بمدينة القيروان عالم من جملة العلماء وعلم من اعلام المسلمين ، هو ابن ابي محرز قاضي صقلية؛ وقد ضربت بنزاهته وعدله وبتقواه وورعة الامثال ، من ذلك انه عندما بلغته انوفاة ، اوصى اخاه عمر ابن ابي محرز ان يكتفم خبر موته خوفا ان يكفنه . ويدفنه زيادة الله الاغلبى ، وينفق ذلك عليه من بيت مال المسلمين ، فيلقى الله وعليه من مال المسلمين شيء ، وهكذا كان . فلما بلغ نبأ ذلك الامير ، ارسل بفتاه خلف ، ومعه مسك وطيب واكفان فوصل ساعة كان النعش

(١) في هذه السنة اشتدت بالعراق محنة القول بخلق القرآن على يد الخليفة المعتصم بالله ، وكان قد تشبه بملوك الاعاجم ، وادخل الاتراك الدواوين واعتمد عليهم في ادارة الدولة ؛ وبلغ غلمانه من الترك ١٨ الفا ، البسهم اطواق الذهب والبدياج ، وبنى مدينة « سر من رأى » وانتقل اليها ، وقد حارب الروم واثخن فيهم ، وكان من ضحايا القول بخلق القرآن ، الامام احمد بن حنبل ؛ الذي امتنع من الاعتراف بذلك المنكر ؛ فعقد له مجلس للمناظرة دام ثلاثة

خارجا نحو المقبرة ، فنثر خلف المسك على جدت القاضي ، ورجع بالاكفان ؛ وحضر الدفن الامير زيادة الله وعزى اخاه واهل العلم فيه ، وقال لمن حوله « لو اراد الله بكم يا اهل القيروان خيرا لما اخرج ابن ابي محرز من بين اظهركم » .

وفى نفس هذه السنة ٢٢١ (١) توفى زهير بن عوف امير صقلية وقد بسجل اسمه على صفحات المجد بجلائل اعماله .

ابو الاغلب ابراهيم بن عبد الله بن الاغلب

ولى اماره صقلية عند موت زهير بن عوف ، وامر المسلمين فى نمو ، وسلطانهم فى تمكين وحول وقوة ؛ وكان الروم لا يزالون متحصنين فى الخط الدفاعى الذى اسلفنا ذكره ؛ فكانت حمة الوالى الجديد متوجهة نحو ذلك المثلث يريد نفسه ، حتى يصفوا امر الجزيرة للمسلمين لا ينازعهم فيها منازع .

الحرب البحرية - رأى ابن الاغلب ان الروم يعتمدون على البحر اكبر الاعتماد ، والنجدات ترد اليهم تباعا على متن الامواج فايقن ان القضاء النهائى على المقاومة الرومية لا يقع الا بعد القضاء على مراكز تموينهم ، وقهر الاسطول الرومى والسفن التى تعمل على انجادهم .

لذلك كانت اعمال ابى الاغلب الاولى منحصرة ضمن المنطقة البحرية ، فسير سفائنه تجوب عرض البحار المحيطة بالجزيرة ؛ ولقى هنالك اسرابا من سفن الروم فنازلها وحطم الكثير منها واستولى على عدد كثير ضمه الى عمارته ؛ واصبح للاسطول الاسلامى الصيقلى اثر هذه الوقائع سمعة ادخلت الرعب فى قلوب الاعداء .

ايام ؛ وضرب ضربا مبرحا الى ان اغمى عليه وهو صائم ، ومات رضى الله عنه شهيدا من جراء ذلك . ثم استعمل المعتصم بالله غمسين الفا من الاتراك لاجل المحافظة على العثور ، ففقدت الدولة بذلك وحدتها ، ودخل عليها العامل الذى ادى فيما بعد لهلاكها ، اذ استبد بالحكم فيها الاتراك ولم يتركوا للخليفة الا الاسم ؛ وانتشرت دولهم بعد ذلك فى كل بلاد العرب بآسيا ، كما سترى فى تعليق آخر .

ولقد اغتنم ابو الاغلب فرصة تغلبه البحرى فانزل كتائب من الجند الاسلامى تحتل اغلب الجزائر الواقعة شمال صقلية وغربها ؛ وقد كانت مكانا للروم ومراكزهم لتموينهم .

وقائع قصر يانة - فى سنة ٢٢٢ (٨٣٦ م) ، فتح القائد الفضل بن يعقوب حصن مندار Tindars تكن المسلمين بالجزيرة ما كان ليصفو لهم الجو ، وعلى يمينهم معقل كمعقل قصر يانة ، يقضى مضاجعهم ويهدد امنهم بصفة مستمرة ؛ فكانت الجهود تبذل من جانب المسلمين باستمرار لمحاولة احتلال قصر يانة ، كلفهم ذلك ما كلفهم من خزير التضحيات .

ولقد كان الروم وكانت الجموع المسيحية تعرف اهمية قصر يانة ، وتدرك قيمتها الحربية ؛ وهى اشبه ما يكون بخنجر ممتد نحو قلب المراكز الاسلامية ، وتدرك فوق ذلك قيمتها الادبية ؛ فهى تمثل رمز المقاومة المسيحية بهاتيك الديار .

هاجم المسلمون مرارا قصر يانة ؛ واخفقوا تحت جدرانها مرارا ؛ وما صدمهم الاخفاق عن موالاة الهجوم ، ولم تكن عزيمة المسلمين هنالك عزيمة الروم ؛ فمهما اشتد اولئك فى الهجوم العنيف اشتد هؤلاء فى المقاومة الباسلة ، والتقت هنالك وجهها الى وجه بطولة المسلمين وبطولة الروم ؛ وسجل الفريقان على ميدان الفروسية والشهامة صحائف فخر لا تبليها الايام . ولقد احتل المسلمون قصر يانة احتلالا موقتا له قصة طريفة سنة ٢٢٣ ذلك ان ثلثة من الجند الاسلامى كانت مرابطة تجاه المدينة لاهى تستطيع احتلالها ولا الروم يستطيعون ابعادها . وفى ليلة من الليالى كان أحد المسلمين يغامر منفردا تحت جدران المدينة يطوف حولها واذا به يجد ثغرة وليس عليها حرس من الروم ، فانطلق يعدو الى حيث معسكر المسلمين واخبرهم بالامر فتناولوا سلاحهم وانطلقوا خلفه الى حيث تلك الثغرة فاجتازوا منها الى المدينة

(١) فى منتصف هذه السنة توفى بالقيروان ملكها العظيم زيادة الله بن الاغلب الكبير بعدما

والروم فى غفلة ، وما شعر هؤلاء الا واصوات التكبير والتهليل قد تصاعدت الى عنان السماء ، وقد ملك المسلمون المدينة فانسحب الروم الى بعض البروج وتحصنوا بها ، وامن المسلمون سكان المدينة على انفسهم واموالهم ؛ ثم انسحبوا منها بعد حين ، نظرا لقلّة عددهم ولكثرة الروم المحيطين بها ، ورجعوا الى مراكزهم الاولى وعاد الروم للتحصن بها من جديد .

المسلمون فى ايطاليا الجنوبية - وفى سنة ٢٢٣ (١) حيث كانت تجرى هذه الوقائع فى داخل الارض الصقلية ؛ كانت انظار المسلمين تتجه الى ابعد من ذلك ، كانت تتجه صوب البلاد الطليانية محاولة فتحها ومهاجمة القارة الاروبية من الوسط . فان ابا الاغلب ارسل باسطوله العتيد نحو بلاد قلورية يحمل جندا مدربا ، فهزم الاسطول ما ثقيه فى طريقه من مراكب المسيحيين ونزل الجند الاسلامى فى جنوب ايطاليا حيث سجل صفحة من اغرب صفحات التاريخ لاسلامى بالارض الاروبية .

لقد كان المسلمون ينتهزون الفرص للوثوب على الارض الطليانية بصفة قوية تمكنهم من فتحها والاستقرار بها ؛ ونشر انوار المدنية الاسلامية على انقاض ظلمات القرون الوسطى .

وفى هاتيك الاثناء كانت مملكة نابولى الطليانية تحارب امارّة بينفان Bénévent جارتها ؛ وكانت هذه الامارة قد تغلبت على جند نابولى ، فارسل ملكها رسلا الى بالرمة يستنجدون ابا الاغلب ضد خصمهم ، ورأى هذا ان الفرصة سنحت للتدخل فى سياسة البلاد الطليانية فارسل فرقة من الجند الاسلامى اشتركت مع جند نابولى فى محاربة امارّة بينفان ؛ الى ان غلبت هذه الامارة ؛ ورضخت لشروط الصلح ؛ واصبح المسلمون يومئذ حلفاء لمملكة نابولى ، ورأى رجاؤ هذه الدولة ما للمسلمين من قيمة فى ميدان العلم

وطد سلطان الدولة على اسس متينة بالبريقيا وصقلية ونظم دولته فاحسن تنظيمها ، وكانت ايامه ازهر ايام الدولة الاغلبية .

والعمران ، علاوة عما كان لهم من قيمة فى ميدان الحرب والطعان ؛ فانفتحت فى وجوه الرواد المسلمين ابواب المملكة ، وكانوا يحملون معهم رايات المدنية والعلوم والفنون ؛ وكان ذلك هو حجرة الاساس فى تكوين عصر النهضة باروبا (Le Renaissance)

ولقد كان المسلمون المغاربة قد نزلوا ارض قنورية بالجنوب الطليانى سنة ٢١٩ (٨٣٤) واستولوا على مدينة طارنطة Tarente واتخذوها مركزا لأعمالهم ، ثم ارسلوا غزواتهم البحرية حتى مصب نهر بو فى شمال ايطاليا ، وانتظم ومثد امرهم بالبلاد واتخذوا مدينة بارى عاصمة لآمارتهم التابعة راسا لبلاط القيروان ، وجهزوا اسرابا برا وبحرا لفتح مدينة رومة فتمكنوا من ارباضها وبعض قلاعها ، لكنهم تخلوا عنها فى آخر الامر لخلاف شجر بينهم وانسحبوا الى امارتهم .

امارة بارى المستقلة

وفى سنة ٢٣٨ (٨٥٣) ، اثر هذا الاحفاق ، اعلن مفرج ابن سليمان عامل الاغالبية ، استقلاله بالجنوب الطليانى فى مدينة « بارى » وحارب الامارات الطليانية المحيطة بآمارته فدحرها ووسع املاكه ، واتخذ من مملكة نابولى حليفا وفيا ، وكانت مراكبه قوية جريئة دحرت اسطول الروم القادم لاسترجاع البلاد واضطرته للرجوع على اعقابيه ، ثم احتل مدينة اوترنت Otrente ومدينة كاليارى Corigliari ووضع بهما جاليات اسلامية ؛ ونصب الحصار على مدينة قابو Capoue انما لم يتمكن من احتلالها وهكذا دانت لآمارة مفرج بن سليمان حول مدينة بارى كامل البلاد الطليانية الجنوبية (١) .

فتح مسينا - كان الروم قد استرجعوا مسينا من يد المسلمين ، وكانت هذه المدينة همزة الوصل بين صقلية وايطاليا ، فتمكن الروم من البقاء بها معناه انقطاع الصلة بين شطرى التواجهة الاسلامية ، لذلك سار

(١) انظر الفصل : استطراد عن اعمال المسلمين بجنوب ايطاليا ، فيما يلى .

القائد الفضل بن جعفر على رأس جند عنيد ، فحاصر مسينا وثبتت امامه ثباتا عجيبا ؛ وكان يقاتلها من جهة البحر ، فارسل فرقة من جنده هاجمتها على غفلة من ورائها من جهة الجبال ، فتمكن منها واحتلت معاقلها ، فاستسلم مقاتلوها وطلبوا الامان فامنوا .

فتح لسي - سار الفضل بن جعفر اثر ذلك قاصدا مدينة لسي ، وكانت حصينة متينة التحصين انما كانت حاميتها قليلة العدد ؛ فعندما رأى اهلها قدوم الجند الاسلامي استصرخوا بطريق قصر يانة طالبين منه النجدة فراسلهم يقول انه منجدهم بمدد وانهم متى رأوا نارا او قدت على الجبل المشرف على المدينة فعليهم ان يفتحوا بابها في وجه النجدة القادمة لنصرتهم .

هل وقع الرسول والرسالة في يد القائد الفضل بن جعفر ، ام كانت له عيون اخبرته بذلك النبا ؟ الامر المحقق هو انه علم جلية الخبر ، فاعد جنده ليلا واوقد على الجبل نارا ، ففتح اهل المعقل ابواب حصنهم وخرجوا لملاقات النجدة فما راعهم الا والجند الاسلامي يهاجمهم من كل جهة ويقتحم عليهم الابواب ويستولي على المدينة وعلى حصونها ؛ وكان ذلك سنة ٢٣٢ (٨٤٦ م) (١) .

واستمر الامير المعظم ابو الاغلب ابراهيم يدير امارته بهمة عالية ويوالي اعماله بين قطبي السيف والقلم الى ان توفاه الله سنة ٢٣٦ ؛ وقد كان شهيدا كريما جوادا وهو ابن اخي الملك زيادة الله ؛ وقد قص علينا ابن الخطيب في كتابه اعمال الاعلام قصة ترينا مثالا من جهوده وشهامته ، قال :

« يحكى من اخبار كرمه انه اشرف يوما من دار الامارة فرأى امرأة قد هيات فرخين ونظفتها وطبختها طبخا محكما ؛ فلما انزلت القدر وقد ادركت

(١) انتهت ببغداد فتنة القول بخلق القرآن ، وقد رأى الخليفة الواثق بالله في آخر ايامه ان هذه البدعة لم تلق اى نجاح وانها اوقعت العداوة والبغضاء بين المسلمين ؛ وقد انتهت الفتنة على يد الشيخ ابي عبد الرحمان الاسدي ؛ شيخ ابي داود والكسائي ؛ اتر مجلس مناظرة شهير . وان الواثق قد بيض صفحة تاريخه بترك القول القرآن فقد سودها بوضعه في بغداد الى جانب الخليفة ؛ سلطانا من الترك البسه بيده التاج وجعل له الحكم المطلق ؛ فنسف بذلك سلطة بني العباس . بل نسف سلطان العرب الى قرون عديدة ، بصفة فعلية ، وكان الواثق اعلم

دعا بعض فتيانہ واره الدار وقال اذهب فاجعل القدر فى قفة وجثنى بها ،
ففعلى واكل منها • ثم امر بغسل القدر فغسلت ؛ وامر بكيس دنانير ففرغ فى
القدر حتى امتلات • وقال للغلام امض بها فاجعلها فى يد المرأة ولا تقل لها
شيئا ففعلى واراوت المرأة ان تطبخ بها شيئا آخر فكشفتها فاذا هى مملوءة
دنانير •

العباس بن الفضل بن يعقوب بن فزارة

ويعرف بابن بربر

كان فى صقلية عين الاعيان ، وكانت له الصدارة والامارة والمقام الاول
اثناء ولاية الامير السالف الذكر ، اى الاغلب ابراهيم •

فما كاد هذا الراحل الكريم ينتقل الى جوار ربه ، حتى اجمع اهل صقلية
امرهم على توليته الامارة ؛ وبايعوه على السمع والطاعة ، وارسلوا وفدا منهم
الى القيروان يطلب الى اميرها محمد بن الاغلب المصادقة على ذلك الاختيار .
ونال الوفد مرغوبه فرجع الى العباس بن الفضل بعهد الامير الاغلبى على ولاية
صقلية •

فتح قصر يانة - كانت همة العباس متوجهة لانجاز الفتح ، واستخلاص
البقية الباقية من جزيرة صقلية بايدى الروم والمسيحيين ؛ وهيهات ان يتم
ذلك ما دام هؤلاء يعتزون بصياصيتهم فى قصر يانة ، ويتحدون من تلك الاعالى
سلطان المسلمين •

كانت قصر يانة ميدان حرب وجلاد منذ عشرات السنين ، وكان الله كتب
للمسلمين ان يفتحوها نهائيا كما فتحوها اول مرة بواسطة التسلى من تغرة

الحلفاء بالخناء ؛ وقد وضع نحو المائة موت وله الف ابو الفرج الاصفهاني كتابه الشهير « الاغانى » .
فهذا الانغماس فى الترف والرفاهية وحياة النعيم فى القصور ، بين الجوارى وكؤوس النبيذ
وآلات الطرب ، ووضع اللحن ، كان من اعظم اسباب انهيار الدولة العربية ؛ وقيام الدولة
التركية على انقاضها ، فى كل ربوع الشرق .

الى داخلها ؛ واليك البيان :

قبضت سرية من سرايا المسلمين عددا من الاسرى ، ورات ضرب اعناقهم ، فقال احدهم وقد تولاه الجبن واستولى على نفسه الصغار : استبقونى وان لاميركم عندى نصيحة تمكنكم من فتح المدينة ؛ فساروا به الى العباس فاستفسره عن جليلة الامر ، وكانت النتيجة ان الحائن اخذ الامان لنفسه وآله وذويه مقابل السير مع الجند الاسلامى ليريه طريقا سرىا يمكن منه ولوج المدينة دون انتهاه الحراس .

بادر العباس بارسال كتيبة من المقاومة ، تحت امرة عمه ، والعليج الحائن يدلهم على الطريق ، حتى اوصلهم الى قناة يخرج منها ماء المدينة ، فاجتازوا تلك القناة حتى اصبحوا داخل المدينة ، ثم انشؤا الى الابواب فاعملوا السيوف فى رقاب الحراس ؛ وكانت جموع الجند الاسلامى مستعدة للحملة من الخارج ، ففتحت الابواب ودخلها المسلمون ، وراى المدافعون عن المدينة ان المقاومة اصبحت لا تجدى نفعا فاستسلموا للاسر ، والقوا بالسلاح بين ايدي الغائبين ، وكان ذلك فى منتصف شوال سنة ٢٤٤ (٨٥٨) ؛ وجاء العباس بنفسه الى قصر يانة فاسكن بها المسلمين وامر ببناء مسجدها ، وحضر افتتاحه وادى به فريضة الجمعة .

محاولة فتح رومة - راي العباس من توافر القوة بين يديه ، واجتماع الناس عليه أن الفرصة قد سنحت لضرب المسيحية الضريبة الحاسمة وانجاز العمل الذى فشل فيه المسلمون منذ سنة ، الا وهو فتح رومة .

ففى سنة ٢٣٩ ؛ جهز العباس اسطولا ضخما يحمل جندا عتيذا وسيره لانجاز ذلك العمل فنزل الجند الاسلامى عند مصب نهر التيبر ؛ واحتل

وكان السائق اعلم الخلفاء بالفناء ؛ وقد وضع نحو المائة صوت وله الف ابو الفرج الاصفهاني كتابه الشهير « الاغاني » . فهذا الانغماس فى الترف والرفاهية وحياة النعيم فى التصور ، بين الجوارى وكؤوس النبيذ وآلات الطرب ، ووضع اللسان ، كان من اعظم اسباب انهيار الدولة العربية ؛ وقيام الدول التركية على انقاضها ، فى كل ربوع الشرق .

مدينة اوستى واخذ يستعد للهجوم النهائى .

الا ان المسيحية التى شاهدت الخطر منذ سنة ؛ وايقنت ان المسلمين سيعيدون الكرة لا محالة ؛ كانت مستعدة لتلقى الصدمة وكان الاسطول المسيحى قويا عتيذا ؛ فما كاد المسلمون يباشرون هجومهم حتى بدت فى الافق طلائع اسطول العدو وعلمت قيادة المسلمين انها لا تستطيع ان تقهر الاسطول وترده على اعقابها ؛ وانها لا تنجو من كارثة وبيلة الا بالانسحاب السريع ، فالقت امرها الى الجند الاسلامى بالرجوع الى مراكبه واستطاعت بمهارة بغيرية النجاة من العدو المحدث بها اذ تسللت من بين مراكبه فلم يستطع ان ينالها بسوء واخفقت الحملة على رومة مرة اخرى .

محاولة فتح كريت - سار الاسطول الاسلامى تحت امره اخى العباس يؤم سواحل المتوسط الشرقى ، لبسط سلطانه على انقاض سلطان القسطنطينية وليفتك امنها سيادة البحر .

حط الاسطول مراسيه حوالى جزيرة اقريطش وناوشها القتال ، فكانت قوية على الدفاع وكانت مستعدة لتلقى الصدمة ؛ فاكتفى الاسطول الاسلامى الصقى بضربات اصاب بها اسطول العدو ، ورجع لصقلية عائدا بغنائم واسلاب .

انهزام الروم فى البحر - كان لانتصار المسلمين بقصر يانة واندفاعهم الجريئى فى غمار البحر المتوسط اثر عظيم فى نفوس الروم ؛ وقد علمت القسطنطينية انها ان لم تقض على هذه الدولة الناشئة فى صقلية فان نفوذها سيتقلص نهائيا عن حوض البحر المتوسط الغربى ؛ لذلك جهز الروم

(١) نوع من السفن النقاله يدعى بالفرنسية Chaland وقد استعمل العرب هذه الكلمة وجاءت بلفظها فى كتب التاريخ كابن خلدون وابن الاثير وغيرهما .

اسطولا يجمع ثلاثمائة شلندى (١) يحمل نجدات قوية ، وارسلت به مددا لمدينة سرقوسة ، ليحميها من غارات المسلمين ؛ وليمكن الروم من اعادة الكرة واسترجاع البلاد .

لكن سيادة البحر كانت قد انتقلت نهائيا من ايدى المسيحيين الى ايدى المسلمين ؛ وكان العباس ورجال البحر بالمرصاد ، فصمد الاسطول الاسلامى لاسطول الروم وابدى كل من الفريقين اقصى ما لديه من مهارة المناورة ، وانتهت المعركة بنصر اسلامى مبين ؛ اذ استولى المسلمون على مائة من مراكب الاعداء ، ولاذ الباقيون بالفرار راجعين الى بلاد الروم . ويقول ابن الاثير ومن نقل عنه من المؤرخين ان ذلك النصر العظيم لم يكلف المسلمين من الخسارة الا ثلاثة رجال فقط اصابوا بالنشاب ؛ على اننى لاحظ ان فى هذا الخبر مبالغة لا تخفى على بصير ، اذ لا يعقل ان معركة بحرية تسفر عن اسر مائة سفينة وانهزام مائتين آخرين لا يخسر المنتصرون فيها الا ثلاثة من الشهداء .

بعد هذا النصر العظيم عزم العباس فتح سرقوسة وتحطيم آخر امل للروم فى البلاد ، فسار اليها على رأس الجند الاسلامى ؛ لكن المرض اعتراه وهو على مقربة من المدينة ؛ فاسلم روحه لبارئها فى ذى الحجة من سنة ٢٤٧ (٨٦١ م) (١) وانطوت بموته صفحة من اجمل وازهر صفحات الجهاد فى سبيل اتوسع والنور والمدنية ؛ ودفن بموقع استشهاده ، فنبش الروم قبره واخرجوا جثته واحرقوها نشفيا وانتقاما .

عبد الله بن العباس بن الفضل

اجمع المسلمون امرهم يومئذ على تولية ابنه عبد الله ، كما اجمعوا من

(١) فى هذه السنة قتل فى بغداد المتوكل على الله ؛ قتله قائد الترك (بضا) مع وزيره الفتح ابن خافان (غير صاحب كتاب قلائد العقيان) ؛ وقد اصبح الترك يومئذ اصحاب القول المطلق فى بغداد . وتولى بعده المنتصر بالله ؛ فكان كما قيل فيه :

خليعة فى قصص بين بغي و (بضا)
يقول ما قالوا له كما تقول البيضاء

قبل امرهم على تولية العباس مكان ابيه ؛ فاستلم عبد الله زمام الحكم من يد الامة وقد كان فى حياة ابيه العظيم معاوناً له فى حروبه واداراته . وأخذ يستعد لأخضاع سرقوسة وينازل قلاع الاعداء .

على ان الوفد الذى سار الى القيروان يطلب من اميرها المصادقة على تولية عبد الله الامارة مكان ابيه لم يلق بها النجاح الذى من قبل وفد الصقليين عندما طلب المصادقة على تسمية العباس بن الفضل

ذلك ان بلاط القيروان ادرك مقصد الصقليين ، وعلم انهم ارادوا هنالك الاستقلال بامرهم تحت اماراة عائلة ابن الفضل ، يتوارثونها خلفاً عن سلف وبذلك تتقلص سلطة القيروان شيئاً فشيئاً ؛ فامتنع عن المصادقة ، واصدر امره لعبد الله بترك السولاية ، بعد ان شغل مركزها السامى خمسة اشهر ، سائراً فيها سيرة ابيه وجده ، موالياً للجهاد ، ساهراً على امور الرعية فصديق بالامر عن غير مضى ، واصبح اكبر انصار الولى الجديد .

خفاجة بن سفيان

قدم الى صقلية فى جمادى الاولى من سنة ٢٤٨ (٨٦٢ م) ، وكان شهياً على الهمة طويل الباع فى السياسة وفى الحرب ؛ واتخذ لنفسه من ابنه محمد ، والولد نسخة من ابيه ، عضداً متيناً يخضع به شوكة الاعداء ويدير بواسطته سيااسة الملك .

ابتدأ اعماله الحربية فى الناحية التى بقيت بيد المسيحيين فى شرق الجزيرة ؛ باحتلال مدينة نوطس (نوتو) مضيقاً بذلك الحصار على مدينة سرقوسة التى كانت رافعة علم المقاومة بتلك الديار ، وكانت آمال الروم وآمال سائر المسيحيين فى استرجاع الجزيرة الصقلية معلقة عليها .

المراة فى السياسة - لم تقم المراة المسلمة بدور مباشر كبير فى السياسة العامة ، وكانت قصارى جهودها من تلك الناحية هى بسط السلطان على قصور الامراء والوزراء والقواد ، والاستحواذ بتلك الصفة على النفوذ

المطلق وتوجيه السياسة العامة حسب ما يترأى لها من مصلحة خاصة او نفع عام ؛ على ان التاريخ ضنين بسر هاتيك الحوادث الا ما ذاع واشتهر منها .
تكن من نوادر المسلمين فى جزيرة صقلية ان امرأة مسلمة شاركت بصفة فعلية فى عمل سياسى كبير ، وارسلت فى سفارة ومهمة شاقة .

كان أهل طرميس يوالون القتال ضد المسلمين ، وكانت معاقلمهم من امنع المعاقل واشدها مراسا . ولقد حاول المسلمون مرارا أن يدكوا اسس هاتيك الصياصى فما استطاعوا لذلك سبيلا . واخيرا أظهر المسيحيون هنالك جنوحا للمسالمة والتسليم ، وارسلوا الى خفاجة يطلبون اليه ارسال وفد يفاوضهم ويضع معهم شروط الاستسلام فارسل اليهم امراته واحد ابناؤه . ولا ريب ان امرأة مثل هذه المرأة تسير بمثل هذه المهمة اقتخرق صياصى الاعداء ومعاقلمهم وتفاوضهم فى عقر دارهم تطلب اليهم الاذعان والاستسلام لهى من مفاخر الجنس اللطيف وهى من كرائم السيدات المسلمات اللاتى يجب ان يحفظ التاريخ ذكرهن العاطر الحسن . وهى مع ذلك عنوان ازدهار المدنية ، وبلوغها اوج القمة ، ودليل قاطع على ما احرزته السيدة المسلمة من قيمة عليا فى المجتمع الزاهر تحت الراية الاغلبية بافريقيا او بصقلية .

نجحت السفارة نجاحا كبيرا . وكان القوم قد تأثروا بذلك المعنى البديع اللطيف الذى احتوى عليه ارسال سيدة جبلت على الخير والاحسان والعطف ، فلبوا دعوتها واذعنوا لامرها ، وسلموا مفاتيح المدينة لها فدخلها المسلمون صلحا .

لكن قضى الله ان تهلك المدينة على يد اشرارها . فنقضوا العهد بعد ميثاقه وثاروا بالمسلمين على حين غفلة فاخرجوهم غدرا وارصدوا دونهم الابواب ونكلوا بمن بقى منهم داخل الجدران ثم اعتصموا بالقلاع .

راى خفاجة يومئذ ان السكوت على مثل هذه الخديعة يعد ضعفا وهوانا . وانه ان ترك الامر بدون انتقام فهو يوشك ان يتخذ القوم نموذجا للانتقاض فى كل مكان ، فارسل ابنه المجاهد محمد ، على راس كتيبة من المسلمين

شديدة المراس ، فاحتل المدينة قسرا وسبى اهلها ؛ والفتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة .

مقاومة سرقوسة - كانت سرقوسة كما اسلفنا قوتية منيعة ؛ وكانت محط آمال المسيحية بتلك الديار ؛ وكانت القسطنطينية توالى انجادهها بالمدد رغم ما اصابها في ذلك الطريق من نكبات بحرية ؛ فاتجهت همه الامير خفاجة لقهر سرقوسة واخماد جذوة المقاومة فيها فرماها بفلذة كبده محمد ؛ على رأس جند قوى ، واشتعلت بين الفريقين نار حرب عنيفة استبسل فيها المدافعون استبسالاً سجل لهم صفحة من العزة والمجد .

وكانت الوقائع تترى عنيفة دامية ، منها وقعة الالف فارس الشهيرة سنة ٢٥١ (٨٦٥ م) وتفصيلها ان الامير محمدا هاجم المدينة بعنف ، ثم اظهر الارتداد خدعة حربية ، وشراكا نصبه للمدافعين عنها فوقعوا فيه ، وخرجوا من معاقلمهم يتتبعون الجند الاسلامى الذى اظهر الانهزام ؛ وكان الكمين الاسلامى يكتنف الطرق ، فباشارة من القيادة انقض المسلمون من مكائهم على الاعداء المتتبعين فاطبقوا عليهم واسفرت المعركة عن قتل الف فارس من الروم .

وفى سنة ٢٥٤ (٨٦٨ م) ، سار محمد بقوته بحرا لمنازلة سرقوسة . كما كانت قوته البرية تضيق عليها الحناق ، فالتقى فى مياه المدينة بعمارة كبيرة ارسبل بها امبراطور الروم نجدة للمحصورين ، وكان الاسطول الاسلامى الصقلى قد تعود قهر اسطول الروم حيثما ثقفه ، فاختلطت صوارى المسلمين بصوارى النصارى والتحمت نيران المعركة البحرية ، فاسفرت عن انهزام الروم ، وتركهم لاغلب سلاحهم ومتاعهم بايذى المسلمين ، وفرت المراكب السليمة راجعة على اعقابها خاسرة .

وهكذا فت فى عضد الدفاع السرقوسى بحرا كما فت فى عضده برا ؛ واصبحت المدينة لا تستطيع الثبات فى الميدان طويلا . لكنها صممت بصفة بطولية على الدفاع الى آخر رمق ، ولم يكتب الله فتحها على يد خفاجة وابنه محمد .

حادثة طبرمين - كانت هذه المدينة من جملة قلاع النصارى التى صعب على المسلمين فتحها بالقوة ، فكانت المناوشات تتوالى حولها ، وكان دفاعها دفاع المستميت .

جاء الامير محمد ، وصمم على فتحها ، فاصطنع رجلا من اهلها اعماء حب المال والجاه عن حب الوطن والتضحية فى سبيله ، فخان امته واصبح دليلا للمسلمين ، يسير بهم فى معابر سرية اوصلتهم الى داخل المدينة والتحمت نيران المعركة هنالك .

راى المسلمون ان الامير محمدا لم يدخل المدينة ولم يكن الى جانبهم فاعتقدوا انه قد حيل بينه وبين الدخول وانهم اصبحوا مهددين بالحصر فانهزموا ورجعوا من حيث اتوا ، وكانت الفرقة التى يقودها الامير محمد بنفسه قادمة حينئذ لنجدة الذين دخلوا ، فلما راتهم خارجين اعتقدت انهم غلبوا على امرهم فتوقفت عن السير . واثناء ذلك الارتباك ، وقبل ان يكلم الفريقان المسلمان ان فى الامر غلطة يسيرة ، كان اهل المدينة قد تخلصوا من المسلمين فاوصلوا ابوابهم واعتصموا بأسوارهم ، وخابت المحاولة بعد نجاح .

فتح مالطة - كانت جزيرة مالطة معقلا من معاقل الروم فى البحر المتوسط استولوا عليه سنة ٥٣٣ ، واصبحت حلقة وصل بين ممتلكاتهم فى الشرق ومطامعهم فى الغرب .

والجزيرة تمسح ٢٥٠ كيلومترا مربعا ، جيدة الهواء خصبة الارض طيبة المناخ واهلها من اصل سامى كنعانى لا ريب فيه ؛ لغتهم منذ القدم عربية محرفة وقد طبعهم الاحتلال القرطاجنى الطويل بطابع خاص دام معهم الى يومنا هذا .

(١) فى هذه السنة تولى الامير احمد بن طولون امر مصر ، وطولون كان مملوكا تركستانيا اسر ضمن معركة ، فاعجب به الخليفة المأمون ، وجعله من خاصته ورئيس حرسه ، وعندما ولي احمد امر مصر وكان اعلم الناس بضعف دولة بنى العباسى ؛ وراى حالة مصر من جراء اضطراب الولاة وهوجهم ؛ اعلن استقلاله فى البلاد ومنع الحجاج عن بنى العباس ؛ واستمررت دولته ٣٥ سنة الى ان اعاد العباسيون فتح مصر من جديد ؛ ومن مآثره مسجد ابن طولون العظيم .

فالامير خفاجة رأى انه لا يتمكن من ابعاد الروم نهائيا عن صقلية وفتح آمالهم منها وقهر سرقوسة الا باخضاع مالطة لسلطانها ، ومالك مالطة منذ قديم الازمان مهيمن على البحر المتوسط بأسره .

سار الامير محمد على راس اسطول عتيد وحند عتيد ، فنزل مالطة ٢٥٦ (٨٦٩ م) (١) ، واتسم استيلاءه عليها تلك السنة ، بعد ان دحر مقاومة الاسطول الرومى ومقاومة الحامية اثرومية ، ووجد المسلمون الافارقة والصقليون انفسهم هنالك بين قوم كادوا يكونون من اهلهم وذويهم ؛ واستمر سلطان المسلمين هنالك تابعا لآمارة صقلية ، مائتين وعشرين عاما (٨٧٠ - ١٠٩٠) الى ان استخلصها منهم غزات الترمان عندما دحروا آخر مقاومة اسلامية فى جزيرة صقلية .

وفى السنة الموالية ، اى سنة ٢٥٧ ارسل الامبراطور الرومى اسطولا ضخما يحاول به استرجاع مالطة ، وقد ادرك مدى الكارثة التى اصابته الروم بفقدائها ، فجاء الاسطول الرومى يتباهى بقوته ومنعته ونصب حول الجزيرة حصارا ، واخذ يستعد لانزال جنده يرفع فوقها اديمها علم القسطنطينية .

حينئذ جمع الاسطول الاسلامى الصقلي رجاله وسفنه وسار نجدة الى جزيرة مالطة ؛ ولقد علم الروم من قبل انهم مالقوا اسطولا لمسلمي صقلية الا وارتدوا امامه خاسرين ، وقد القى ذلك الاسطول الاسلامى الرعب فى قلوبهم واصبح منظره يكفى لهزم اعدائه قبل استعمال ناره واسلحته ؛ وهكذا كان . فانه لم يكده اسطول الروم يرى مراكب المسلمين قادمة نحوه ، حتى نشر شراعاته واعمل مجاذيفه ، ولاذ بالفرار نحو الشرق . وصفا حكم مالطة لامراء المسلمين .

محمد بن خفاجة

اثناء هذه المعارك وهذا الفوز المبين كان الامير خفاجة يسير مع جنده

واتباعه فى طريق سرقوسة فاغتاله غدرا احد الجند . ولا ندرى ان كان ذلك نتيجة مؤامرة او عمل انتقام ، او دسيسة من الاعداء ، فقضى نحبه رحمه الله بعد ولاية دامت سبعة اعوام كلها عمل وجهاد فى سبيل الاسلام والمعرفة والمدنية .

اتفق المسلمون يومئذ واجمعوا امرهم على تولية ابنه الامير محمد مكانه ولقد كان القائم بأعباء الجهاد الى جانب ابيه . وسار وفد الى القيروان يطلب الى الملك الاغلبى محمد بن احمد المصادقة على تلك الولاية فلبى الطلب واصدر امره باسناد امارة صقلية الى محمد بن خفاجة لانجاز ما كان قائما به من جلائل الاعمال .

وقد اولاه المسلمون امرهم فى رجب سنة ٢٥٥ ووردت اليه الحلعة والعهد من القيروان يوم السبت لست بقين من رمضان من تلك السنة (٨٦٨) . وقد كان الامير رحمه الله يوالى استعدادده ويجهز المسلمين للقضاء على ما بقى من صقلية بايدى الروم وخاصة مدينة سرقوسة التى كانت مطمح انظاره .

لكن مقتل الامير خفاجة كان قد احدث صدعا عظيما فى صفوف المسلمين، ونشأت عنه ارتباكات عظيمة جعلت جهود الامير متوجهة لاقرار السلم وتمهيد الراحة بدل التوجه بكليته لانجاز الفتح . وما كادت تنقضى سنتان على ولايته حتى اغتاله نهارا ثلاثة من خدمه فى رجب سنة ٢٥٧ . ولقد انفتحت بمقتل الشهيدين خفاجة وابنه محمد ابواب فتنة عمياء اصبحت فى الجزيرة داء عمياء كان اكبر اسباب انهيارها .

احمد بن عمر يحيى

وهو من رجالات العائيلة الاغلبية . اولاه الامير ابراهيم بن احمد بن الاغلب امر صقلية ، فكان اول همه اقرار الامن وارجاع الطمانينة الى النفوس وازالة ما أحدثه مقتل الأميرين محمد وأبيه خفاجة من جزع ومن ارتباك ، ومن

تشتتت شمل .

لا ريب ان الامير احمد قد لقي نجاحا كبيرا فى مهمته تلك فلم يسجل التاريخ فى ايامه ارتباكا او اضطرابا ؛ وعاد الى سياسة الغزو والفتح ، جامعا بذلك كلمة المسلمين حول راية الله .

ذهب فى صائفة تلك السنة غازيا نحو سرقوسة فائخن فى الروم ، انما لم يستطع فتح المدينة ، ولا نصب الحصار بصفة ضيقة حولها فاكفى بما غنمه من اطرافها ورجع الى قصر حكمه فى بالرمة .

ثم خرج بنفسه فى غزوة على رأس المسلمين ، فلقى جندا من فرسان العدو عند مكان يدعو ابن الخطيب « قلعة نصر » وكان اولئك انفرسان قد انقضوا فى بعض الجهات على المسلمين وغنموا منهم مغانم كثيرة ؛ فالتحم احمد ومن معه فى القتال مع الجند المسيحي ، فنكل به تنكيلا ، وانتزع من بين ايديه جميع ما غنمه من المسلمين ورجع الى بالرمة بالاسلاب والغنائم والاسرى ورؤوس القتلى لتعرض على الملا .

ثم جاءه من القيروان ، امر ابراهيم بن احمد بن الاغلب بعزله عن الامارة فاعتزلها ؛ وكان بذلك ابتداء عهد اضطراب جديد لم يكن مصدره صقلية نفسها بل كان مصدره عاصمة دولة القيروان ؛ اذ كان البلاط الاغلبى يقاسى يومئذ ازمة عنيفة ، وقد تولى عرش الملك ابراهيم الأنف الذكر ، وهو جبار عنيد طاغية شديد كان مصابا بنوع من الهستيريا الدموية ، يعيش تحت رحمة ماليخوليا مستمرة ؛ وسياتيك فيما يلى شىء من اعماله الغريبة ، فلا غرو ان تسربت الى المملكة قاصيها ودانيها عوامل الشقاق والافتراق ، واخذ الصيادون فى المياه العكرة يعملون اعمالهم وينصبون حبالهم ، واصبحت اماره صقلية خلال تلك الايام النحسة كرة تتلقفها الايدى وتتلاعب بها الغايات .

جعفر بن محمد بن بربر

ارسله ابراهيم بن الاغلب واليا مكان احمد بن عمر ؛ واستقر به المقام

فى بالرمة ، واخذ يعيد النظام لبلاد تسربت اليها الفوضى واخذت تعمل بها عوامل الانحلال ، من جراء الانقسامات ، واحياء الخلافات العنصرية والقبلية . فى هاتيك الاثناء ، كان الارتباك كما اسلفنا سائدا فى بلاد القيروان ، وكان ابراهيم الطاغية يقاسى ازمة عنيفة فى داخل نفسه وفى بلاطه وبين آله وذويه ، وكأنه قد آنس من عائلته ميلا للتخلص منه ، فلقى القبض على عمه الاغلب بن محمد واخيه الاغلب ابن احمد وابن اخيه احمد بن ابى عبد الله ؛ ووجههم الى سقلية مبعدين فحبسوا فى دار الامارة عند جعفر بن محمد . ولقد كان احمد بن ابى عبد الله اكثر الاغالبية المحبوسين مكرا ودهاء ، واقدمهم على الاندفاع فى طريق المغامرة ، فصانع هو ومن معه من رجال العائلة غلمانا للامير جعفر ، واطمعوهم بالمال والجاه ان هم قتلوه ، فترصدوا له حتى اذا كان خارجا للصلاة وثبوا عليه واسقطوه تحت ضرباتهم الفتاكة ؛ واستولى احمد بن ابى عبد الله على كرسي الحكم ، مصطنعا للرجال ، متغلبا على الامر .

احمد بن ابى عبد الله الاغلبى

ويلقب فى عائلته باسم « خرج الرعونة » ولقد كان مقبدا ، وسجل اسمه على صفحات التاريخ الصقلى ، رغم سفالة الوسيلة التى توصل بها الى الحكم ، وكانت له فى الجهاد وانجاز الفتح اعمال باهرة .

فتح سرقوسة - اتم تجهيز الجند الاسلامى ؛ وسار على رأسه نحو مدينة سرقوسة ، وقد عقد العزم على اقتكاكها كلفه ذلك ما كلفه ، وكانت سرقوسة بعد ان قاومت جيوش المسلمين نصف قرن ونيف ، قد ضعفت تحت الضربات الفتاكة التى كملت لها من لدن الامراء انصارين ، وعلى الاخص الامير خفاجة وابنه محمد ، وكان الروم قد وضعوا شرفهم العسكرى بين جدران تلك المدينة ، فكانوا يوالون ارسال النجيدات والمسدد . وما باعوا بانكسار وانهمزم لهم اسطول الا واعادوا الكرة وارسلوا اسطولا آخر مما يعيد

الى اذهابنا جهود قرطاجنة الجبارة التي ضاعَت سدى في تلك الجزيرة .

سار أحمد بن الاغلب بقوته العتيدة فخيم حول المدينة وحاصرها وضيق عليها الحناق . وعلم اهلها ان الساعة الاخيرة قد دنت ، فقاموا للدفاع البائس المستميت يتفانون في الذود عن مدينة كانت في انظارهم تمثل الوطن ، وتمثل الدين ، وتمثل الذكريات القديمة من عهد ارخميدس وما قبله ؛ ويا لله ! ما اروع البطولة وما اجمل ذكراها ايا كان مصدرها وأنى كان القائمون بها !

استمر الحصار تسعة اشهر من اوائل المحرم الحرام الى أواخر رمضان سنة ٢٦٤ (٨٧٧) (١) ، ثم دهمها بخيله ورجله ورفع المسلمون عميرتهم بندايمهم الحربى الذى يسمو بهم الى عالم الارواح فى المثلأ الأعلى : الله أكبر : والتحمت نيران معركة ربما كانت اكبر معارك صقلية وأكثرها هولا : فما انتهت الا بعد ان دكت الأسوار ، وسقطت القلاع ، وجندل من الإبطال المدافعين ما يزيد على الأربعة آلاف كميته ، وركب الباقيون اتبحر مغامرين فسرارا من الاسر والذل ، ودخل المسلمون المدينة مهللين مكبرين ؛ قال ابن الخطيب فى اعمال الاعلام : « وأصاب فيها من الغنائم ما لا يوجد فى مدينة من مدن الشرك » .

بهذا النصر الباهر ، لم يبق للمسيحيين بصقلية الا الناحية الشرقية ، فى شريط من الارض يمتد من شمال طبرمين الى جنوب قطانية يحتمون فيه وراء جبال الاتنا (جبل النار) ويستمدون فيه الاعانة مما يرد عليهم بحرا من بلاد الروم .

(١) فى هذه السنة ، استقر الاتراك فى بلاد الصين ، وتدخلوا فى شؤونها وتوطد سلطانهم فى كثير من الجهات التى هى الى يومنا موطن المسلمين الصينيين وذلك أن همامرا صينيا (هوآن تشاو) أعلن الثورة ، وتمكن من اغلب البلاد ، من بكين الى كنفون ، فاستعان امبراطور الصين ، بخان الترك اليسع ينج فانجده بقوة كبيرة ، مهدت أمر البلاد ، ودحرت النائر ؛ واستلم الخان التركى ، مكافأة له على اعانتته للامبراطور ، مقاطعة شانسى . واخذ ابن عمه ، مقاطعة لوئان ونشأت هنالك امارات تركية ، طبعت البلاد بطابعها الى يومنا هذا ؛ حيث المسلمون يمثلون اغلبيية سكان البلاد ، ومنهم بقايا الترك ، ومن اسلم تبعا لهم من الصينيين .

وكانت هنالك مراكز للمقاومة المسيحية بالشمال الغربى من الجزيرة حول مدينتى طرابنة ومرسلا . وقد اهل المسلمون شأنها ، ولم يعيروها كبير اهمية ، وجهين اكثر عنايتهم للناحية الشرقية . فلما فتحوا سرقوسة وجهوا أنظارهم نحو الناحية الغربية كما سيمر بك فيما بعد .

اقام احمد بن الاغلب بسرقوسة شهرين ، ثم كتب اليه عمه الاغلب يشير عليه بتهديمها ، كما امر حسان بن انتعمان من قبل بتهديم ما بقى من قرطاجنة، حتى ينقطع آخر اهل اللروم بتلك الديار ولا يجدوا معقلا ياروهم ان حاولوا النزول للبر ؛ ثم رجع لبارمة لكن مقامه لم يطل هنالك اكثر من شهرين ، وما اغنى عنه انتصاره بسرقوسة شيئا ، فان اهل بالرمة اعنى كبار اقوام واصحاب الحل والعقد بها راوا من اختلال الادارة على يد احمد وعمه الاغلب ومن معها ما جعلهم يقبضون عليهما ، ويرسلون بهما مصفدين الى القيروان ، وماذا كان ينتظرهما هنالك على يد النمر المتعطش للدماء ابراهيم بن الاغلب ، غير السيف والنطع ؟

اضطراب الامر

اضطراب امر الولاية بصقلية اثر هذه الحوادث اضطرابا غريبا ، فكان ابراهيم بن الاغلب يولى ويعزل حسب اهوائه وشهواته ، او حسبما تمليه عليه مصلحة الدولة ، وكان اهل صقلية منذ مقتل خفاجة ، قد انفوا نوعا من الفوضى ، واصبحوا يريدون التحكم فى الولاية ويريدون ان يسير اولئك الولاة حسب اهوائهم واغراضهم ؛ وكان الولاة لا يستطيعون فى الغالب التوفيق بين رغائب اهل صقلية ورغائب بلاط القيروان وتنفيذ آرائهم الخاصة ، فانبعض منهم كان يثور به الضنقليون فيرجعون الى القيروان ؛ والبعض الآخر كان يعزله ابراهيم ويرسل غيره مكانه ؛ والحق ان بنيان الدولة الاغلبية كان قريبا من الانهيار ، وكانت سياسة ابراهيم الثانى قد اصابت الدولة فى مقاتلتها ، فاستمر امرها يسير الى الضعف والانحلال حتى الموت رغم ما كان يبدو عليها بين حين وآخر

من وثبات فى سبيل الحياة هى اشبه شىء برجفة المحتضر .

الحسن بن رباح

من اجدر هؤلاء الولاة بالذكر ، الحسين بن رباح ، فانه تمكن من جمع الجند وتوحيد الكلمة الى حين ، ونازل مدينة طبرمين ، رائما بذلك القضاء على الناحية الشرقية الرومية ، فاثخن فى اهل المدينة وقتل البطريق الرومى الذى كان يحكمها ويقود حاميتها .

تكبة بحرية - ولقد سرى داء الانحلال فى الجسم الاسلامى بصقلية ، فضعفت النفوس ، وكادت تخبو جمرة الايمان ، وفقد رجال البحر قوتهم الروحىة التى كانت اساس انتصارهم ومبعث الرعب فى قلوب اعدائهم ؛ وكانت نتيجة ذلك ان منى الاسطول الاسلامى بصقلية بنكبة كانت وحيدة فى بابها .

ذلك ان الحسين بن رباح سير اسطوله غازيا سنة ٢٦٦ ، فلقى اسطولا للروم مؤلفا من ١٤٠ سفينة ، والتحم القتال شديدا بين الطائفتين ، فتغلب هذه المرة اسطول الروم ؛ وترك المسلمون سفنهم ومتاعهم غنيمة للعدو ، ورجعوا عن طريق البر منهزمين الى صقلية .

الحسين بن العباس

جاء واليا سنة ٢٦٧ ؛ ورجع للقيروان معزولا سنة ٢٦٨ ؛ اراد التضييق على الروم المحصورين فى قطانية وطبرمين ؛ وثم ينجح فى ذلك كثيرا ، اذ ان الروم اغتتموا فرصة الانحلال الذى ظهرت آثاره جلية فى الادارة الاسلامية فاصبحوا يخرجون من بين جدران قلاعهم سرايا تضيق على المسلمين كثيرا ؛ وتغنم منهم المتاع والاسلاب والاسرى .

لكن همة الحسين بن العباس كانت متوجهة الى تمهيد الامن واصلاح الحالة العامة ، وقد نجح فى ذلك خلال السنة التى بقى فيها على رأس الادارة

ابو الحسن محمد بن الفضل

ولى الامر سنة ٢٦٨ ، وكان الامن قد استتب والراحة قد تمهدت بفضل جهود الحسين ابن العباس ؛ فاخذ الوالى الجديد يستعد لدحر قوى الروم التى كانت تعيش فى الارض فسادا عندما آنتست من المسلمين ضعفا وافتراق كلمة . اتجه على رأس القوة الاسلامية ، يريد جموع الروم فى معقلهم الجديد (قلعة الملك) وكان ذلك المعقل هو الذى يقض مضاجع المسلمين ، ويشخن فيهم حيناً بعد حين ، فالتقى الجمعان على مقربة من المعقل ، وكانت طمانينة الايمان قد رجعت الى نفوس المؤمنين ، فثبتوا امام الاعداء واشتد مراسهم الى ان انتهت المعركة بنصر عظيم ، وخسر الروم ما يزيد عن الثلاثة آلاف من القتلى انتشرت اجداثهم فوق ميدان القتال ثم سار المسلمون نحو (قلعة الملك) فاحتلوها وثبتوا بها الاقدام ، وتركوا بها حامية قوية ، ثم رجعوا لبائرمه تخفق على رؤوسهم اعلام النصر .

ثم فى سنة ٢٦٩ سار على رأس الجند الاسلامى يريد تحطيم مراكز الروم فى الناحية الشرقية ، فالتقى بجند العدو وناوشه القتال ، واخترق فى بعض الاوقات صفوفه حتى وصل تحت جدران قطانية ؛ لكن المدينة استعصت عليه ، وكذلك كان امر رمطة فلم ينل منهما منالا ، واكتفى بما استحوذ عليه من غنائم واسلاب ، ورجع لبائرمه فى ذى الحجة من تلك السنة . وقضى بقية ايامه ساهرا على امور البلاد مدبرا سياسة الملك ، ممعنا فى اعمال العمران والرقى المادى الى ان عزل عن الولاية سنة ٢٧١ فى ربيع الاول . وكان عزله نكبة على صقلية .

سواده بن محمد بن خفاجة

هو حفيد خفاجة بن سفيان والى صقلية الطيب الذكر ، وقد ارسل به

ابراهيم ابن الاغلب واليا فى منتصف شوال سنة ٢٧١ بعد ما عزل عنها على بن ابي الفوارس الذى لم تطل ايامه اكثر من ستة اشهر ، لم يذكر التاريخ عنها خيرا ولا شرا .

عودة الروم - اهم حدث سجله التاريخ فى هذه الايام ، هو عودة الروم بقوة للميدان ، والتحام المعركة الحامية بينهم وبين المسلمين ، كان الروم قد رأوا من اختلال الادارة فى بعض الاحيان ومن تفرق كلمة المسلمين الناشئين عن اضطراب فى سياسة البلاط الاغلبى نحو صقلية وتوارد الولاة وعزلهم حسب الاهواء والمصالح والاغراض ، راوا فى ذلك ما جعلهم يعتقدون ان الفرصة قد سنحت لاعادة الكرة واستخلاص الجزيرة من يد المسلمين .

ابتدأت هذه الحملة الرومية الجديدة ، بعقد هدنة مع المسلمين كانت فيما اعتقد خدعة حربية ماهرة ؛ وكان المسلمون قد ارتكبوا غلطة فادحة بقبولها ؛ وقد غرهم ان الروم اطلقوا سراح ثلاثمائة اسير من المسلمين فى سبيل ذلك الصلح الموقت ؛ وما كان ذلك الا استعدادا منهم لامر عظيم ؛ فما كانت تنتهى الثلاثة اشهر ، حتى كانوا قد رتبوا امرهم بعد اختلال ، وحصنوا مراكزهم بعد ضعف ، وجاءهم المدد العظيم من القسطنطينية تحت امره البطريق مجفور (Nicefors) فانزل جنده البر ، دون ان يلقى اعتراضا من اسطول المسلمين ؛ وتقدم فى جموع وفيرة العدد كاملة العدة ، فاستخلص من المسلمين مدينة سبرينة Santa Severina ومدينة منتية Amantée واشتد الخوف يومئذ على صقلية ، اذ كانت بنفسها وبمجرد قواها لا تستطيع ان تصمد لزحف الروم اذا ما توالى نجاتهم وباشروا اعمالهم بتلك الصفة . رأى اهل صقلية ان سواده بن محمد نيس بالرجل الذى يصلح لادارة الملك والحرب فى مثل هاتيك الاوقات العصيبة ، فاعلنوا خلع طاعته وارسلوا به صحبة اخيه واهله الى القيروان سنة ٢٧٣ .

والذى تجب ملاحظته هنا هو ان اهل صقلية كانوا اذا راوا خلع امير انقيادا لمصلحة عامة او اندفاعا مع غرض ، قبضوا عليه وارجعوه صحبة اهله

الى القيروان ليصنع به الملك ما شاء وليحاسبه على اعماله ؛ فكانت هذه الطريقة تدل على مبلغ ما كان لهم من مهارة وحسن تدبير ، رغم القلاقل ورغم الاضطراب ، وما سفك دم احد الولاة الا نادرا وعلى يد اوغاد من الدهماء .

ابو مالك احمد بن عمر حبشي

هو من احفاد ابراهيم ابن الاغلب الكبير ، مؤسس العائلة ؛ وكان عمدة فى البلاط الاغلبى ؛ ارسل به الملك ابراهيم الثانى عاملا على صقلية ، كانه قد اعتمد على جاهه وفضله ومكانته ، ليرجع الى النفوس ثقتها ، وليثبت لاهل صقلية مدى اهتمام القيروان بها ، فكانت هذه الولاية اشبه بسفارة منها بامارة .

وتقد نجحت المهمة نجاحا كبيرا ، فهدأت الثائرة واطمأنت الافكار ؛ وعاد الامن الى نصابه وانتظر الناس الفرج القريب ، فى صورة مدد جسيم يفد من القيروان ويعين المسلمين على قهر شوكة الروم الذين كانوا يستعدون لامر عظيم .

وكان اهل صقلية قد طلبوا الى الملك ابراهيم ان يولى عليهم ابنه ابا العباس عبد الله لما يعرفون من مهارته فى السياسة وفى الحرب ، وكما املوا على يديه من انقاذ الجزيرة تجاه الخطر الرومى ، وقد اعتقدوا ان الواند لا يعزل ولده فى مدة وجيزة ، ولا يبخل عليه بنجدة او مدد ، فستقر بذلك امور الادارة ويستقيم بذلك امر الجهاد ، وهكذا كان .

ابو العباس عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب

ممثل الدولة ونائب الملك

ولقد كانت امارة ابي العباس عبد الله امارة عامة تشرف على امور البلاد ، وتراقب سير الولاة ؛ لاننا ان تصفحنا كل كتب التاريخ التى اوردت لنا

الاحاديث عن صقلية ، وخاصة ابن الخطيب فى اعمال الاعلام ، وابن الاثير ، وغيرهما رأينا ان ائولية كانت اثناء تلك المدة مداولة بين ابى العباس محمد بن الفضل وقد كان عزل سنة (٢٧١) (١) والحسن بن احمد بن نافذ ، فكان الامير ابو العباس عبد الله يمثل يومئذ ما يمكن ان نسميه باصطلاح اليوم : نائب الملك او المندوب السامى . فالاعمال التى ستراها مبينة اثناء ولاية هذيه . انما مدن كانت تقع مباشرة تحت اشراف الامير ابى العباس عبد الله .

الاضمار البحرى - ابتداء هذا العصر الجديد يظهر آثاره ، وقد كانت الحاجة ماسة ل اظهار القوة امام الروم والقيام بعمل يوقف تيار هجومهم المخيف ، من جهة ؛ وامام المتزعمين ودعاة الشغب من جهة اخرى . فاول شىء اتجهت اليه همة نائب الملك هو اعادة النظر فى امر الاسطول وتجهيزه من جديد بصفة تجعله قادرا على مقاومة العدو وكسر شوكته ؛ فبذل فى سبيل ذلك همة عاتية ، وظهر مراسا شديدا فبدت النتائج الحسنة بعد حين .

ذلك ان الروم ارادوا أن يستثمروا فوزهم السالف فارسلوا نجدة ذات قوة وبأس شديد ؛ وكانوا يريدون بها القضاء نهائيا على ملك المسلمين بصقلية . لكن المسلمين كانوا هذه المرة على غير ما كانوا عليه فى المرة السالفة ؛ كانوا مستعدين يقظين منتبهين ؛ فما كادت بوادر الاسطول الرومى تظهر ، وما كادت عملية انزال الجند الى البر تبتلى حتى التحمت فوق اديم الارض وفوق عباب انبحر معركة هائلة عنيفة ، لم يكن الروم ينتظرونها ؛ وكانت تلك المعركة بالنسبة للمسلمين معركة فاصلة بين طريقى الموت والحياة ،

(١) من اغرب ما وقع لبنى العباس اثناء ضعفهم وانحلالهم ان الزنوج العبيد هاجموا مدينة البصرة واحتلوها ، ثم تدفقوا على اعمالها ، فامعنوا فى الحرق والنهب والسلب وانتهاك الحرمات وسفك الدماء ؛ وقاتلهم العباسيون والجند التركى مدة الى ان تمكنوا من القضاء عليهم فى هند السنة (٢٧٠) وقتل رئيسهم يهودا ؛ وقد كان مدعى انه نبي مرسل ، وكان له منبر يصعد عليه ويمعن فى سب عثمان وعلى ومعاوية وطلحة والزبير ؛ فلما قتل وانتهى امر الزنوج ، زينوا بمداد وطاقوا برأس يهودا على رمح . وسبب هذه الفتنة هو يؤس العبيد الزنوج وكثرة عددهم فى المزارع وحرمانهم ، فدعاهم للانتفاض من يخفى المضامع السياسية تحت ستار الدين .

وكانوا يعلمون علم اليقين انهم ان خسروها فسلام على صقلية ، وسلام على ملك وعمران وحضارة زاهية بها .

دامت المعركة أياما ، وثبت المسلمون ثباتا مكنهم آخر الامر من الغلبة والفوز ، وكانت كارثة الروم هائلة فظيعة ، اذ تركوا على اديم الارض ما يزيد عن السبعة آلاف قتيل ؛ وعندما رأوا مدى الكارثة ، ولاذوا بالفرار الى ما بقى باسطا جناحي شراعاته من مراكبهم ، غرق منهم اثناء تلك العملية نحو الخمسة آلاف ؛ فرجعت بقايا الاسطول من حيث اتت ، واضطر الباقون من الروم والمسيحيين لاخللاء مراكزهم المتقدمة وما استولوا عليه من قلاع ومراكز المسلمين اثناء السنوات السالفة . وفرح المسلمون يومئذ بنصر الله . وقد وقع ذلك سنة ٢٧٥ (١) (٨٨٩ م) .

قلورية - كان الروم قد تحصنوا في ارض قلورية التي يفصلها عن صقلية مجاز مسينا . وكانوا يريدون بذلك ان يحولوا دون انتشار المسلمين في الجنوب الطلياني وأن يقطعوا الصلة بين مسلمي صقلية ومسلمي ايطاليا ؛ وعلى الاخص كانوا يريدون ان يجعلوا من قلورية مركزا لمهاجمة صقلية ولامداد حاميات طبرمين ورمطة وغيرها .

فالمسلمون اغتنموا فرصة انتصارهم العظيم على اسطول الروم وعلى جندهم ، واغتنموا فرصة الفرع الذي ساد اوساط المنهزمين ، فجمعوا الاسطول والجند وهاجموا قلورية من وراء المجاز ؛ فائتوا بها اقدامهم ودحروا من تعرض لهم هنالك من الروم وجموع المسيحيين .

قدم صقلية هاتيك الاثناء محمد ابن الفضل واليا للمرة الثانية في الثاني من صفر سنة ٢٧٩ .

(١) في هذه السنة اكمل الامير اسماعيل زعيم بني سامان الفرس استقلال بلاد ما وراء النهر عن الدولة العباسية ، اذ ابتدا امره بالتمركز في بخارى وسمرقند ثم اعلن انضمام بلاد خراسان لمملكته ؛ واستمرت الدولة السامانية حاکمة تلك الناحية طيلة القرن العاشر الميلادي (٩٠٠ - ١٠٠٠)

وكانت الاعمال مستمرة على التوالي فى شبه جزيرة قلورية الى أن أذعن الروم هنالك لعقد هدنة مدتها اربعون شهرا يحتفظ اثنائها كل من الفريقين بمراكزه على أن يطلق الروم سبيل اف من اسرى المسلمين ، وان يرسل المسلمون بضع رجال بين عرب وبربر بصفة رهائن يقع استبدالهم كل ثلاثة اشهر .

فتنة عمياء - ولى الامارة بعد ابن الفضل سنة ٢٨٤ ؛ الحسن ابن احمد ابن ناقد ، تحت اشراف نائب الملك المذكور حسبما اسلفنا ؛ وكانت هنالك نار تحت الرماد ، وكانت هنالك فتنة نائمة ، فتنة العصبية الجاهلية ونار النعرة العنصرية . فلأمر ما نسى المسلمون الاخوة الاسلامية ؛ ونسوا عبدوا يترقب بهم الدوائر دوائر السوء من ناحية الشرق ومن ناحية الغرب ومن وراء العدو ؛ وقد تولى كبر هذه الفتنة جماعة من العرب وجماعة من البربر ، فكانت فتنة لم تصب الذين ظلموا خاصة ، وظهر سفهاء القوم من العنصرين حمية جاهلية ، فانغمس المسلمون فى حماة حرب اهلية قاسية ، لم يستطع العقلاء اخماد نارها ، فعم الفساد وساد الاضطراب ؛ وهذا هو نفس الساء الذى اصاب بلاد الأندلس ، فقضى عليها مع مرور الزمن ، كما قضى على صقلية . ارسل ابراهيم ابن الاغلب جندا الى ولده ونائبه ابى العباس ، وجمع اليه كما يقول ابن الخطيب ، جياد الرجال واشداهم فتزل الجند ارض صقلية فى جمادى الاخيرة من سنة ٢٨٤ ، وكان قد ارسل اليهم انذارا مؤداه : انه يؤمن الناس على انفسهم واموالهم وذويهم ان هم جنحوا الى السلم وتركوا امر الفتنة ما عدا الذين تولوا كبر الحرب الاهلية ، وهم الحسن بن يزيد وولداه وعبد الله الحضرمى .

حارب رجال السلطة الثائرين والمفسدين وتغلبوا عليهم وشتتوا شملهم ووضعوا يد العدل فوق اعناق المجرمين ، فاما الحسن بن يزيد فقد شرب سماء ، وكانت بيده لا بيد عمرو ؛ واما الباكون فقد نفذ فيهم امر الله وقطعت رقابهم وساروا من العار الى النار ؛ ودخل الجند الحكومى مدينة بالرمة بعد اخماد الفتنة فى

العاشر من رمضان سنة ٢٨٧ ، وامن الناس واستتب الهدوء من جديد الى حين .

ولقد اراد الروم اغتنام تلك الفرصة ، فجمعوا اسطولهم وقدموا نحو الجزيرة ، لكن الفتنة الداخلية لم تمنع السهر الخارجى ، اذ صدت فرق من اسطول المسلمين لمراكب الروم فدحرتهم ؛ وغنمت منهم ثلاثين سفينة .

ابراهيم بن الاغلب

قال ابن الخطيب فى اعلام الاعلام :

وفى سنة ٨٩ عظم المرار والوسواس على الامير ابراهيم بن احمد وتخلي لابنه الوالى بصقلية على الامر ، واستفز الناس ودعاهم الى الجهاد ، وفرق الاموال وكان وصوله الى بالرم من صقلية لليلتين من رجب من السنة فرحل الخ ..

نعم - لقد عظم به المرار والوسواس ، او بالاحسرى عظمت به النوبات الجنونية الهستيرية التى تسلطت عليه طيلة ايام ملكه ؛ فرأى ان يخوض فى بحر من دماء الجهاد ، بعد ان خاض فى بحر من دماء امته وعائلته ورجال دولته ؛ فظهر الزهد فى الدنيا والاقبال على الآخرة واستدعى من صقلية نائبه بها ، ابنه ابا العباس عبد الله فتنازل له عن عرش انقيروان الذى خضبت اركانه بدماء الابرياء ، والذى اخذت تزعزعه عواصف الدعوة الفاطمية ؛ ثم سار ابراهيم ليقضى بقية ايامه مجاهدا فى صقلية وايطاليا ، عسى الله يغفر له ما تقدم من ذنبه ؛ فدخل سوسة فى ثوب مرقع علامة الزهاد ؛ وسار منها على رأس جند قوى ، فنزل بالرمة وبأشر هجومه العنيف .

(١) اعتقد ان الروم البيزنطيين لم يكونوا وحدهم خلال هذه الحروب الطويلة ، بل كانت معهم ولا ريب جماعات من الصقليين الذين آثروا الدفاع عن المسيحية ، معتمدين على الروم . وفى مقابل ذلك كانت جماعات من الصقليين والمولدين قد انضوت تحت لواء الاسلام وبقي جمع كبير على نصرانيته تحت حماية الاسلام العادلة الرحيمة . كما سترى

احتلال طبرمين - كانت طبرمين يومئذ امنع مراكز الروم (١) واعز قلاعهم بعد سقوط سرقوسة ؛ وكان الروم يرسلون ارسال المدد لها دون انقطاع عساها تكون يوماً ما مبعث الموجة المقدسة التي ترجع صقلية تحت حكم الصليب القسطنطيني الرومي .

هاجم ابراهيم المدينة المحصنة بخيله ورجله ، والتحم مع رجال الروم في معركة هائلة ، دارت رحاها بشدة لا عهد للفريقين بها من قبل ، ورأى المسلمون شدة النصارى في الدفاع عن مدينتهم ، فاخذت ريع الفشل تهب بين صفوفهم ، لكن ابراهيم تغلب على الموقف بحزم نادر ، فجمع جموع المسلمين وقرأ القارئ بين يديه قوله تعالى : « هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم ؛ يصهر به ما فى بطونهم والجلود ؛ ولهم مقامع من حديد ، كلما ارادوا ان يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق . ان الله يدخل الذين آمنوا و عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار ، يحلون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤا ؛ ولباسهم فيها حرير ، وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد » فعادت الثقة الى نفوس المؤمنين وهبت عليهم رياح الجنة فانقضوا على اعدائهم كالصواعق النارية ، وانهزم الروم امامهم فاخذوا يتبعونهم بين وهاد الاودية واعمالى الجبال ، فقتلوا اكثر المدافعين وتفرق الباقون شذر مذر ، واصبحت مدينة طبرمين مفتحة الابواب دون مدافع ، فدخلها ابراهيم مع جماعة المسلمين ، وغنم جميع ما كان الروم قد اعدوه بها من كنوز وسلاح وعدد للقتال .

ولقد كان لفتح المسلمين لهذا المعقل المنيع اسوأ وقع فى العالم المسيحي ، اهتزت له البلاد الرومية باسرها ، واعلن الامبراطور فى القسطنطينية الحداد سبعة ايام لم يوضع فيها على رأسه تاج الملك .

فتح رمطة - لم يترك ابراهيم للروم وقتا يرجعون فيه من ذهولهم اثر نكبة طبرمين ، فسارتوا يقصد مدينة رمطة ، وهى معقل آخر للروم

شرقى الجزيرة ، يقع جنوبى طبرمين ؛ ويتكون منه ومن قطانية آخر ما بقى للروم فى تلك الانحاء .

هاجم المسلمون رمطة ، والروم لا يزالون يألون من ضربة طبرمين ، فلم يستطيعوا بهذه المدينة ثباتا وانهارت سريعا ، فدخلها ابراهيم ومن معه وغنموا كل ما فيها من مال ومتاع .

فى ايطاليا - لم يبق يومئذ بصقلية ما يشبع نهم الامير ابراهيم ، فجمع جموعه القوية ، وركب البحر مجتازا الى ارض قلورية ، وكان يقصد يومئذ الصعود منها الى الارض الطليانية ، ومنازلة نابولى ؛ فاخترق بجموعه شبه الجزيرة القلورية ؛ ووصل فى شمالها الى الحد الذى يفصل بينها وبين ممتلكات نابولى ؛ وكانت هنالك قلعة كسنتة Cosenza المنيعة فخيم حولها ونصب عليها الحصار ؛ وامعن فى التضييق عليها .

اشتد به المرض يومئذ ، فاسلم روحه لحالقتها ؛ يوم السبت ١٨ من ذى القعدة سنة ٢٨٩ (اكتوبر ٩٠٢) .

لم يعلم اهل كسنتة بموت الامير ؛ فارسلوا وقد ضاق عليهم الحناق يطلبون الامان والتسليم ، فامنوا ؛ وقبل استسلامهم ، ونقلت جثة الامير ابراهيم الى باترمة فدفن هنالك وبثى على قبره قصر .

سيرة ابراهيم بن الاغلب - ولى ابراهيم ملك القيروان ، وهو لا يبلغ من العمر الا ١٤ عاما ؛ ومات مجاهدا فى ايطاليا وسنه ٤٢ سنة ، فكانت مدة ولايته ٢٨ سنة ، ارتكب اثناعصا من الفظائع والآثام ما قضى به على الملك الاغلبى ، وكان اعظم مههد للسبيل فى وجه الدعوة الفاطمية الناشئة .

ازى ، وقد ازفت الساعة التى ستنهى فيها الدولة الاغلبية ، ويتغير وجه الخريطة انسياسية فى الشمال الافريقى وفى صقلية ؛ ان انقل لك صفحة عن سيرة هذا الملك الطاغية الجبار حتى يتبين لك كيف يمحو الظلم آثار الدول ، وكيف تعمى القلوب التى فى الصدور ، فتسير مع اغراضها وشهواتها غير حاسبة حسابا لما يحدق بها من اخطار .

قال ابن الاثير عن هذا الامير ، ولعله يصفه بذلك عندما ابتدا ممارسة الحكم غلاما او عندما تاب توبة الافلاس قبيل موته : وكان عاقلا حسن السيرة محبا للخير والاحسان ، تصدق بجميع ما يملك ووقف املاكه جميعها وكانت له فطنة عظيمة باظهار العملات .

هذه الصورة غالبة لا تمثل لك شيئا من ابراهيم الجبار الذي كان السبب الاصل في انهيار الملك الاغلبى ؛ اما ما اتفق عليه المؤرخون في شأنه فقد تحصى تلخيصنا بليغه المؤرخ التونسي الكبير احمد بن ابى الضياف ، مستمدا معلوماته من اعمال الاعلام لابن الخطيب ومن غيره ؛ واليك ما يقوله ابن ابى الضياف :

« وكان ابراهيم هذا قد ابتدا امره بحسن السيرة وسلوك ما يحمد اثره ، ثم انقلب الى ضد ما كان عليه وانسلخ من الحلال الحميدة شأن الدول قبيل الانقراض ، فساءت ظنونه وتغيرت اخلاقه وفسد فكره واسرف في القتل ؛ وفي سنة ٢٦٨ فتك باهل الزاب فقتلهم وقتل اطفالهم والحاquem في الحفر ؛ وفي سنة ٢٧٧ قتل حاجبه نصر بن الصمامة بعد ان ضربه خمسمائة سوط فبا تحرك ولا نطق بكلمة ثم امر بضرب عنقه ، فقال الحاجب لمن حوله : لا تظنوا انى افزع من الموت ووعدهم انه سيفتح كفه ويضمها ثلاث مرات بعد ضرب عنقه ؛ ففعل . الخ

« وفيها قتل من اهل افريقيا عددا مستكثرا منهم القاضى عبد الله بن احمد بن طالب بن سفيان عزله وحبسه ثم سمه ؛ ومنهم اسحاق بن عمران المحتسب قتله وصلبه ؛ ومنهم حاجبه فتح ضرب بالسياط حتى مات ؛ ومنهم فتيانا من انصقالبه ، وسبب ذلك انه كان له اذن صاغية لاقوال المنجمين والمتخرصين على الغيب ، وكانوا يقولون له انه يقتله رجل ناقص وانه يمكن ان يكون فتى ، فكان اذا رأى احدا من فتيانا فيه نشاط وحدة يتقلد سيفها قال هذا صاحبي فيقتله ، ولما قتل منهم جماعة خافهم واقضى به ذلك لقتل جميعهم ، واستخدم عوضهم فتيان السودان . ثم عرض له منهم ما عرض

للفتيان الصقالبة فقتلهم اجمعين ؛ وقتل ابنه المكنى بابي الاغلب وضربت عنقه بين يديه وسبب ذلك انه نعى اليه ان محمد المنجم قال لابنه انه يلى الملك ، ثم امر باحضار المنجم فقتله وقتل اخوته وكانوا ثمانية ، ومن هناته انه افتقد منديلا كان يمسح به فمه ، وقد سقط من يد بعض جواريه فالفاه خادم له فقتل بسببه ثلاثمائة خادم ؛ ومنها انه كان يقتل بناته ، فكانت امه اذا ولدت له بنت من احدى جواريه اخفتها وربتها حتى اجتمع عندها منهن ستة عشر جويرية فقالت له يوما وقد رأت منه رقة : يا سيدى قد ربيت لك وصائف قال نعم ؛ قالت اتراهن فقال نعم ؛ فزينتهن وادخلتهن اليه فاستحسنهن ؛ فقالت له هذه بنتك من فلانة وهذه بنتك من فلانة حتى اتت على آخرهن ، فلما خرج قال لخادم له اسود كان سيقا يقال له ميمون : امض وجئنى الآن برؤوسهن فتوقف استعظاما لذلك ؛ فقال له امض ويلك والا قدمتك قبلهن ، ولما دخل على امه كبر ذلك عليها فقالت له راجعه ؛ فقال لها لا سبيل لذلك ، ووقفن على ما يراد بهن فصحن بالبكاء وقلن للسياف يا سيدى وما الذى اذنبنا اما ترحمنا فلم يغفر ذلك شيئا ، فقطع رؤوسهن ، ينظر بعضهن الى بعض وجاء اليه بها معلقة بشعورهن ، فوضعها بين يديه (١) .

قال لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه اعمال الاعلام عندما ذكر هذه القصة الفظيعة ما نصه : قلت اللهم لا ترحمه ، وضاعف عليه سخطك وعذابك الذى لا يتعقبه رضاك ولا تمنحه رحمتك ، اهـ . وكان من كتابه الاديب البازع انعام احمد القديدى ، فقربه وجعل اليه اموره كلها ، ثم سخط عليه فسجنه فخاطبه من محبسه برسالة بديعة قلين القلوب القاسية (هنا ذكر ابن ابى الضياف

(١) من المحتمل ان تكون الدعاية البيدية الفاطمية قد بالغت فى وصف فظائع ابن الاغلب ، واعتمدت على الاصل فاضافت لها اساطير لتسود نهائيا صفحته ، ولتتمكن من القضاء المبرم على دولته . والا ، فالعقل لا يكاد يصدق ان ملكا مهما كان هستريا ، يستطيع ان يصل الى هذه الدرجة من الموبقات والآثام . كما لا يتصور الانسان خضوع الشعب المسلم واستكانته ، وسكوت علمائه ورجاله ، امام هذا الطغيان الاجرامى المنافى لكل احكام وتعاليم الاسلام .

نصها ، وهى طويلة ، لا موجب لذكرها ، وان كانت من آيات الفن ، ختمها بقوله :

هبنى اسأت فاين العفو والكرم قد قادنى نحوك الاذعان والندم
ياخير من مدت الايدى اليه اما ترثى لمن قد بكاه عندك القلم
بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر ان الملوك اذا ما استرحموا رحموا
فوقع بجهله وطفيانه تحتها • ان الملوك اذا ما استرحموا قتلوا • ووضعه
فى تابوت حتى مات جوعا وعطشا •

« وبقي ابراهيم فى تونس يبدد شيعته وانصاره بالقتل ، ونار الداعى الى الدولة العلوية العبيدية تاكل اطراف مملكته • وكان قد اتخذ جند بلزمة (١) ، واصطفى من ابطانهم سبعمائة رجل ، واعتضد بهم فى حراسته ، ثم بعث اليهم ابنه فى جند وقتلهم بتمامهم • وكان ذلك اقوى الاسباب فى انقراض دولة بنى الاغلب ، وذلك ان اهل بلزمة من العرب من ابناء المغرب ، والجند الداخلين الى افريقيا عند افتتاحها ، واكثرهم من قيس ؛ وكانوا شجى فى خلق كتامة من البربر القائمين بالدعوة العبيدية ، فلما قتلوا استطالت كتامة ووجدت السبيل الى حل عرى دولة بنى الاغلب ؛ ومن اتبع هواه ، اعطى عدوه مناه ، وسوء الراى اشد المحاربين •

« وثار على ابراهيم اهل تونس والجزائر والاربع وباجة وقمودة ، وقدموا على انفسهم رجلا من الجند ؛ فانتقل ابراهيم الى رقادة وحصنها ؛ والجرأة على سفك الدم ، انذار بزوال الملك ، انتهى ما نقلناه عن ابن ابى الضياف رحمه الله •

الدعوة الشيعية - فى هاتيك الاثناء ، والدولة الاغلبية تسبح فى بحر من الدماء البريئة ، قدم من المشرق ، داعى الشيعة الاسماعلية ابو عبد الله الحسين بن احمد ونزل بفرجيوة من ارض كتامة ؛ واخذ ينشر الدعوة للمهدى

(١) قرية على ٢٧ كيلو مترا فى الشمال الغربى من مدينة باتنة بالاوراس .

المنتظر من ابناء فاطمة البتول ، ويبشر الناس بقرب ظهور المهدي الذي يملأ الارض عدلاً بعد ما ملئت جوراً ؛ فالتفت حوله كتامة المتعطشة للحكم الناقمة على الدول انهزمت التي كانت تقتسم يومئذ ارض الشمال الافريقي : دولة الاغالبية في الشرق ودولة الرستميين في الوسط ودولة بني ادريس في الغرب ، واخذ يدعو جهاراً لعبيد الله المهدي ؛ ويجمع الناس حول مذهب الشيعة الاسماعلية العلوية ؛ فلقيت هذه الدعوة نجاحاً يفوق حد التصور ، كأن البلاد كانت تنتظر الحاكم الحقيقي ، المنقذ ، الذي يوحد صفوفها ، ويجمع كلمتها ، ويرفع فوقها لواء العدل والحكم النزيه ؛ وخاصة ان الدعوة لآل علي وابناء فاطمة كانت تصادف هوى في النفوس ، وكان الناس يأملون على يد احفاد محمد صلى الله عليه وسلم اصلاح الحال ورفع المظالم واعلاء كلمة الله .

قال المؤرخ الكبير احمد بن ابي الضياف في شأن الشيعة الفاطمية : ولا يظن في القوم انهم من الغلاة المدحوض غلوهم عند ائمة الشيعة ، كما لا يظن بهم انهم ممن يكفر الصحابة رضي الله عنهم ؛ وقصارى امرهم تفضيل علي على الشيخين مع اعتقادهم صحة امامتهما عند جدهم سيدنا علي ؛ حيث قبل جارية من سبي عمر وهي الحنفية واولدها ابنه محمد ، ويستندون في هذا التفضيل الى احاديث لم يوافقهم على المراد بها اكثر اهل العلم ، ولهم نزعات يستندون فيها الى ما يؤثر على بعض اهل البيت وانكار العلماء عليهم من حيث البدعة ؛ واهل افريقيا يدينون بحب علي وآله يستوى في ذلك عالمهم وجاهلهم ، جبلة في طباعهم حتى ان نسوانهم عند طلق الولادة ينادون : يا محمد يا علي . الى ان يقول : وقوة المحبة لآل البيت مع الاعتراف بالفضل والمحبة لغيرهم ليس من الرفض في شيء ، والله يقول : « قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى » ولا يخلو مسلم من هذا الحب ، ورحم الله انشافى اذ يقول :

ان كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان اني راقضى »

كان عبيد الله المهدي قد وقع بين يدي الاغالبية فسجن ، وكان عبد الله بن الحسن الصنعاني يجمع الجموع ويجيش الجيوش ويستولى على اطراف البلاد

معتمدا على سواعد كتامة وحراهم الشديدة ، فدانت له البلاد دون مقاومة تذكر ، حتى وقف وراءه مئات من الالوف ، يستعد للوثبة النهائية ، وتحطيم دولة الاغالبية التي حطمها ابراهيم الآنف الذكر قبل ان يحطمها اعداؤه .

انهيار الدولة الاغلبية - خلف ابراهيم السفاح ابنه الذى كان كما اسلفنا يمثل في صقلية ، فكان شهما على الهمة سديد النظر اراد اصلاح الحالة ورتق ما امعن ابوه في فتقه . ولقد كان ينجح وكادت الحالة تستقيم ، لولا ان القضاء قد حم ، وآذنت ساعة الزوال على يد شقى ، كتب الله عليه ان يكون هو النقطة السوداء التي تختتم صفحة ناصعة ؛ ذلك هو زيادة الله الحقيير . تسولى ابو العباس عبد الله ملك القيروان ، فارسل بابنه هذا زيادة الله ليمثله في صقلية ، وليقوم على امر الجهاد والادارة فيها ؛ فما كانت ايامه هنالك سوى الاضطراب والحرب ، وقد وصلت دعوة الشيعة هاتيك الاصقاع ، واشرابت لها الكثير من النفوس ، واخذ الناس يتفرقون شيئا كل حزب بما لديهم فرحون . أما زيادة الله الحبيث ، فقد كان قابل كل ذلك بمجالس لهو وخلاعة وشراب ، كان يعقدها بقصره في بالرمة ، الى ان بلغ الارتباك درجة اضطرت ملك القيروان لاستقدام ابنه المفسد من صقلية ، فلقى به مسجوناً مقيداً داخل داره .

اخذ هذا الشقى يستميل خدام ابيه اليه ، فتواطأ مع غلامين منهما ، ترصدا لابييه حتى نام ، وهما على حراسته ، فاحتزا رأسه ، وذهبا به داميا فرميا به بين يدي الالين النذل ، وفكا قيوده ، فنادى بنفسه ملكا واخذ البيعة العامة في شعبان سنة ٢٩٠ وبإادر بالغلامين قاتلي ابيه فمشل بهما وقتلهما شر قتلة دفعا لتهمة التواطىء معهما على ذلك .

وقد رأى ان الحرق الفاطمى قد اتسع على الراقع ، وعلم ان لا قبل له بدفع تلك الكارثة الا باعتماد الخليفة العباسى المكتفى بالله عله يرسل له جندا يعينه على دحر قوى الصنعاني المخيمة على اطراف المملكة . فارسل للخليفة هدية فيها نفائس كثيرة منها عشرة آلاف دينار زنة الواحد منها

عشرة مثاقيل وقد كتب على وجهيها :

يا سائرا نحو الخليفة قل له ان قد كفاك الله امرك كله
بزيادة الله بن عبد الله سيد ف الله من دون الخليفة سله
ما ينبرى لك بالشقاق منافق الا استباح حريمه واذله
من لا ينرى لك طاعة فالله قد اعماه عن سبل الهوى واضله

ولو انه جهز بذلك الذهب اتغزير جندا ، واصطنع به رجالا ، لكان ذلك اجدى للملكه وانفع لان انتصابه مدافعا عن خلافة العباسيين دون دعوة الفاطميين لم تجده نفعا ، فان عبد الله الصنعاني قد وثبت وثبته النهائية فكانت معركة الاربع الهائلة اتى تفرق فيها جيش الاغالبه بعد ان مات اكثرهم وذلك سنة ٢٩٠ فجمع زيادة الله ، او نقصان الله ما استطاع جمعه من مال ومتاع ؛ وشهد رحاله الى المشرق تاركا ملك الاغلب يبكى من بناء ، فاقام بمصر ينتظر مدد الخليفة وينتظر تنفيذ عامل مصر اوامر الخليفة ولم تكن حالة مصر يومئذ ازهى ولا ازهر من حالة افريقيا . فبعد ايام قضياها زيادة الله فى القدس الشريف يلهو ويلعب ويعبت ويضطرب قبض الله زوجه الشيقة بالرمة سنة ٣٠٣ (١) .

وهكذا انهارت دولة بنى الاغلب العظيمة التى كانت من اغرب ممالك العرب والمسلمين ، واكثرها مدنية ونظاما ، واحسنها جهادا ، وامعنها عمرانا (١) .

قال فيكتور بيكى فى كتابه الآنف الذكر : مدنيات الشمال الافريقى
« لولا ان الاغالبه جمعوا الى جانب خلاصهم العسكرية الانهماك فى الملذات

(١) كانت الحرب حامية الوطيس فى بلاد الاندلس بين الملك اردونيو ؛ الذى جمع شتات البلاد المسيحية هنالك وتصدى لحرب المسلمين ، وبين الخليفة عبد الرحمان الثالث ؛ فاندحر عبد الرحمان اول الامر ثم اعاد الكرة فانتصر واحتل طليطلة ثم انكسر ثانيا سنة ٣٠٦ وعقد هدنة لثلاثة اعوام ؛ فلما انقضى اجلها وكان قد جمع جندا عتيذا هاجم المملكة الاسبانية فشتت شملها ودحر جندها واستولى على بلادها واندفع وراء جبال البيرنات فى فرنسا .

والشهوات لاستطاعوا ان يمدوا في اجل تفوق العنصر العربى بهذه الديار ؛
لكنهم سقطوا تحت عنف ضربات البربرية السواردة من ناحية المغرب ،
وكان بسقوط الاغالبية سقوط النفوذ العربى ، وانهيار السنة تحت موجة
الشيعية الظافرة ٠

العبيديون بالقيروان - دخل ابو عبد الله الصنعاني مدينة القيروان
ظافرا منصورا ، وكان عبيد الله سجيننا مع ابنه ابى القاسم فى مدينة
سجلماسة عند اميرها ٠ فخرج علماء القيروان واهل العقد والحل فيها للقاء
الصنعاني وهنؤوه بالنصر والفوز وسالوه لمن يخطبون فى صلاة الجمعة فلم
يعين لهم احدا لانه لم يكن يعلم مال عبيد الله انما امرهم بالدعاء لمن نصر
الدين ٠ واعلن ابو عبد الله الامان العام للناس فى اموالهم واعراضهم
وحرياتهم ، انما صادر اموال زيادة الله الاغلبى الهارب ، وحفظ سلاحه
وجواريه ، ثم نقش على النقود من وجهها الايمن : بلغت حجة الله ٠ ومن
وجهها الآخر : تفرق اعداء الله ونقش على الاسلحة : عدة فى سبيل الله ٠
ووسم الخليل : الملك لله ٠

ثم استخلف اخاه على القيروان ونهض فى وثبة جريئة الى سجلماسة
بالمغرب الاقصى ، فاخرج من السجن الشريف عبيد الله ، وجاء به مبعلا
مكرما وهو يمشى بين يديه حتى ادخله القيروان ، ثم سار به الى قرية رقادة
التي كانت يومئذ (فرساي) تونس وفيها قصر الملك الاغلبى الذى كان آية
من ايات الفن والجمال ٠ وهنالك فى ربيع سنة ٢٩٧ بايعه العلماء والفقهاء
وخاصة الناس وعامتهم ، وكان عبيد الله بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق
يبلغ من العمر ٣٧ سنة ، مهيب الطلعة عالما شجاعا كانه خلق ليكون رأس
دولة وزعيم ملك ، وكل ميسر لما خلق له .

(١) والحقيقة ان جرائم ابراهيم ، وحفيده زيادة الله ، كانت قد حكمت على هذه الدولة بالتلف
والانهيار ، نتيجة تفرق العصبة وسخط الراى العام . فلو لم تقض عليها الحركة الشيعية ،
لقضت عليها لا محالة حركة اخرى ، من الداخل او من الخارج .

تأسيس المهديّة - لم يطب المقام لعبيد الله المهدي بقصر رقادة • ووجد ان القيروان البعيدة عن البحر لا تصحح عاصمة لدولة وضعت بالمغرب اقدمها الثابتة ، ورمت الى المشرق بانظارها الطامعة ، وقد رأت من اختلال امر الدولة العباسية ومن وهن امرائها بمصر الذين يطيعونها اسما ويستبدون بالامر فعلا ، ما جعلها تستعد وتمعن في الاستعداد للوثوب على تلك الاصقاع محاولة جمع كلمة العالم الاسلامي من جديد تحت لواء الدعوة لآل البيت من بني فاطمة ؛ كما حاول من قبل تلك المحاولة الذين تولوا كبر تحطيم الدولة الاموية ، لجمع الامة تحت لواء الدعوة لآل البيت من بني العباس •

طاف المهدي بنفسه على رأس حاشية مختارة ، كل السواحل الشرقية التونسية من قرطاجنة الى الجنوب ، فاختار الموقع البديع في الساحل الذي امر بان تبنى فيه المدينة الجديدة التي تحمل الى الابد اسمه « المهديّة » فابتدأ البناؤون في العمل سنة ٣٠٠ (١) وانتهوا منه سنة ٣٠٨ ، فانتقل اليها برجاله وامواله وجنوده وسكنها معه اصحاب الدولة واعيان القوم ، فاصبحت مدينة من ازهى وازهر مدن المسلمين •

محمد السرقوسي

بعد هذه البسطة الوجيزة عن انهيار الدولة الاغلبية وقيام الدولة الفاطمية ، وسنرى آثار هذا الانقلاب العظيم في جزيرة صقلية ؛ نعود الآن لحوادث الجزيرة اثناء هذا العهد المضطرب •

(١) في هذه السنة تولى الخلافة ببلاد الاندلس عبد الرحمان الناصر ، وهو اول من لقب بالخليفة هنالك ، واندفع في ميدان الانشاء والتكوين ؛ فاخط مدينة « الزهراء » البديعة واتخذها دار ملكه ؛ وانشأ في قرطبة وغيرها عددا جسيما من الابنية والقصور والبساتين ودور الصناعة ؛ واصبحت في ايامه قرطبة كعبة العالم يقصدها طلاب العلم من كل صقع •

بعد موت ابراهيم بن الاغلب المجنون ، محاصرا مدينة كسنته ، استولى ابنه ومثله بصقلية ، ابو العباس ملك القيروان ، فارسل ابنه زيادة الله ممثلا له بالجزيرة فخلا الى اللهو والطرب والشراب حتى استقدمه ابوه وحبسه وكان من امره ما رأيت في الصفحات السالفة اذ قتل اباه وانتصب في القيروان ملكا ، كتب الله عليه ان يسجل التاريخ له انهيار دولة بنى الاغلب على يديه .
كان محمد السرقوسي ابرز ولاة هذا العهد المضطرب ، وقد حاول ، ونجح في بعض الاحيان ، تسكين الثائرة وتهذبة الخواطر وجمع الكلمة ريثما تسفر حالة افريقيا عن امر ؛ وتوفاه الله اليه سنة ٢٩٠ .

علي بن محمد بن ابي الفوارس

واحمد بن ابي الحسين بن رباح

أولى الناس في صقلية امرهم علي بن محمد ودانوا بطاعته ، ورجوا ان يتمكن من انجاز عمل محمد السرقوسي في تهديد الامن وجمع الكلمة ، وراسلوا امير القيروان زيادة الله في ذلك ، فامتنع عن المصادقة ، وارسل من قبله واليا على صقلية الامير احمد بن ابي الحسين ، فما قبله اهل الجزيرة الا على مضض ، وان كان قد عمل اثناء ولايته على حفظ الجزيرة وصيانتها ضد كل اعتداء من الخارج وضد محاولات الفوضى من الداخل .

عندما بلغ اهل صقلية نبا انهيار دولة بنى الاغلب وفرار زيادة الله آخر ملوكها ؛ ثاروا بالامير احمد بن ابي الحسين فحبسوه واعادوا للولاية علي بن محمد وذاك يوم ١٠ رجب ٢٩٦ (٩٠٨) وراسلوا ابا عبد الله الصنعاني داعية المهدي يطلبون اليه المصادقة على السوالى الجديد ويعلنون الانضمام للدعوة الفاطمية والقيام بامرها ، فصادق ابو عبد الله على ذلك وراسل الامير الجديد يقره على عمله ويوصيه بالتقوى والجهاد والثبات في سبيل الله . لكن ايام هذا السوالى لم تدم طويلا ، اذ ان العبيدين ما صادقوا على تسليته الا بصفة مؤقتة ريثما يستتب لهم الامر وتدين لهم سائر البلاد بالطاعة والاثقياد ، فعندما تم

صقلية منذ افتتاحها على يد أسد بن الفران ، سنة 212 إلى يوم أعلنت الجزيرة لهم ذلك استقدموا احمد بن ابى الحسين وامروه بان يستقر فى رقادة ولا يبرحها ، وارسلوا من قبلهم اول ولاتهم نحو الجزيرة وهو الحسن بن احمد .

فتكون ايام الحكم الاغلبى بجزيرة اعتناقها دعوة الفواطم سنة ٢٩٦ : ٨٤ سنة ، مضت كلها فى جهاد شريف ، ونضال عنيف ، وتمهدت فيها سبل الامن ، واستقرت الراحة فى المدن والقرى ، ولم يكن الاضطراب الذى ساد آخر الايام مانعا للناس عامتهم وخاصتهم من انجاز اعمالهم العمرانية التمدينية ، فكان الخلاف حول الحكم والولاية يكاد يكون خاصا ببعض الطبقات ؛ اما بقية الناس فكانت دائية على اشغالها ، قصاراها من امور الدولة انها تجد دائما القاضى النزيه الذى يفض ما يقع بين الناس من مشاكل ، وتدفع زكواتها بنظام لمثل السلطة مهما كان اسم متولى الامر . اما الخلافات العنصرية والقبلية ، التى اشتعلت نيرانها موقدة سنة ٢٨٤ ، فقد نامت الى حين ، وبقي دعواتها وزعماء فتنها يتربصون الفرص ، الى ان تمكن الفاطميون من نصب سلطانهم ، فالتهمت النيران ، وسفكت الدماء ، ووقعت فتنة صقلية الكبرى ، مما جعل استاذنا الكبير الشيخ عبد العزيز الثعالبي رحمه الله يقول فى تذييله لكتاب « غزوات العرب فى البحر المتوسط » ، للامير شكيب ارسلان ؛ ما نصه :

« واستمر نجم الاسلام صاعدا فى اوروبا بعد هذه الواقعة العظيمة (الانتصار البحرى سنة ٢٧٥) وامراء الاغالبية لا ينفكون عن تعزيز المسلمين فى ولاياتهم الاروبية ومراقبة حركات الصليبيين مراقبة عنيفة تحبط كل مسعى فى الانتكاك ، حتى دان من فى حوزتهم من النصارى للاسلام ، وتذوقوا حلاوة تحريره اياهم من ظلم الامراء الاقطاعيين وطغيان الكنيسة الكاثوليكية ، واستمر ذلك الى ان ظهرت النبعة الآئمة نبعة الدعوة العبيدية فى قبيلة كتامة البربرية من المغرب الاوسط ، وقدر لها ان تجتاح الدولة الاغلبية فتعطل الفتح فى اوروبا ، وانقلبت جيوش افريقيا مغيرة على العالم الاسلامى لتقويض

دولة بعد أخرى ، وهدم الخلافة العباسية القائمة في المشرق ، وبسبب ذلك تحولت السياسة الإسلامية تجاه أوروبا من الهجوم والتوثب ، إلى الدفاع والتسليم .

ولم يجن أحد على الإسلام ما جناه عليه هؤلاء العبيديون أو الفاطميون ،
الخ . مما سياطيك تفصيله بعد حين .

القسم الخامس

الحكم الاسلامى ايام الدولة الفاطمية

عصر الولاة والارهاب

الحسن بن احمد بن ابي خنزير

لا بدع ان أحدث انهيار الدولة الاغلبية ، وقيام الدولة الفاطمية ، اثرا عظيما في البلاد الصقلية . على ان اواخر ايام الاغلبة لم تكن فى صقلية ايام راحة وهدوء واطمئنان ، فكانت حوادث افريقيا ضغنا على ابالة ، وكانت السنوات الاولى من انتصاب الحكم الفاطمى بالجزيرة ، ايام اضطراب سوداء ومذابح شنيعة ، ان اسفرت عن شىء فعن خلاف جسيم وشقاق ذريع بين الجموع العربية التى كانت قوام دولة الاغلبة ، وبين الجموع البربرية التى ترى انها صاحبة الدولة ايام الفاطميين ، فقضت الجزيرة من جراء ذلك عصرا من اسوأ عصورها .

الا ان ذلك لم يدم طويلا ، وعاد الاستقرار بعد حين ، على يد بعض كرام الولاة فى اول الامر ، وعلى يد عائلة بنى الحسن اخيرا .

عندما توطدت اقدام عبيد الله المهدي سنة ٢٩٧ فى ملك افريقيا ، ارسل من قبله واليا على صقلية ، الحسن بن احمد بن ابي خنزير ، من زعماء كتامة البربر الذين ايدوا الشيعة الفاطمية ونصروها فدخل بالرمة دخول الفاتح المنتصر ، ولم يسر هنالك سيرة امير مسلم ، بل سار هنالك سيرة امير عنصري بربرى ، فكانت اعماله كلها متجهة نحو بربرة البلاد ، وتوطيد دعائم النعرة العنصرية البربرية ، فسكت العرب اول الامر عن مضض ، وقد شعروا انهم قد خسروا بانهيار الدولة الاغلبية تفوقهم ونفوذهم

وشعر المسلمون الصادقون ، وكثير عددهم ، بان هذه النعرة الجديدة سوف تكون نواة الحراب والدمار ، اذ تحل الدسائس العنصرية والخلافات المذهبية محل الاخوة الاسلامية السالفة .

تاريخ صقلية - ٩

ولم يكتف الحسن بن احمد بمحاولة تغليب العنصر البربري على العنصر العربي بل زاد الطين بلة بمحاولة الناس عامة على اعتناق المذهب الشيعي بدل الاكتفاء منهم بالطاعة السياسية تاركاً لهم حرية الدين .
وما كانت هذه الاعمال لتنتهي الا بالانتفاض واراقة الدماء .
ثار العرب وثار معهم اهل السنة عامة فخلعوا طاعة الحسن بن ابي خنزير ، لكنهم لم يستطيعوا اعلان ما تكنه نفوسهم اذ ذاك ، ولم يجدوا القوة الكافية والزعامة الحقيقية للتخلص من السلطة الفاطمية ، فراسلوا المهدي معتذرين عن ثورتهم بسوء سيرة الوالي وفساد اعماله ، وافن رايه ، وما تسبب فيه من فتن هو جاء بين المسلمين .

علي بن عمر البلوي

تقبل المهدي على كره منه اعتذار مسلمي صقلية ، فاعلن عزل الحسن ، واولى مكانه علي بن عمر ، سنة ٢٩٩ ، وكان شيخاً هرمًا ، لين المريكة ، كريم الاخلاق اراد ان ياخذ الناس بالحسنى ، وان يقابل الفتن باسداء النصائح وكانت القبائل البربرية التي قدمت البلاد والتي استقرت فيها من قبل ، قد التفت حول الحسن وعلي ابني الوالي المعزول الحسن بن ابي خنزير ، فاصبح لهذين الولدين النفوذ المطلق والسلطة الحقيقية ، وسارا تحت سلطة الوالي الواهية ، على تنفيذ خطط ابيهما ، من حيث التفرقة العنصرية الآثمة ، ومن حيث فرض المذهب الشيعي على البلاد .

هنالك لم يجد العرب واهل السنة عامة من بربر ومولدين مخرجاً لهم من تلك المحنة ، الا اعلان الثورة ، والانتفاض على سلطة الفاطميين .

احمد ابن زيادة الله بن قره ب

جمعوا امرهم يومئذ وقاموا بحركة منظمة ، وعلموا انهم ما داموا على ولاء المهدي فالحالة لن يتطرق اليها ادنى تغير . ففي السنة الموالية لولاية علي بن عمر سنة ٣٠٠ رفعوا لواء العصيان وقبضوا على الوالي علي بن عمر وعلي

ولدى بن ابي خنزير واركبوها البحر الى افريقيا ، وبايعوا بالولاية احمد ابن زيادة الله بن قره ب وهو من قرابة الاغالبة .

الحلافة العباسية - كار احمد بن قره ب كارها للولاية ، حتى انه عندما رأى الناس اجمعوا على تقديمه لها فر من وجههم ، وآوى الى غار يحجبه عنهم ، فامعنوا فى طلبه واخرجوه من مخباه واقسموا له ليكونن فى طاعته وليموتن دونه ، فقبل الامر اذ لم ير محيصا عن ذلك ، انما اشترط عليهم ان لا يتولى الامر الا معتمدا على الحلافة العباسية ، نابذا لدعوة الشيعة وما فيها من تعصب مذهبي وعنصري ، وهكذا كان . فتولى الامارة معتزا باهل السنة من عرب وبربر ومولودين ، وراسل الخليفة المقتدر بالله فى بغداد يعلن القيام بدعوته ويضع امارته تحت سلطته ، وجاءته رسل الخليفة تحمل الا لوية السوداء والخلع الأسود شعار الحلافة العباسية . ثم وقف ابن قره ب وقفة الامير الحازم والزعيم القوى الشكيمة الجسور فى الحق ، فضبط الامور واستقامت له الاعمال ، وسكنت الفتن الظاهرة الا ما كان كامنا منها تحت الرماد .

رجوع الفاطميين واندحارهم - ما كان عبيد الله المهدي وما كانت قبائل كتامة ومن لف لفها لترضى بخروج صقلية عن الامر ، واصباحها مركزا للدعاية العباسية العربية السنية ، وادركوا ما فى ذلك من خطر جسيم على الدولة الناشئة فوقفوا للامر موقفا حازما ، وراوا وجوب المبادرة باطفاء هذه الجذوة قبل ان يستفحل امرها .

جهز المهدي اسطوله وعمره برجاله الاشداء ، ووضع على رأسهم ابن ابي خنزير بعد ان أعلن من جديد ولايته على صقلية، فسار الاسطول والقى مراسيه فى مدينة رمطة ، انما رجال ابن قره ب لم يكونوا غافلين . فتلقوا ذلك الاسطول بما جمعوه لمثل ذلك اليوم من قوة ، والتقى الجمعان سنة ٣٠١ ، وفاز اهل صقلية فوزا مبينا فاحرقوا اسطول المهدي واسروا ستمائة من رجاله وقبضوا على الحسن بن ابي خنزير نفسه ، وكان قد آلم من قبل نفوسهم وترك فى قلوبهم ضغينة لا تنسى ، فقتله ابن قره ب تشفيا وانتقاما .

ندالة وسقوط - جهاز المهدي حملة جديدة سنة ٣٠٣ ، سيرها على صقلية ، محاولة استرجاعها ، فباعت بفشل ذريع .

لكن المهدي ان لم ينصره اسطوله على صقلية ، فقد نصره فيها دعاة الهزيمة او رجال الكتيبة الخامسة حسب التعبير الحديث .

فقد قاموا يومئذ بدعاية واسعة النطاق ، تمكنوا من اقناع خاصة الناس وعامتهم بها اذ قالوا : ان المهدي لن يصبر عن اندحاره المتوالى فى صقلية ، وانه لا ريب راجع علينا باسطوله وخيله ورجله مما لا قبل لنا به ، فالرأى الاسد هو اعلان التوبة والندم والرجوع لحكمه ، وخلع طاعة بنى العباس الذين لم نر منهم الا شعارهم الاسود ، ولا يستطيعون امدادنا بشيء . (وهذا فى الحقيقة امر لا مرأى فيه)

وصل الامر لعلم ابن قريه فجمعهم وذكرهم بما قطعوه له من عهود ومواثيق ، فما اغنى ذلك عنه شيئا وتصلبوا فى مرادهم ، فاستسلم امام ارادتهم واخذ يجمع امواله ومتاعه وجهاز مركبا يحمله مع ذويه الى بلاد الاندلس فرارا بنفسه .

قال رجال الكتيبة الخامسة : الأليق بكم هو ارسال ابن قريه قريه للمهدي وتزلفا ، عله يراها لكم يدا ويعفو عما اسلفتموه من خلع طاعته ، فوجدوا من الدهماء اذنا صاغية ، وخالف بعض رجال الشهامة هذا الرأى الآفن ، فقامت من اجل ذلك فتنة بين الفريقين تغلبت فيها الندالة على الرحلة ، فالقى القبض على ابن قريه وارسل به هو وولده وقاضيه الى المهدي ، وطلبوا مقابل ذلك ان يرسل لهم المهدي واليا من قبله ، وقاضيا يحكم باسمه ، وهم يقومون فى بلادهم باعمال الضبط والجهاد ، اى انهم طلبوا نظام « الدومينيون » او الحكم الذاتى حسب الطريقة المعروفة الآن .

فى المحرم سنة ٣٠٤ (٩١٦) وصل ابن قريه الى مدينة سوسة ووقف امام المهدي هو وولده وقاضيه ، وكان يعلم ما ينتظره فى مثل ذلك الموقف ، فاستجوبه المهدي ووبخه على مخالفة الدولة ونقض عهدها ، واقدامه على قتل الحسن ابن ابى خنيزر فدافع ابن قريه عن نفسه دفاع الضعيف وقال مما

قاله : لقد اولانى الناس امرهم وانا كاره . ثم عزلونى وانا كاره .

راى المهدي يومئذ ان الحلم ربما اعتبر ضعفا ، وان زجر صقلية قد اصبح محتما بعدما ظهر منها ، فامر با بن قريه وولده وقاضيه ان يضربوا ضربا مبرحا ، ثم قطعت ايديهم وارجلهم على قبر الحسن بن ابى خنيزر ثم صلبوا ، وكانت هذه المعاملة الفظيعة التى فشا ذكرها فى طول البلاد وعرضها ، انذارا رهيبا لكل من تحدته نفسه بالخروج عن الطاعة ، والانتقاض .

ابو سعيد الضيف موسى بن احمد

اما اهل صقلية . فقد ارسل اليهم المهدي اجابة غريبة لمطلبهم : رجلا من زبانية البشر هو ابو سعيد الضيف موسى ، على راس اسطول قوى وجيش عتيد ، فنزل ارض صقلية فاتحا غازيا كانه فى بلاد غير اسلامية ، وراى اصحاب فتنة ابن قريه ان النذالة لم تغن عنهم شيئا فجمعوا امرهم فى بلرمة وتحصنوا بها ، وامتنعوا عن ابى سعيد ، فجاءها ووقف على جدرانها وقفة الجبار العنيد ، وحاصرها اشهرا الى ان نفذ منها الزاد والصبر ، فافتتحها واطلق يد جنده من قبائل كتامة فانتهكت الحرمات ، واستباحت المحرمات ، وهدمت الديار ، وخربت المعالم ، واخذ ابو سعيد خيل القوم وسلاحهم والرفيع من متاعهم ، ثم ضرب عليهم مغرما ثقيل فادحا ، ولم يكفه كل ذلك من اعمال الزجر والتنكيل ، فاخذ وجوه القوم واعيان البلاد ، وبعث بهم اسرى الى افريقيا ، واراد الله لهم الهلاك ففرقت مراكبهم فى البحر قبل وصولها .

ساد على الجزيرة يومئذ سكون هو سكون الموت ، وخضع الجميع لسلطة الفاطمية خضوع من لم يبق فى فمه لسان ، ولا فى يمينه سنان ، وسكن رجال كتامة قرى وقصور المغلوبين واصبحوا اصحاب الحول والطول فى البلاد ، واستمر ذلك الى اذا انتهت اعمال الزجر والتنكيل ، وعمرت المدائن والثغور برجال الدولة الجديدة ،

فقفل الضيف (واى ضيف هو !) راجعا الى القيروان بعد انجاز مهمته ،

وقد دامت نكبة صقلية الدهماء ، كما رأيت ، نحواً من عشرة اعوام ، فى
الفترة الاولى .

سالم بن راشد

• ارسل به المهدي واليا سنة ٣٠٥ فكانت نيته متوجهة لاستئناف الجهاد
وانجاز ما شرع به اسلافه من ولاية بنى الاغلب من فتح جنوب ايطاليا .

الفتح فى جنوب ايطاليا - كان اسطول المسلمين قد اشتد باسه وقويت
شوكته يومئذ ، وكان يقوده امير البحر ابو جعفر احمد بن عبيد ، فافتح فى
فلورية مدينة وارى Orià بعد معركة هائلة اسفرت عن مصرع ستة آلاف من
الانصارى واخرج من المدينة عشرة آلاف سبية ، واسر فيها بطريقا ، صالحه
عن نفسه وعن مدينة بخمسة آلاف مثقال من الذهب ، ثم جاء قائد الاسطول
يسلم للمهدي تلك الغنائم الباهرة ، فقال بعض رجال الحاشية : تا لله ان الذى
يؤدى هذا لهو الامين ! فجاب المهدي : والله ما اعطاني من الجمل الا اذنيه !

ومن هنا تدرك ان عبيد الله المهدي كان كثير الشكوك وكان لا يستثيق احدا
ثم فى سنة ٣١٣ ، وثب سالم بن راشد على مدينة طارنته الكبيرة الشهيرة
فتلقاه اهلها بدفاع حار واستماتوا دون مدينتهم ، وكانت ملحة هائلة اسفرت
عن انكسارهم واحتل المسلمون المدينة وثبتوا فيها .

فى سنة ٣١٥ ، استولى الاسطول على قلعة الخشب واستحوذ على ما كان
فيها من خيرات وارزاق ، وسار يؤم مدينة سالرنة الشهيرة Salerne
التي اصبحت من بعد ، بفضل علماء المسلمين اكبر كليات العالم القديم ، وكان
الفريد امير سالرنة يعلم ضعفه امام المسلمين ، ويدرك انه لا قبل له بمقابلة
اسطولهم الذى ملأ البحر رعبا فاستنجد للدفاع عن مدينته برجال النرمان
الذين اخذ نجمهم يتألق فى البحر يومئذ .

صفحة بيضاء - القاضى ميمون - خلال هذه الايام السوداء الكدرة ،
وفى وسط هذه الفتن الدهماء ، برى لزاما ان نسجل صفحة طاهرة من اجل
واروع صفحات القضاء الاسلامى هى صفحة القاضى ابى عمر وميمون ،

لترى منها ان الاضطراب ان كان شاملا كل نواحي السياسة والادارة ، وان
البلاء ان كان مخيما على الناس من كل جهاتهم ، فهناك ناحية بقيت فى معزل
عن الفتن ، وهناك سلطة لم تمتد لها يد الطغيان بسوء ، الا وهى ناحية
القضاء الاسلامى الذى بقى نزيها طاهرا نقياً ، يلتجئ اليه الناس فيجذبون
فيه الملجأ الامين ، ويحتكمون اليه فلا يجدون فى انفسهم حرجا مما قضى
ويسلمون تسليما .

نروى عن رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقيا ، انه فى سنة
٣١٦ (١) ، ايام ولاية سالم بن راشد الشديدة القاسية ، توفى بمدينة سوسة
القاضى ابو عمر وميمون بن عمر ، وكان رجلا صالحا ذا دين وفضل سمع عن
سحنون ، وكان معدودا فى اصحابه ، ولى مظالم القيروان ثم ولى قضاء صقلية ،
فلما ولى قضاءها اجتاز بسوسة ، فقال : يا اهل سوسة ، هذا كسائى وهذه
فروتى وهذا خرج فيه كتبى ، وهذه السوداء تخدمنى ومعها جبة وكساء فبهذا
دخلت عليكم فانتظروا باى شىء راجع .

قال ابو الربيع : فاخبرنى سعيد بن عثمان من اهل صقلية ، انه لما وصل
اليها قلنا له : هذه دار القضاء تنزل فيها ؟ ونزل فى ديرة لطيفة ، وكانت
السداء تغزل وتبيع غزلها وتنفق عليه من فضل ذلك ، فاذا ضرب احد
الباب خرجت اليه ، وقالت الساعة يخرج عليكم القاضى الى ان اعتسل ،
فاقام ثلاثة ايام لم يخرج ، ففرغ النس الباب فخرجت لهم السداء وقالت
ادخلوا فعودوا القاضى فانه مريض ، فدخلنا عليه فاصبنا وسادتى محشوتين
تبنا عند راسه وحصيرة بردى تحته ، فلما رآنا بكى ، وقال والله انسى
اجتهدت ما استطعت ، ثم خرج من صقلية وهو مريض وقال لاهلها : خلف
الله لكم بعدى بخير ، فقالوا صحبك الله بالعافية ، فوصل الى سوسة فقال
يا اهل سوسة : كما دخلنا عليكم رجعتا اليكم ، هذه كسائى وجبتى وخرجى
فيه كتبى وهذه السوداء تخدمنى .

(١) فى كتاب العبر للذهبي انه مات سنة ٣٢٠ ، بعد ان عمر مائة عام .

قال محمد بن الحارث بن اسد الحشني في طبقات علماء افريقيا : ادركته مقعدا شيخا كبيرا ، وكان له دين ومكان على سنه ، عهدي به سنة ٣٠٣ ، وانا اقرا عليه موطأ مالك فقرأت عليه فيه كلاما لعمر بن الخطاب فجعل يبكي خشية وتواضعا ، فاني لفي ذلك المجلس بين يديه حتى دخل عليه داخل ، فقال : فتحت صقلية • فجعل يتأسف •

والمقصود هنا بفتح صقلية ، هو دخولها تحت طاعة الدولة الفاطمية •
مبدأ ظهور النرمان - رأينا في مقدمة هذا الكتاب التاريخية من هم النرمان وكيف انتشروا في شرق اوروبا وفي غربها ، ونفتح هنا باب البحث عن تدخلهم في امر صقلية ، ذلك التدخل الذي ابتداء امره عند انهيار الدولة الاغلبية وانتهى بزوال السلطة الاسلامية عن الجزيرة •

في سنة ٣٠٠ ، وفي الايام الاولى من ولاية ابن قرهب ، كان جماعة من النرمان يرجعون لوطنهم نرمنديا من زيارة القدس الشريف، واذ كانوا على مقربة من صقلية استنجد بهم البعض من النصارى هنالك ضد المسلمين ، وكانوا في حرب معهم ، فانجدوهم ونصروهم على عدوهم •
واذ رأى نصارى صقلية ان امبراطور الروم قد تفاقل عنهم ، وان نجداته المتوالية لم تكن بذات اثر فعال ، طلبوا الى رجال النرمان البقاء عندهم ، والأتیان بقومهم اليهم ، حتى ينتصر المسيحيون هنالك نصرا نهائيا على المسلمين •

(١) بمناسبة ذكرنا للقضاة والقضاة الاسلامي نذكر طريقة القضاء في ذلك العصر ببلاد المسيحية : كانت الصداقة تعتمد في الاغلب يسومند على احدي طريقتين : الاولى هي المعروفة باسم « حكم الله » وذلك بان يحمل المتهم بين يديه قطعة من الحديد المحمر بالنار ويسير بها بعض خطوات ثم يلقى بها الى الارض ؛ فان خلفت النار آثارها بيديه بعد ثلاثة ايام كان مجرما واستوجب القصاص وصارم العقاب ؛ وان خلت يده من آثار النار بعد ثلاثة ايام اعتبر بريئا واطلق سبيله .

اما الطريقة الثانية فهي المبارزة العدية ؛ وذلك بان يلتقي المدعى والمدعى عليه ، وفي يد كل منهما سيف ويتبارزان ، فالغالب في المعركة هو صاحب الحق والمغلوب هو الظالم المعتدى ؛ وان كان المدعى او المدعى او كلاهما غير قادر على استعمال السلاح فله ان يكلف وكيلا للدفاع عنه بواسطة السيف .

اعتذر يومئذ رجال النرمان عن البقاء ، انما وعدوا بارسال جماعة اخرى من قومهم ، اشد مراسا منهم واقدر على النضال والقتال ، ثم رجعوا الى بلادهم يحملون اليها ما انتجته المدينة الاسلامية فى صقلية ، من نفائس المنسوجات الحريرية ، ومن سكر وبرتقال وثمار شهية كانت مجهولة كلها يومئذ فى اوروبا ، ورغبوا شبانهم فى ارتياد تلك الناحية طلبا للثروة ، تحست ستار الدفاع عن المسيحية ، والجهاد ضد المسلمين ، فكان يرتقال صقلية مذكيا لنهم النرمان ، كما كان تين قرطاجنة من قبل مذكيا لنهم الرومان عندما اخرج قاطون من كمه حبات من التين وخاطب المجلس قائلا : ان ارضا تنبت مثل هذه الثمرات يجب ان تكون لنا .

من ذلك الحين اخذ قرصان النرمان يجوبون تلك البحار ويترصدون الفرس التى تمكنهم من تقويض سلطان المسلمين .

استمرار الفتح فى جنوب ايطاليا - وفى سنة ٣١٧ كانت عمارة اسلامية مؤلفة من اربع سفن ترتاد البحر فلقيت اسطولا طليانيا مؤلفا من سبع سفن ، فداهم الاسطول الاسلامى اسطول الطليان ودحره وكانت نتيجة هذا الانتصار البحرى ان استولى المسلمون على مدينة طرمولى Termoli ومن اغرب غزوات هذا العهد غزوة القائد يعقوب ابن اسحاق ، فقد سار على راس اسطول ضخم من اساطيل المسلمين ، قاصدا شمال ايطاليا ، فاصطف امام مدينة جنوة Gene درة ايطاليا اللامعة ومرساها الذى سارت بذكره الركبان ، ونازلها فانس منها ضعفا ، فانزل جنده وبحارته وصادمها صدمة عنيفة مكنته من اكتافها ، فاحتلها ونصب فوق جدرانها راية المسلمين الظافرة الى حين .

الثورة - لم تكن هذه الحروب الخارجية ، وما كلل الظفر به هامتها من فخار ، لتشغل سالم بن راشد عن الحذر والانتباه ، خشية انتقاض اهل صقلية الذين الفوا الثورة ، وسكنت قلوبهم الاحقاد والضعائن ، اثر اعمال الزجر والتنكيل التى قام بها سلفه والتى تجعلهم يندفعون فى ذلك السبيل لادنى مناسبة .

وتو ان سالما والذين ارسلوا به واليا من قبلهم ، رأوا ان يسلكوا يومئذ

سياسة اللين والمجاملة ، وجبر القلوب المتكسرة ، واسدال ستار النسيان عن الماضي القريب لكان ذلك اوفق لهم واهدى سبيلا .

لكنهم رأوا عن قصر نظر ، وسيرا من اهواء النفس واندفاعا مع نعمة عنصرية ممقوتة زادها الانتصار بطرا ، ان يمعنوا فى سياسة العنف والشدة وان يرهقوا الناس الى اقصى درجة الارهاق ، قتل لروح التمرد فيهم وقضاء على ما فى نفوسهم من طموح .

وما رأينا فى التاريخ ان سياسة مثل هذه السياسة انتجت غير الثورة والدماء والخراب والدمار ، وما انتج الضغط كما يقولون الا الانفجار .

فان كانت بالرمة وضاحتها قد نالها من اعمال الزجر والتنكيل ما اخمد انفاسها الى حين ، فان جهات اخرى من البلاد كانت لا تزال محافظة على قوتها الروحانية قابى الضيم ، وتستنكف عن الخضوع للطغاة الجبارين ، فانتضت ناحية جرجنتى انتقاضا جعل سالم بن راشد يعجز عن اخماده ، فارسل الى المهدي يستنجد الامير ابا القاسم بن عبيد الله المهدي ويهول له امر الثورة ، ويزين له طريقة اخمادها بين الحديد والنار ، واسقاط كل راس تحاول الارتفاع فاقتنع الخليفة الفاطمي وارسل على صقلية جندا جديدا ، سنة ٣٢٥ (١)

خليل ابن اسحاق

ولم يكن الجند الذى ارسله الخليفة على صقلية هو وسيلة الزجر والتنكيل بل كانت الوسيلة الحقيقية للبطش والارهاب ، متقصصة شخص الوالى الجديد الجبار العنيد خليل بن اسحاق الطاغية ، او حجاج المغرب وصقلية ، انمسا

(١) فى سنة ٣٢٣ ، تولى حكم مصر من قبل بنى العباس محمد بن طفج الفرغانى التركى الملقب بالاخشيد ؛ فاعلن استقلاله كما فعل من قبل ابن طولون وتولاها آله من بعده ، ثم تولاها عبيد الله الاسود كافور الاخشيدى ؛ الذى خلد اسمه ابو الطيب المتنبى ؛ بما قاله فيه من مدائح رفعت الى السماك الاعزل ، ومن مهاجى نزلت به اسفل الحضيض ؛ وانتهى امر هذه الدويلة التى ملها الناس على يد جوهر الصقل قائد الفاطميين الذى احتل مصر ، واختط مدينة القاهرة التى اصبحت عاصمة الدولة الفاطمية ، وانشأ الجامع الازهر (٣٦٠ م - ٩٧٠ م) .

ليس له من الحجاج بن يوسف الاجراته على سفك الدماء والبطش على
السواء بالمجرمين والابرياء وليس له عمله وذكاؤه وفصاحته .

ان كان سالم بن راشد شديدا في سياسته ، فانه لم يكن يصل بتلك
الشدة الى درجة الفظاعة ، ولم يكن يريد سفك الدماء الادماء الذين يعتقد فيهم
النزوع للفتنة او يرى في القضاء عليهم قضاء على الثورة والعصيان ، فما كادت
تستقر اقدام النقرة التي تسمى خليل بن اسحاق في ارض صقلية ، حتى
ادرك سالم بن راشد فداحة الخطب وامتداد الكارثة التي كان بنفسه سببا
لها ، فاعلن مع جماعة كبيرة من القوم انه لا يشارك الوالي الجديد في اعماله
وانتحي جانبا معلنا بنفسه الثورة التي كان استمد الخليفة لاطفاء نيرانها ،
وكان يريد ان يرسل له الخليفة حندا ، لا ان يرسل مع الجند واليا جديدا .
ابتدأ خليل ابن اسحاق امره باختطاط قرية في ضواحي بالرمة ، حصنها
وشاد فيها القصور وديار الجند واسماها « الخالصة » واتخذها مسكنا له
ولخاصته ووجوه جنده تحميمهم عند الحاجة من ثورة السكان ، واخذ لعنه الله
وسود اسمه في التاريخ الى الابد يمعن في الظلم ، ويبلغ في الجور والافحاش
درجة لم يسمع مثلها من قبل ولا من بعد ، ولم تكن نتيجة لهذه الفظاعة ازهاق
النفوس ولا موت الناس جوعا فحسب ، بل انها جعلت بعض الناس ، وقد
راوا مدى الكارثة التي اصابوا بها في اموالهم واعراضهم ونفوسهم يفرون من
صقلية ومن جنوب ايطاليا ، ويدخلون ارض النصرانية ، ويعتنقون هنالك
الديانة المسيحية ولو بصفة صورية .

ولقد قضى هذا الفاجر اربعة اعوام في صقلية يقتل وينهب ، وينتهك
الحرمات ويجوع ويظلم ، وكان اثناء ذلك يوالى حصار جرجنتي التي استعصت
عليه ، اذ علم اهلها مالهم ان هم استسلموا ، ودام الحصار اربعة اعوام كاملة
الى ان ضاق عليها الخناق فاحتلها ونكل بها تنكيلا لا يوصف ، ثم اراد العودة
الى افريقيا وقد اعتقد انه انجز مهمته للينة فحمل معه جماعة كثيرة من وجوه
الجزيرة وكبرائها وعلمائها ، زعم انه يريد ان يقدمهم للخليفة بالمهدية ، وامر
في عرض البحر فثقبت المراكب التي كانت تحملهم ، وهنالك بين امواج البحر

المتوسط الذي جاهدوا وجاهد اجدادهم في سبيل سيادته ، قضوا نحبتهم
شهداء الجور والفظاعة والنقمة العنصرية

ولقد حضر هذا اللعين خليل بن اسحاق مجلس الخليفة في المهديّة ، فكان
يفخر الناس بشروعه وآثامه وفضائعه ، ومما قاله تقريبا الى الخليفة كانه
فعل ذلك في سبيل دعوته وتوطيد سلطانه : « اننى قتلت في امارتى الف
ألف نسمة » . فأجابه أحد علماء الدولة الشيعية ، أبو عبد الله المؤدّب « لك
يا ابا العباس في قتل نفس واحدة ما يكفيك ! »

الروم والبرمان - في هاتيك الاثناء ، والمسلمون يقاسون محنة لم يسبق لها
مثيل ، وسيوف بعضهم تحز في رقاب البعض الآخر ، كان المسيحيون عامة
ينظرون هذه الحوادث الرهيبة بعين الجذل والسرور والامل ، فكان الروم
يعدون العدة لمهاجمة الجزيرة بقوة ، وارجاعها لسلطان القسطنطينية ، وكان
المدد من ناحيتهم يتري للنصارى الذين بقيت لهم في صقلية بقية ، وكان
رجال البرمان من جهة اخرى ، يقدون زرافات في مراكبهم الخفيفة فينقضون
على المسلمين في جهة بعد جهة ، يغمون منهم السبايا والاسلاب ، ويعودون
لبلادهم .

واخيرا ما كادت تنتهى ايام خليل بن اسحاق الرهيبة ، حتى تركت في
صقلية جرثومة الداء الذي سيقضى عليها بعد حين : ذلك أن جماعة قوية من
البرمان نزلوا سنة (٣٢٧) ناحية من صقلية ، وتحصنوا فيها ، وجعلوها
مركزا منيعا لما يقومون به من قرصنة في البحر ، ومن غزوات وانتهاب في
البر ، وهكذا بينما كان المسلمون يقاتل بعضهم بعضا ، كان النصارى
يقاتلونهم جميعا ومن كل جهة .

ولقد كان البرمان في اول عهدهم بالغزو في صقلية كما قال عنهم العلامة
غوستاف لوبون : يشتغلون بنهب الطليان واليونان والعرب على السواء بهمة
ونشاط دونهما همتهن ونشاطهن في الدفاع عن الدين (المسيحي) .

عطاف الازدى

ارسل به المنصور واليا على صقلية ، لكى يستمر على سياسة اسلافه الذين سبقوه بشر فى تلك الولاية منذ تمهد الامر لدولة الفاطميين واستولى رجال كتامة بغلظتهم العنصرية على زمام الملك .

كانت صقلية يومئذ تسبح فى بحر من الدماء ، فان كان رجال الفاطميين رأوا ان لاسياسة لهم هنالك الا سفك الدماء والامعان فى الظلم والزجر والارهاب اقتلاعا لجذور الثورة وخنقا لكل فتنة مقبلة فى مهدها ، فسان البقية الباقية من رجال صقلية الاولين رأوا ان الشدة لا تقابل الا بالشدة وان الشر لا يمنع الا بالشر ، وان الدم لا يغسل الا بالدم ، فكانت ثوراتهم تتوالى بعد سكون قليل اثر عمليات الارهاب السالفة ، وكان الروم كما رأينا قد استضعفوا المسلمين فى هذه الايام السوداء وتكالبوا عليهم وامتنعوا عن دفع مال الجزية الذى تجمع بذمتهم واخذوا يستعدون للملحمة الكبرى ، والنرمان من جهتهم كانوا يحصنون مركزهم الذى استولوا عليه بسبب الثورة والقتال بين المسلمين ، ويستعدون كذلك للملحمة الكبرى واستخلاص صقلية لحسابهم الخاص ، بينما كان الروم يريدون استرجاعها تحت سلطاتهم .

لم تكن ايام عطاف الازدى طويلة بصقلية ، ولم يستطع ان يعمرها على قصرها بعمل يذكر ، وكان اهل بالرمة قد ارادوا التخلص نهائيا من هذه المظالم والشرور والآثام ، فتالفوا وتحالفوا حول عصبة بنى الطبرى وثاروا بعطاف يوم عيد الفطر سنة ٣٣٥ ، فالتجأ الى قلعة الخالصة وامتنع فيها ، ثم سار وفد منهم الى المهديدة يفارض المنصور فى شأن صقلية واقرار الحكم فيها على اسس مثينة من العدل الاسلامى والتساوى بين الجميع ، وحرية فيها على اسس مثينة من العدل الاسلامى والتساوى بين الجميع ، وحرية المعتقد والمعاملات ، واوصى الوفد رجال بالرمة ان لا يقبلوا اى عامل يفسد عليهم من المهديدة الا بعد انتهاء المذاكرات وورود رسائل منه تشعرهم بذلك .

لكن ازمة صقلية كانت قد انتهت الى حين ، وادرك المنصور بالله اسماعيل ابن القاسم بن عبيد الله خليفة المهدية او تلك السياسة التي سلكها اسلافه لم تات الا بعكس النتيجة المطلوبة ، وان قيطرا اسلاميا هو طبيعة المسلمين نحو الارض الاروبية بوشك ان يسقط برمته تحت قبضة النصارى ، بسبب تلك الشدة وذلك الارهاب ، فاقتبل وفد صقلية ، واستجاب لما عرضه عليه ، وعندما بلغه نبأ ثورة بالروم على عطايف الازدي ، بادرت بتعيين فاضل من فضلاء الأمة ووجيها من وجوه الدولة ، هو الحسن بن علي بن ابي الحسين الكلي واليا على صقلية وممثلا الدولة فيها ، على ان يسلك هنالك سياسة جمع الشمل ، واتفاق الكلمة ، والاستعداد لمقارعة النصارى الذين كانت دعوة الحرب لصليبية ضد الاسلام والمسلمين تلهب قلوبهم وتتقد في افئدتهم نارا .

وصل الحسن صقلية مفتتحا بها عصرا جديدا كان عصر ازدهار وجهاد ونمو ، سنة ٣٣٦ (٩٤٧) وانتهى بذلك عصر الشرور والآثام والمصائب والفتن والتنكيل والارهاب ، الذي دامت مدته نحو من ٥٠ سنة ، تتخللها لا محالة فترات راحة نسبية ، وكانت هذه الفترة التعسة في تاريخ صقلية من اكبر اسباب انهيار ملك المسلمين فيها ، وتغلب النصارى فيما بعد عليها ، وذلك لان المسلمين قد استنزفوا كل قواهم في تلك الثورات المتوالية ، ولان اعمال الزجر والتنكيل قد ذهبت باحسن القوم وازدت اكثرهم قوة واشدهم نفوذا ، ولان الخلاف اللعين بين المسلمين : بين سنة وشيعة ، وبين عرب وبربر ، قد توطن في النفوس وتوطد بكيفية لم تستطع صقلية التخلص منها فيما بعد الا بصفة سطحية ، ولان المسلمين خلال تلك السنين النعسة قد تركوا امر النصارى وامر الجهاد ، فتمكن هؤلاء . تمكنا جعلهم يعيدون الكرة على المسلمين ، فان باء الروم بالانحدار فقد نال الثرمان آخر الامر كل الفوز والانتصار .

القسم السادس

الحكم الاسلامى ايام الدولة الفاطمية

عصر الاستقلال الذاتى السعيد

الحسين بن على بن ابي الحسين

جاء الحسن واليا من قبل المنصور ، يخال بين بردتى فضل وشم ، وكان معه اسطول يحمل جندا ومتاعا ، فنزل مدينة مازرة ، سنة ٣٣٥ فلم يلقه احد هنالك ، ولما جن الليل ، جاءت جماعة من كتامة ومن وجوه الجند الافريقى واعلموه انهم لم يحسروا على لقائه نهارا خوفا من رجال الطبرى ورجال الثورة المتقدمة ضد عطف وضد الحكم الفاطمى ، وضد سياسة الشدة والارهاب ، وأوصوه بالحذر الشديد ، ايفارا لصدوره ، وحثا له على الاستمرار فى سياسة البطش والارهاب .

لكن الحسن كان غير الرجال السابقين . وقد جاء صقلية يحمل فكرة صالحة ويمتزم سلوك سياسة رشيدة ، ضاربا صفحا عن كل ما تقدم من أمر الفتن والاضطراب .

سار فى جنده وموكبه ودخل بالرمة العاصمة ولم يكن آل الطبرى قد اتصلوا برسائل من وفدهم بالمهدية لكنهم لم يجسروا على مقابلة الحسن وراوا التريث والتعهل الى أن يظهر امره وتتجلى سياسته .

العدل اساس الملك - رأى آل الطبرى يومئذ الالتجاء الى مكيدة تمكنهم من سبر غور الوالى وتجعل لهم الحجة فى اعلان الانتقاض عليه واثارة العامة والدهماء ضده فاتفق السيد اسماعيل آل الطبرى مع أحد غلمانه واستدرج الى داره احد عبيد الحسن ومهد له سبيل الاختلاء بجويرية من جواريه ثم اخذت اصوات الصراخ والاستغاثة ترتفع من كل اطراف قصر آل الطبرى ،

واسماعيل يزجربان عبدا للوالى انتهك حرمة منزله ، واعتدى على حرمة ، فاجتمع الناس وقبضوا على العبد وساروا به الى قصر الولاية امام الحسن بن على ، وكان اسماعيل يعتقد ان الامير لا يتنازل لسماع شكائهم ، او الاقتصاص من عبده ، وبذلك يتمكن من اثاره العامة ضده ، لكن الامير الحسن اوقف عبده موقف الاتهام على مرأى ومسمع من الناس ، واعترف العبد بما اتهموه به فاصدر الامير امره باعدامه ردعا لامثاله ممن تسول لهم انفسهم الاعتداء على الحرمات ، فأكبر الناس منه ذلك الانصاف ، ومالت قلوبهم اليه ، وانقلبت مكيدة ابن الطبرى ضد مدبرها .

ثم ان الخليفة المنصور قبض على من عنده من آل الطبرى بافريقيا واصدر امره للحسن بان يقبض على بقاياهم فى صقلية ، ويرسل بهم اليه ، ففعل بعد ان استدعاهم لوليمة يستأنه نازعا سلاحهم ، مفرقا عنهم انصارهم ، وارسل بهم الى افريقيا حيث اسكنهم المنصور بعض الجهات وابعدهم نهائيا من مركز الفتنة .

العودة للجهاد وفتح طبرمين - اطمأنت النفوس للحسن ، والتفت القلوب حوله اذ راوا فيه مثال العدل والنزاهة والخلق الكريم وراوا فيه طنى صفحة الماضى المؤلم ، ماضى ولادة الجور والتنكيل والانتقام ، وفتح صفحة جديدة تربط حاضر صقلية ومستقبلها بماضيها الجليل .

راى الروم ذلك ، وايقنوا ان المسلمين اذا ما جمعوا امرهم ، ووحّدوا كلمتهم فلا نتيجة لذلك الا عودتهم الظافرة لميدان الجهاد ، فبادر المسيحيون بدفع اموال الجزية المتخلفة لديهم عن ثلاثة اعوام ، وقد تقاعسوا عن دفعها عندما راوا ما حل بالمسلمين من خلاف وشقاق وفتنة دماء .

فى سنة ٣٥١ هاجم المسلمون قلعة طبرمين التى كانت تحمل امال الروم القسطنطينيين فى شرق الجزيرة ، وكانت ممتنعة على المسلمين بما امدحا به الروم ، وكان المسلمون يومئذ تحت قيادة الامير احمد بن الامير الحسن وقد اشركه ابوه معه فى الحكم واعده ليخلفه من بعده ، ودام حصار طبرمين سبعة

تاريخ صقلية - ١٠

اشهر ثم اقتحمها المسلمون بين اصوات التهليل والتكبير ، بعد ان قطعوا عنها الماء وافتتحوها ، واطلق عليها القائد احمد اسم « المعزية » نسبة للخليفة المعز الفاطمي .

ثم توجه المسلمون تحت قيادة القائد الكبير الحسن بن عمار ، ينصبون الحصار على مدينة رمطة Rametta جنوب طبرمين محطمين بذلك آمال النصرانية في شرق الجزيرة ، وكان الروم قد حصنوا المدينة تحصينا منيعا فاشتد المسلمون في حصارها ونصب الحسن بن عمار حولها المجانيق والفراشات فالحق بالمدافعين عنها اضرارا جسيمة الى ان اقتحمها عنوة وافتتحتها يوم الخميس آخر رجب سنة ٣٥٢ (٩٦٣)

مسجد ريو - كانت جزيرة ريو ، من جزر النصرانية يختلف اليها المسلمون ويستقرون فيها لامور تجارتهم الواسعة او يقيمون فيها اثناء اسفارهم فارسل الامير الحسن بن علي بنائيه ورجال الفن واختط في تلك الجزيرة مسجدا فخما في احد اركانه مأذنة عالية ، وتعاهد مع النصارى على احترام الحرية الدينية ، وتعهدوا له انهم لن يمنغوا المسلمين من غشيان المسجد وتوعدهم الامير بانهم ان حالوا دون المسلمين ومسجدهم فانه يقابل العمل بمثله ، ويحول بين المسيحيين وكنائسهم في صقلية وافريقيا ، واشترط عليهم ان المسجد حرم يحمى من التجأ اليه مثل سائر معاهد الدين في ذلك العصر ، واحترم النصارى العهد .

محاولات الروم في جنوب ايطاليا - في هاتيك الاثناء والمسلمون يستعدون للقضاء نهائيا على آخر آمال الروم بتلك الديار ، ويستعدون للقضاء على الخطر الثرمانى الناشئ ، كان بلاط الروم في القسطنطينية يشعر بمقدار الكارثة التى اصابته ، ويستعد لا استرجاع مكانته الحربية وسمعته السياسية وقيمه الدينية المسيحية ، فجهز الامبراطور اسطولا عتيذا حمله جندا غفيرا وسلاحا وفيرا وارسل به نحو الجنوب الطليانى يحاول استخلاصه من ايدي المسلمين علم الحسن بن علي بالامر ، فارسل الى المهدي يستنجد بها ، فجاء الاسطول الفاطمي يحمل سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف وخمسمائة راجل ، واستعد

الفريقان للنزال والكفاح وكان ذلك سنة ٣٣٦ (٩٤٨) فالتقى الجمعان برا وبحرا ، واندحر الروم فرجعوا على اعقابهم خاسئين . وشيد الحسن بن علي مسجدا بمدينة رجيو (Réggio) فى قلورية توطيدا لحكم المسلمين وتثبيتا له ، واجبر الروم المقيمين بمدينة اوترنتة على دفع الجزية .

بعد سبعة اعوام من ذلك ٣٤٣ ، اعاد الروم الكرة على المسلمين فى الجنوب الطليانى ، وجاء بطريقهم ارجوريوس على رأس عمارة بحرية قوية فنصب الحصار على مدينة نابولى ، وكانت عاصمة امارة مسيحية مستقلة ، وحليفة وفية لمسلمى صقلية ، وكان الروم حاولوا يومئذ الانتقام منها من أجل ذلك .

سار المسلمون تحت قيادة الامير عمار بن علي اخى الامير الحسن وقد كان يتولى امر المسلمين فى اروبا ، فجمعوا جهودهم الى جهود اهل نابولى ، وتمكنوا من دحر اسطول الروم ، وردوا المهاجمين على اعقابهم مرة اخرى .

لكن الروم نزلو الارض فى بلاد قلورية ، محاولين قطع الصلة بين صقلية والبلاد الاوروبية ، فتمكنوا من بعض الجهات ، واحتلوا مدينة رجيو وهدموا مسجدا الحسن بها ايدانا بزوال سلطة المسلمين ، وغلوا فى التعصب المسيحي جمع الامير الحسن قوته ، سار الى قلورية يضم جهوده لجهود اخيه عمار ، فالتقى المسلمون بالروم فى وقائع عديدة ، واعادوا احتلال رجيو ، ثم التقوا باسطول الروم امام مرسى او ترنتة فحطموه ودحروا بقاياهم ، واضطر الروم للانسحاب وطلب المهادنة وذلك سنة ٣٤٨ (٩٦٠)

الانتصار الاكبر فى معركة المجاز - كان الفريقان يعلمان ان القتال بينهما لم ينته بعد وكانا يستعدان للملحمة الكبرى الحاسمة ويعدان لها العدة ، ويعلمان ان نتيجتها ستكون اما خسارة صقلية وجنوب ايطاليا نهائيا وانقطاع امل الروم بصفة باتة هنالك ، او تقلص ظل المسلمين وانهايار سلطانهم نهائيا فى البلاد الاوروبية وجزيرة صقلية .

ولم يضيع الروم وقتهم سدى . فقد جهز الامبراطور اسطولا لم يجهز مثله من قبل قوة ومنعة وعددا ، وشحنه باربعين الفا من اشداء المقاتلين ، تحت

امرة ابن اخيه ما نويل وامير البحر نيستاس ، ونزل الروم ارض صقلية فى ناحية المضيق الذى يفصل بينها وبين ايطاليا ويسميه العرب المجاز ، وكان الجند الرومى مؤلفا من جماعات الاغريق والمجوس والارمن والروس ، فى قوة لم تطأ ارض الجزيرة مثلها من قبل .

وضع المسلمون قوتهم وكانت قليلة العدد بالنسبة لقوة الروم تحسنت امرة القائد الحسن بن عمار ، فسار على راس المجاهدين المسلمين يقف فى طريق الجند الرومى ويحول بينه وبين الوصول الى رمطة .

استعد الحسن للمعركة فوضع جندا فى مضيق بنقش ، وجندا آخر فى مضيق دمنش ، وهما طريقان جبليان وعران ، وعلم قائد الروم ما نويل بذلك فارسل فرقتين من الجند قويتين لتقتحم كل واحدة منهما مضيقا وتنتزع من ايدى المسلمين طريق ورود النجدة والمدد .

التقى الجمعان ، وزحف المسيحيون فى ستة مواكب فاحاطوا بالمسلمين من كل ناحية نظرا لكثرة عدد الروم وقلة عدد المسلمين ، فجاهد المسلمون جهادا المستميت وتغلب عليهم الروم فتقهقروا حتى وصلوا خيامهم ، وايقن الروم انهم فازوا وغلبوا واستولوا على معسكر المسلمين .

لكن هنالك قوة يصعب التغلب عليها ويستحيل قهرها الا وهى قوة الروح ، قوة الايمان ، قوة العزيمة ، تلك قوة تستطيع ان تغلب وان تتغلب ، وتستطيع ان تفرض ارادتها وتنتصر اذا ما خارت قوى المادة وضعفت .

رأى المسلمون انفسهم نقطة ضعيفة وسط لجة من قوى الروم ، وعلموا انهم اذا ما خسروا المعركة فصقلية كلها قد ضاعت . وسلموها اصبحوا عبيدا ، ومساجدها صارت محطمة ، وعمرانها امسى خرابا ، ثم علموا ان النصر لمن صبر الساعة الاخيرة ، فتشجعوا بعد وهن ، وتغلبوا على ما اصابهم من ضعف وروعة ، وجمع الحسن ابن عمار رحمه الله جماعة صادقة من المسلمين وقال : اللهم ان بنى آدم قد اسلمونى ، فلا تسلمنى ! وحمل معهم الابطال على جماعة الروم ، وتبعه رجال المسلمين من كل صوب ، وراى ما نويل ان رجال الروم قد اصابتهم الدهشة من هذه الصدمة التى لم تكن منتظرة ، فصاح بهم :

اين افتخاركم بين يدي الامبراطور ! واين ما ضمنتكم له في هذه الشرذمة القليلة ؟ واشتدت المعركة وسالت الدماء ، وتناثرت الاشلاء وتساقطت الجثث وتغلب المسلمون القليلون على الروم الكثيرين ، اخيرا ، واقتحم احد مجاهدي المسلمين صفوف الروم فوصل الى القائد مانويل وارداه قتيلا

واذ كان النصارى يقاسون كربا ثقيلا والمسلمون يمعنون فيهم قتلا واسرا ، ثارت زوبعة شديدة ورعد وبرق ، فاشتد الرعب والفرع بالروم واصبحوا لا يفكرون الا في النجاة بالنفس ، وصدق الله تعالى قوله : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين)

انهزم الروم لا يلوون على شيء ، فمالوا في انهزامهم الى جهة ظنوها سهلة وطيفة توصلهم الى ساحل البحر فاذا هي جهة وعرة صعبة المسالك ، ادت بهم الى جرف عظيم ، فسقط الكثير منهم فيه ، وامسوا هنالك يقتل بعضهم بعضا والمسلمون ينهالون عليهم ضربا بالسهم والسيوف ، فما انقضى اليوم حتى ترك الروم نحو العشرة آلاف قتيل على اديم الارض ، وانهزمت بقاياهم شريدة حتى وصلت الاسطول فنجت بنفسها فيه ، وباء المسلمون بنصر عظيم في معركة من اروع واشد واغرب معارك القرون الوسطى ، وكان ذلك يوم عرفة من سنة ٣٥٤ (٢٤ اكتوبر ٩٦٥) وجاء المسلمون بالبشرى الى بالرمة ، والامير احمد ابن الحسن يسوق الغنائم والاسلاب والاسرى ، وخرج الامير الحسن بن علي للقاء ابنه مهنتا المسلمين بانتصارهم وفوزهم ، واصابته حمى من شدة تأثره وسروره في ذلك اليوم العظيم ، فمات رحمه الله من اثر ذلك بعد ولاية دامت نحو العشرين عاما ، كانت غرة في جبين الدهر ، وآية من آيات المسلمين ، اظهروا فيها ما يستطيعون القيام به من جلائل الاعمال في الحروب والسياسة والعمران ، ان هم وحدوا جهودهم ، وجمعوا كلمتهم ، ووجهوا همهم للقيام بالرسالة الكبرى التي اختارهم الله لا دائها في تلك العصور الوحشية ، لاجراج الناس من الظلمات الى النور .

احمد بن الحسن بن علي

اجمع الناس امرهم على توليته بعد ابيه ، وقد كان كما علمنا مشاركا له

فى الحكم والتدبير والحروب طيلة حياته .

الاجهاز على الروم - لم يضع الوقت سدى ، ولم يرد ترك الروم يجمعون من جديد فلولهم لاعادة الكرة بعد نكبتهم الكبرى ، فبادر بمهاجمتهم بخيله ورجله ، وفاجأهم فى المعاقل التى التجأوا اليها ، فاسترجع رمطة واسر من كان بها من بقاياهم ، ثم اجتاز البحر مسرعا الى قلورية ، فاحرق فى رجبو اسطول الامبراطور واسر امير البحر ينساتاس ، وارسل به مع عدد جسيم من عظماء الروم الماسورين الى بلاط الخليفة فى المهدية ؛ ويقول بعض المؤرخين ان من جملة الغنائم التى وجه بها الى المهدية سيف هندی بديع الصنع ان من جملة الغنائم التى وجه بها الى المهوية سيف هندی بديع الصنع منقوش عليه : « سيف هندی ، وزنه مائة وسبعون مثقالا طالما ضرب به بين يدي رسول الله »

الصلح : اذعن الروم للامر المقضى ، وعلموا انهم لن ينالوا من مسلمي صقلية منالا ، وان آمالهم خابت هنالك بصفة نهائية ، فعزموا منذ تلك الساعة على عدم التدخل مطلقا فى امور الجزيرة ، وارسلوا وفدا من القسطنطينية حل بمدينة المهدية وتقدم امام الخليفة المعز ، يطلب الصلح ويعلن جهارا عزمهم على عدم العودة ، ويقدم للخليفة ولرجال بلاطه واعيان دولته هدايا نفيسة ، وتعاهد الجانبان على ان لا يعود الروم مطلقا لساحة صقلية ، ومقابل ذلك يخلي المسلمون طبرمين ورمطة لكى يسكنها المسيحيون من نصارى الجزيرة .

كانت هذه غلطة سياسية كبرى ارتكبها المعز ورجال شوره ، لانها مكنت النصارى من شرق الجزيرة بعدما اخرجتهم منه شدة شكيمه المسلمين ، ولان تلك البقاع اصبحت فيما بعد ، كما سيمر بك ، مركزا جهاد المسيحية ضد الاسلام بهاتيك الديار ، على يد النرمان . والحال ان نصارى الجزيرة كانوا على احسن حال مع المسلمين .

اصدر الخليفة امره المطاع للامير احمد بن الحسن ، باخلاء مدينتى رمطة وطبرمين تنفيذا للمعاهدة ، فاغتم المسلمون من ذلك وتألموا ألما عظيما واذعن الامير احمد للامر ، الا انه عمد قبل ذلك لتخفيف وقع تلك الغلطة فارسل اخاه

ابا القاسم صحبة عمه جعفر على رأس جماعة من المسلمين ، فاخرجوا من المدينتين كل السكان واعملوا فيها المعاول والفؤوس فلم يتركوا فيها حجرا على حجر واحرقوا بالنار هاتيك الانقاض فلم يتركوا للمسيحيين ، تنفيذ للمجاهدة الا ركاما من خراب ورماد ،

ختان اطفال الجزيرة : ساد الجزيرة عهد فرح وسروروا من اثر ذلك النصر
ختان اطفال الجزيرة : ساد الجزيرة عهد فرح وسروروا من اثر ذلك النصر العظيم واقبل الناس على اعمالهم العمرانية وانشأتهم يصلحون ما افسدته ايدى الفتن السالفة ، وما اوقفهم سير الحروب والملاحم عن انجازه .

ومن اغرب ما حدث هاتيك الايام قبيل وقعة المجاز ، مما يدل على مبلغ ما تمتعت به الجزيرة من سكون وامن وعافية اثر ولاية الحسن بن على المباركة الطويلة وابنه وشريكه فى الحكم احمد بن الحسن ، ورد الامر من الخليفة المعز فى المهدي بالاحتفال فى جميع جهات الجزيرة بختان جميع اولاد المسلمين الذين هم فى سن الختان ، وذلك فى نفس اليوم الذى يحتفل فيه المعز فى المهدي بتطهير اولاده .

احصى الامير احمد الاطفال الذين يجب ختانهم تنفيذا لرغبة الخليفة فكانوا خمسة عشر الفا ، وابتدأ الامير بتطهير اولاده واخوته فى مستهل شهر المولد النبوى من سنة ٣٥١ ، ثم ختن اولاد الخاصة والعامة ، ووزعت الصلاة على جموع المختنين هدية من الخليفة الذى ارسل لصقلية بثلثك المناسبة ، لتوزع على الاطفال ، مائة الف درهم وخمسين حملا من الهدايا .

ابو القاسم على

فى سنة ٣٥٨ (٩٦٨ م) استقدم الخليفة المعز للمهدي امير صقلية احمد بن الحسن واولاه قيادة اساطيل الدولة لما أظهره من معرفة بفنون قتالها ومهارة فى قيادتها ، فارتحل الامير احمد من صقلية آخذ معه عائلته وامواله ومتاعه ، وترك الامر فيها لاختيه ابى القاسم على بن الحسن .

وكان هذا الامير رحمه الله من خيرة امراء الجزيرة من بنى الحسن ، عادلا

رحيما ، شديدا في الحق ، مواسيا للفقراء والبائسين ، قال ابن خلدون :
وكان عادلا حسن السيرة وقال عنه ابن الاثير وكان عظيم الصدقة ولم يخلف
دينارا ولا درهما ولا عقارا فانه كان قد وقف جميع املاكه على الفقراء وارباب
البر واستمرت ولايته السعيدة ١٣ سنة .

تدخل النرمان : فى هاتيك الاثناء ، والمسلمون فى صقلية يجمعون
شتاتهم ويرأبون صدعهم ، وقد امنوا رجوع الروم محاربين بعد ان دحروهم
مرات عديدة خلال عشرات السنين ، كان رجال النرمان قد وطدوا عزمهم على
الاستقرار بهاتيك النواحي ، ووجدوا فيها المرتع الخصيب ، وعلموا انهم
لا محالة متمكنون منها ، بعد جهود ومضى وقت . ابتدا النرمان اعمالهم
بنواحي ايطاليا فاحتلوا مدن ابر ندبزي وطارنطة التى كانت مركزا لا مارة
اسلامية . مستقلة . ثم استولوا على جزيرة كرسكا واتخذوا منها مركزا
لاعمالهم ضد المسلمين ، وما كان النرمان يحاربون المسلمين وحدهم
بل كانوا يحاربون الجميع على السواء ويريدون ان يبتنوا لانفسهم هنالك
ملكا على حساب المسلمين والباباوية والامارات الطليانية ، وعلى حساب
المسيحيين الذين جاءوا يزعمون انقاذهم من براثن المسلمين ، ثم هاجموا
مدينة رومة نفسها ، فى حديث ذى شجون .

رسالة البابا للامبراطور : ارسل البابا ليون التاسع رسالة صور فيها
حقيقة الامة النرمانية الى امبراطور القسطنطينية ، يستنجد به ضد هؤلاء
الاقوام الوحوش ، ومما يقوله فى رسالته تلك :

« لقد انظر قلبى اسى مما قصه على مندوبو ولدى ارجيروس ، فيما
يتعلق بقوضى الامة النرمانية ، وخبثها ، وسقوطها ، وازدراءها بالدين زراية
بزت زراية الذين لا يؤمنون ، لذلك قد عقدت العزم على تخليص ايطاليا من
جبروت هؤلاء الاجانب الذين اندفعوا على البلاد متكالبين لا يحترمون شيئا ،
ويذبحون المسيحيين بعد اذا قتهم انواعا من العذاب الاليم ، ثم انهم ليست لهم
اى عاطفة انسانية ، فهم لا يميزون بين كبير ولا صغير ، ولا بين رجل وامرأة
وانهم لينتهبون الكنائس المقدسة ثم يحطمونها ويوقدون فيها النيران . »

ولطالما لمت عليهم وشنعت باعمالهم وانذرتهم وحذرتهم عقاب الله ونقمته لكن صدق الحكيم الذى قال : ان من تخلى عنه الله بقى سرمدًا فى الشقاء ، ولن يرجع الكلام العقل الى المجانين ، الخ .

لم يتلق البابا جوابا من الامبراطور الذى ترك نهائيا امر صقلية وايطاليا ، فاستنجد بالالمانيين ، الا ان اسقفهم اثار عليه بعدم محاربة رجال ينتسبون الى المسيح ، فما وسخ البابا الا جمع جند باسمه وتحت رايته وحارب الترمانيين فانخذلت جموعه ، وانكسر ووقع بنفسه اسيرا بين ايديهم ، فتذلل لهم واستغفر ، ورفع عنهم حكمه الذى اصدره بكفرهم ، وباركهم فى جهادهم ، لكنهم رغم كل ذلك ابقوه اسيرا عندهم عاما كاملا الى ان افتدى نفسه منهم بدفع جعل ذريع .

قال قوسطاف لوبوز فى تاريخه الشهير « مدنيات العرب » عن هذه الفترة من فظائع الترمان ومقابلة رجال الكنيسة لهم بالمثل ما نصه :

« واستمر الترمان على اعمالهم : اذا ما تمكنوا من كنيسة انتهبوها ثم ذبحوا كل رهبانها ليامنوا عاقبة شكواهم . وكان الرهبان يقابلون اعمال الترمان بمثلها اذا ما تمكنوا منهم ، واليك وثيقة عثر عليها مسيو ابريمودرى ، فى خزان ديرجيل كاسان وهى تعطيك صورة صادقة لعادات ذلك الزمن :

« ذات يوم جاء الكونت رودولف ومعه خمسة عشر من رجال الترمان لكنيسة جبل كاسين ، فتركوا عند بابها اسلحتهم وخيولهم حسب العادة المألوفة ودخلوا لاداء الصلاة . لكنهم لم يحسنوا اختيار الوقت اذ بينما كانوا جاثين على الركب امام مذبح القديس بونوا اوصد رهبان الكنيسة ابوابها ، واستحوذوا على اسلحة المصلين وخيولهم ، ثم دقوا اجراس الفرع والاستغاثة فاجتمع عليهم الناس من اجوار الكنيسة ، وهاجموا الترمانيين الذين لم تكن لهم بين ايديهم الا المسابح ، ثم انهم حاولوا عبثا تذكير المهاجمين بحرمة الكنائس ، وحاولوا كذلك عبثا اقناعهم بالمحرجات من الايمان انهم ما جاءوا الا قصد التبتل والعبادة ومصالحة رجال الكنيسة فان رجال الدين كانوا قد وجدوا الفرصة المناسبة فاغتنموها وقتلوا الخمسة عشر رجلا عن اخرهم ،

ولم ينج الا الكونت ردولف وحده ، اذ قد حماه راهب الدير ، وما اطلق سراحه الا بعد ان ارجع للرهبان كامل اموال وذخائر الدير التى كان قد انتهبها هو ورجاله من قبل ،

نتيجة التدخل النرمانى : من نكد الدنيا على مسلمي صقلية ، انهم ما كادوا يجمعون امرهم حول استقلال داخلى واسع النطاق ، ويتولى امر الدولة فيهم رجال كرام من آل الحسن بن على ، يتوارثون الامارة ويصونون مركزها ولو الى حين من مطامع الطامعين وعبت العابثين ، وما كاد ينتهى تهديد السروم وتخفق نهائيا حملاتهم القوية الغنيمة المتوالية ، منذ قرن ونصف القرن ، ما كاد يتم كل ذلك بعد طول الجهاد وشديد البلاء حتى كان المسلمون يواجهون خطرا اكبر من هاتيك الاخطار السالفة ، ويقابلون عدوا اشد عنفا واقوى ساعدا واطمع اعمالا من اعداء الخارج والداخل مجتمعين ، ذلك هو الخطر النرمانى الذى ما زال بتلك الجزيرة حتى انهك قواها واسقطها مجندلة تحت مخالفه المفترسة .

فكانت كل ايام الدولة الحسنية بصقلية ، قد انقضت الى جانب اعمال باهرة فى ميدان العمران بالداخل فى حرب مستمرة عنيفة متوالية مع رجال النرمان المغيرين . وقبل ان ندرس تفاصيل هذه الحروب والمعامع فى الصفحات التالية نرى ان نسجل حكما اصدره على هذه الفترة المؤلة وعلى اعمال النرمان فيها المؤرخ الاكبر الدكتور قوسطاف لوبون حيث قال :

« أخذ هؤلاء المدافعون عن الدين المسيحى ، يتفانون فى اعمال السلب والنهب سعيا وراء الثروة ، اكثر من تفانيهم فى الدفاع عن الدين . وكانوا ينتهبون ارزاق اليونانيين والطلليانيين والمسلمين بقسوة وشراسة متساوية فبقيت صقلية وبلاد ايطاليا المجاورة لها مدة خمسين عاما اى مدة الفتح ، تعتبر فى نظر هؤلاء المدافعين عن الدين المسيحى ، بلادا وهبها الله لهم كى يكتسبوا فيها الثروة والغنى بكامل السهولة والبساطة .

« وما كان لاعمال هؤلاء المدافعين عن المسيحية من نتيجة ، الاخراب الجزيرة بصفة سريعة ، حتى ادرك اهلها (المسيحيون) ان صداقة فرسان النرمان

لهم كانت اثقل وطأة عليهم من عداوة المسلمين »

الفاطيون بمصر : لم تكن الدولة الفاطمية التي درجت بين احضان كتامة بارض المغرب لتكتفى بما نالته من عزة وسلطان فى بلاد الشمال الافريقى ، حتى حدود برقة ، بل كانت ترمى بانظارها الطامعة صوب بلاد الشرق ، تريد ان تقيم على انقاض الخلافة العباسية الواهية ، وعلى انقاض الدويلات الاسلامية التى صيرت الشرق الاسلامى رقعة شطرنج بائسة ، دولة شيعية علوية تضم تحت لوائها ما فرق امره بنو العباس بضعفهم وتخاذلهم وتغلب الموالى والدخلاء على دولتهم .

كيف كانت حالة العالم الاسلامى والعربى يومئذ ، والحرب الصليبية الاولى تتقد فى صقلية وايطاليا نيرانها ، والحرب الصليبية الثانية التى يدعوها المؤرخون غلطا الاولى تختمر فى افكار رجال التعصب المسيحى ؟

كانت بغداد واكثر بلاد العراق وفارس تحت حكم دولة بنى بويه التركمانيين الذين لم يتركوا للخلافة الضعيفة الواهية الا الاسم وجلال اللقب ، وكانت مصر واكثر بلاد الشام فى يد بنى الاخشيد ، والموصل وديار بكر ، فى يد بنى حمدان ، وخراسان وبلاد التركمان وراء النهر فى يد بنى سامان ، وطبرستان وجرجان فى يد ملوك الترك الديلم ، والبحرين واليمامة والكثير من جزيرة العرب فى يد القرامطة . اما انغرب الاروبى الاسلامى ، فقد كان زاهرا يانعا فى الاندلس تحت سلطان الامويين ، يواجه الحملات المسيحية فى ذلك العهد بجهوده الخاصة (١) رأى المعز لدين الله الفاطمى ان ساعة الضربة الحازمة قد آنت ، فارسل رأى المعز لدين الله الفاطمى ان ساعة الضربة الحازمة قد آنت ، فارسل قائده جوهر الصقلى أو الصقلبي على رأس جند عتيد من المغاربة ، وقد كان اهل مصر راسلوا المعز ورغبوه فى فتحها ونصب سلطانة عليها ، تخلصا من مظالم بنى الاخشيد ، والاضطرابات المتوالية ، فحط جوهر اثقاله تجاه مدينة

(١) كان يتولى الخلافة يومئذ بالاندلس الحاكم بن عبد الرحمان الناصر ، وبلغت الحضارة فى عصره شأوا بعيدا ، وقد كان مقرها بجمع الكتب فارسل النساخين لكل بلاد كى ينقلوا له كل المؤلفات الحديثة فتوفر له عدد فى مكتبته مثله لم يتوفر لمالك من قبل وجعلها مكتبة عامة فى قصر مروان ، ولها خدمة وقيمون . وام قرطبة جمع غفير من الادباء والعلماء ورجال الفن من سائر الاصقاع ، وبلغت عندئذ مدينة الاندلس الاسلامية اوج عزها ومنتهى ازدهارها .

الفسطاط ففتح له اهلها الابواب ودخل مصر دون قتال ولا عناء ، وذلك فى رمضان سنة ٣٥٨ (٩٦٩م) ، فخطب فى مسجد عمر بن العاص للخليفة المعز ، ودانت له كل الناس ، ثم ارسل القائد البربرى جعفر ابن فلاح الكتامى ، فاجتاز الى ارض الشام ، ومعه جند كبير فافتتحها ، وخطب فيها للمعز ، واصبحت الدولة الفاطمية تمتد من ساحل المحيط الاطلسى الى ضفاف الفرات ، دون مشقة أو عناء . لقد كان هنالك نوع من الفراغ يجب أن يعمر ، فعمره الفاطميون .

ثم اختط جوهر الصقل مدينة القاهرة المعزية ، (وانما دعاها القاهرة لانه وضع اسسها عند توسط كوكب المريخ المعروف عند العرب بالكوكب القاهر) فابتنى فيها الدور والقصور ، واسس الجامع الازهر الشريف سنة ٣٥٩ ، واتمه ٣٦١ ثم سار المعز ومعه حاشيته ورجال دولته ، والقناطير المقنطرة من امواله ، فدخل مدينة القاهرة فى رمضان سنة ٣٦١ ، واتخذها مقرا لخلافته الفاطميين العبيديين ، حيث مكثت هنالك الى ان انقضت ايامها سنة ٥٦٧ (١١٧١) ، بموت العاضد لدين الله وقيام الدولة الايوبية على يد بطل الاسلام الخالد الذكر صلاح الدين الايوبى الكردي .

كان انتقال مركز الدولة من المهدية الى القاهرة ، حدثا من اكبر الاحداث فى تاريخ صقلية الاسلامية حيث ان الخليفة قد عين لولاية المغرب احد رجاله المعدودين هو الامير يوسف بولقيين بن زهرى بن مناد ، رأس قبائل صنهاجة البربرية العظيمة ، ولم يجعل له سلطة فعلية على صقلية ، فبقيت الجزيرة تابعة رسميا لمركز الخلافة بالقاهرة البعيدة الناضرة لآفاق اخرى ، انما كانت مستقلة بصفة فعلية تحت امرة الملوك من بنى الحسن ابن على ، وكان ذلك من جملة اسباب تدهور الحكم الاسلامى فى صقلية ، بعد حين . اذ كانت دولة صنهاجة لا تعنى الا بتوطيد ملكها وتوسيع عمرانها وتدعيم مدنياتها التى بلغت اوج منعتها وعلامها ايام المعز ابن باديس . وكانت دولة الفاطميين فى القاهرة تنظر الى الشرق ولا تكاد تنظر الى الغرب ، وبذلك خلا الجو لوحوش النرمان يفترسون كما شاءوا مسلمى الجزيرة ، حتى اذا ارادت دولة صنهاجة

امدادهم وانقاذهم كان الخطب قد اتسع على الراقع ، وتدهورت الدولتان معا ،
دولة صقلية على يد الترمان ودولة صنهاجة على يد الاعراب من بنى هلال
وسليم .

ولنرجع الآن - بعد هذين التمهيدين - لدولة ابي القاسم على ، المعروف
بالشهيد ، ولنسجل في هذه الصفحات اعمالها :

استمرار الفتح : في سنة ٣٦٥ (٩٧٩) سار الامير ومعه جماعة مسن
العلماء وكبار القوم على رأس قوة عتيقة لمنازلة مدينة مسينا التي كان العدو
قد اتخذها مركزا لاعماله ضد المسلمين ، فنصب الحصار على تلك المدينة
الى ان ضاق اهلها ذرعا فخرجوا يسألونه الامان ، ويعلنون الطاعة ، فاجابهم
للصلح رحمة بهم وتقاضى منهم مال الجزية .

ثم سار يوالى فتح ما استولى عليه الفرنج من ارض الجزيرة وقلوزية
فافتتح مدينة اغاثة Santa Agata وغنم جميع ما اعداه المسيحيون فيها .

ثم امر سنة ٣٦٦ بتجديد بناء مدينة رمطة ، وقد كان جطمها الامير احمد
بن الحسين ، كيلا تكون مركزا للمسيحية ، وفي تلك السنة سار على راس
المسلمين الى مدينة طارنطة في جنوب ايطاليا ، وقد اتخذها الترمان مركزا
لعمالهم وقرصنتهم فتحصن المسيحيون بها ، واستعدوا للنزال ، وهاجمهم
المسلمون بقوة وعنف فاقتحموا الاسوار وكسروا الابواب ، وفتحوها عنوة
المسلمون بقوة وعنف فاقتحموا الاسوار وكسروا الابواب ، وافتحوها عنوة
واقترارا ، واصدر الامير امره بذلك جدرانها ، واعفاء مراسمها كيلا تكون
داعيا لرجوع العدو مرة اخرى ومركزا لعماله ضد المسلمين .

انتصار قلورية واستشهاد الامير : بينما كان زعيم النرمان برودويل
يستعد لمقارعة المسلمين ويحتل بعض المواقع على السواحل الصقلية ، نزل
الامبراطور الالماني اوطون الثاني يوطد ملكه بالبلاد الطليانية ، فيحتل روما
ويصمد لمقارعة المسلمين . ولقد خشى الروم زوال سلطانهم وانتهاء
نفوذهم على يد الالمان فاستصرخوا المسلمين بصقلية ، فهب الامير ابو القاسم
لللقاء جموع الالمان والنرمان واراد المباداة باحتلال كسنته مركز المسيحيين

المنيعة ، وكان هؤلاء قد استعدوا للقاءه في بلاد قلورية ، فدارت المعركة العنيفة الهائلة في موقع غير ملائم للمسلمين بمضييق بين جبلين يمكن للنصارى ان يحددوا فيه بالمسلمين من كل ناحية ، فرأى ابو القاسم وجوب الانسحاب فورا ليتلقى صدمة النصارى في منبسط من الارض يمكنه فيه ان يدير حركاته بكل حرية .

لكن النصارى لم يتركوا للمسلمين فسحة من الوقت لانجاز تلك العملية وتتبعوهم بشدة وعنف فكاد الانسحاب الجزئي ينقلب انهزاما كليا واستمر ذلك التتبع مدى خمسة عشر يوما حتى وصل المسلمون الى مكان فسيح عند ساحل البحر وتكاثر عليهم جند الفرنج ، واحاطوا بهم من كل ناحية ثم اقتحمت طائفة منهم قلب المعسكر الاسلامي حتى بلغت مكانا اتخذها الامير ابو القاسم مقرا لقيادته وقد كان راكبا جواده وحوله خاصة رجاله ، فاقتتل الجميع هنالك ، وضرب احد جنود الالمان الامير ابا القاسم ضربة هائلة من سيفه شقت هامته وخر رحمه الله صريعا شهيدا على شاطئ البحر ، واستمرت المعركة عنيفة هوجاء ، ولم يعلم المسلمون ولم يعلم النصارى ما حل بالملك المسلم الشهيد .

ثم اجتمعت ميمنة المسلمين وميسرتهم حول القلب فسدوا الثلثة التي احدثها النصارى هنالك ، وقاموا في الحين بهجوم مضاد ادهشت شدته جموع النصارى فانقلبوا على اعقابهم ، وتتبعهم المسلمون يشخنون فيهم قتلا ، واستولوا على جميع محلات المنهزمين وعددهم وسلاحهم ، واسفرت المعركة عن قتل اربعة آلاف من الفرنج ، وجرح الامبراطور اوطون جرحا ادى الى موته في دسامبر ٩٨٣ بعد ان التجأ منهزما خائبا الى رومة (١) .

ثم حمل المسلمون جثث اميرهم الكريم فنقلوه الى صقلية حيث ووري التراب ، رحمه الله رحمة واسعة ، وذلك في شهر المحرم سنة ٣٧٢ (٩٨١) .

جابر بن ابي القاسم علي

اجمع الناس يومئذ على نصب ابنه جابر ، اميرا مكانه ، عله يقتفى خطى

والده الموفقة ، لكن الولد لم يكن هذه المرة نسخة من ابيه ، وهل تلد النار الا الرماد ؟ فان جابرا ترك امر الجهاد وتدير الملك واشتغل بالملاذ حسب عبارة ابن خلدون ، واضطربت احواله .

ولم يكن الخليفة الفاطمي في مصر قد اعترف بهذه الولاية ولم يقرها بعد ، فاجتمع جند صقلية واهل العقد والحل فيها ، واصلوا خلع جابر وترقبوا قدوم ابن عمه الوالي الجديد الذي عينه الخليفة الفاطمي :

جعفر بن محمد بن الحسن بن علي

كان من نخبة الامة ، وعلية القوم ، وكان من اصحاب الرأي والتدبير والمكانة السامية في بلاط الخليفة العزيز بالله ابن المعز لدين الله ، وقد كان الوزير ابن كاس يغار من جعفر ويحسده على مكانته ، فعندما جاء الخبر باستشهاد الامير ابي القاسم على اشار ابن كاس على الخليفة بتولية جعفر بن محمد مكانه ، يريد بذلك ابعاده عن البلاط والتخلص من نفوذه .

قبل جعفر الولاية وهو كاره لها ، وسار الى صقلية اخذا معه اليها القائد التركي سبستكين الذي كان حسب عبارة ابن الخطيب في اعمال الاعلام من جملة الترك الموصوفين بالشجاعة .

وصل جعفر صقلية يوم الاربعاء ٢٥ صفر سنة ٣٧٣ ، فسلم له جابر الامر عن طيب خاطر بعد ان حكم حكما خائرا مدة سنة ، واسنبر الناس بخيرا بولاية جعفر الذي سبقت شهرته طلعت ، ومهدت سمعته له الامر ، فحسن الاحوال ، واستقامت الامور ، وانزوى رجال النرمان اثر هزيمتهم الشنعاء السالفة ، فاخذ جعفر يصلح ما فسد ، ويرمم ما تهدم ، ويعمر البلاد ، وقد جمع حوله ثلة صالحة من رجال العلم والادب ، وكون في قصره ببالرمة بلاطا

(١) يقول بعض مؤرخي الفرنج ان المسلمين اسروه ولم يعلموا انه الامبراطور ثم اطلقوا سراحه مقابل مال جزيل افتدى به نفسه ؛ بينما يقول آخرون انه نجا من الاسر بفضل سفينة رومية امكنه الالتجاء اليها .

ملكيا فاخرا ، وكان رحمه الله من فرسان الميدان فى الشعر والادب والعلوم .
من اجل جارية يخرب ملكا : كانت للخليفة بالقاهرة جارية صقلية عزيزة
عليه محببة اليه ، وكان اخوها راهبا فى البلاد الصقلية ذا مكانة وملك ،
فبلغت الجارية من قلب الخليفة الضعيف مبلغا جعلته يقبل مطلبها ، ويدعن
لمشيئتها ، فيرسل الى جعفر امير صقلية ، يامره بان يرجع للراهب اخى
جاريته ، قلاع : بنقش ، وطبرمين ورمطة ، وان يرجع اليه مع ذلك كل سبى
عنده قديم وحديث من تلك البلاد . وبعد شهر من ورود امر الخليفة ، جاء
الراهب صقلية ، يستنجز الامير تنفيذ ما امره به خليفة القاهرة .

علم جعفر انه ان نفذ ذلك الامر فكانه قد نفذ حكم الاعداء على الجزيرة ،
لانه سيمكن النصارى من قاعدة ما استطاع المسلمون تحطيمها الا بعد جهاد
مائة عام ، وعظم عليه كذلك ان يعلن عصيان الخليفة ، ويرفض تنفيذ امره ،
انما عظم عليه اكثر من ذلك ان يخرب ملكا من اجل جارية ، فعمد الى حيلة
الاريب وسياسة الداهية فانقذ صقلية من الخطر موقتا ، واحرز على رضى
الخليفة فى آن واحد واليك البيان :

انزل جعفر الراهب الملك فى قصر واحاطه بالعيون ، ومنع عنه الاجتماع بمن
يريد من الناس وابقاه كذلك نحو من اربعة اشهر ، ثم تظاهر بأنه يريد
تنفيذ الامر المطاع فجمع للراهب ، بصفة سبى يجب ارجاعه ، جماعة من
الشيوخ والعجائز والمرضى ، واصحاب العاهات ، فدفعهم اليه وامره بالرحيل
بهم حالا ، فضاق الراهب بذلك ذرعا ، وما وسعه إلا الفرار سرا من صقلية والذهاب
الى القسطنطينية ومن هنالك راسل الخليفة العزيز واعلمه بأن عامل صقلية لم ينفذ الأمر .

كان جعفر يعلم ان الراهب سوف يوالى دسائسه وان الآمرة الناهية فى
قلب العزيز ستستعمل اقصى جهود المرأة المدللة ، للوصول الى غايتها ، فبادر
انجازا للحيلة ، باقتناء مركب اندلسى شحنه من ماله بالكثير من تحف
الاندلس وطرائفها ، وكتب للخليفة يقول : ان ابن ابى عامر المعروف فى
التاريخ باسم الحاجب المنصور صاحب الامر ببلاد الاندلس ، قد راسله يرغب

تاريخ صقلية - ١١

اليه امر الدعوة الاموية ، ويدعوه للانضواء تحت لوائها ، وانه يرسل له من خيرات الاندلس ، ويقطعه من اعمالها ماشاء ، وانه هاداه بالركب المشحون بالنفائس الثمينة ترغيبا له ، لكنه امتنع من قبول تلك الدعوة وأصر على ولاء الفواطم بالقاهرة .

انطلقت الحيلة على العزيز ، فبادر بمراسلة العامل الصقلي يشكره على امتناعه مما دعاه اليه زعما صاحب الاندلس ، ويحضه على التمسك بما كان عليه محمد ابوه وحسين جده وبقية آل الحسن من الطاعة والولاء . وأعرض الخليفة بعد ذلك عن اجابة مطلب الراهب ، والانقياد لرغبة المحبوبة فذهبت جهود الاخت واخيها سدى . وكفى الله المؤمنين القتال ، بواسطة السياسة والدهاء .

استمر الامير جعفر يحكم صقلية حكما عادلا نزيها ، والامة مقبلة على اعمالها واعداء الخارج راكدون ، واعداء الداخل نائمون ، الى ان توفاه الله ، بعد سنتين من ولايته ، سنة ٣٧٥ .

عبد الله بن محمد بن الحسن بن علي

بايع الناس بالامارة بعد جعفر ، شقيقه عبد الله فحقق الامير الجديد آمال الامة فيه ، وسار سيرة شقيقه الصالحة ناصحا امينا ، مقيما للعدل ، رحيفا بالرعية ، ولم تطل ايامه في الملك اذ وافاه الاجل يوم ٢٣ رمضان سنة ٣٧٧ .

ابو الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد

ولى الامر ، بارادة الامة ، بعد ابيه ، وكان غلاما ، انما توهم الناس فيه خيرا فوجدوا فيه خيرا ، وكان حسب كلمة ابن خلدون « قد انسى بجلالته وفضائله من كان قبله منهم » .

وقد وصله سجل الولاية من الخليفة بالقاهرة ومنحه لقب ثقة الدولة وكانت ايام الناس في مدته ، كما يقول ابن الخطيب في اعمال الاعلام ، على افضل

ما يشتهون ، وقد ضبط البلد ضبطا محكما ، وظهر من كرمه وجسوده
وسماحته ، مالا يفى به وصف ، وعم العدل والرخاء والامن والاطمئنان كل
جهات الجزيرة ، لم يتحرك فى وجهه عدو من داخل البلاد ولا من خارجها .
قال الشاعر الكبير ابو محمد عبد الله بن محمد التنوخى المعروف بابن
قاضى ميله يمدحه من قصيد طويل ، هو من غرر الشعر :

اغر ، قضاعى يكاد نواله اذا نحن اخلفنا مخائل ديمة ويقظان شاب البطش بالدين فالتقى حسام على من ناصب الدين مصلت يسايره جيشان : رأى وفليق مطل على من شاء فكانما يرى رأيه ما لا ترى عين غيره رعى الله من ترعى حمى الدين عينه ومن وعده فى مسرح الحمد مطلق ومن يضرب الاعداء هبرا فتثنى رماهم بمجر ضع الارض رزه كان الردينيات فى رونق الضحى يعود الدجى من ليله وهو ابيض ويحجب نور الشمس بالنقع عنهم لهم كل عام منك جاوز فليق اذا ما طوا كشحا على قرح عامهم فكم من اغم الوجه عار تركته لعمري لقد عاديت فى الله طالبا فطالبتهم فى الاهل حتى تركتهم فيا ثقة الملك الذى الملك سهمه ... وقائلة بالسعد نجلك جعفر فمازلت تستجدى فتولى وترتجى	لكثرة ما يدعو الى الشكر يححف وجدنا حيا معروفه ليس يخلف بكفيه ما يرجي وما يتخوف وستر على من راقب الله مقدف ويصعبه سيفان : عزم ومرهف على حكمه صرف الردى يتصرف ويفرى به ما ليس يفرى المثقف ويحمى ربه الاسلام والليل اغطف وايعاده فى ذمة الحكم موقف صناديدهم والبيض بالهام تقذف كان الروابي منه بالنيل تدلف اراقم فى طام من الآل ترجف ويبدو الضحى من نفعه وهو اكلف ففعول الظبا فى هامهم لا يكيف يسائل عنهم بالعوالى فتلحف وبلوا من الآلام انشأت تقرف وهاديه عتسن ولحيه اكشف رضاه وقد ابليت ما الله يعرف فرادى وفى الاديان حتى تحققوا يراش لاكباد الاعادى ويرصف فيا لك من عيد بملكين يتحف فتكفى وتستدعى لخطب فتكشف
---	--

اثناء ولايته ، مات فى بلبيس بمصر سنة ٣٨٦ ، الخليفة العزيز بالله ،
وتولى الخلافة بعده اشقى عباد الله وشيطان الخلفاء الرجيم الحاكم بامر الله ،

فاستوزر الحسن بن عمار بن علي ، وهو ابن عم امير صقلية المصلح العظيم .
صفحة سوداء في تاريخ الفاطميين : ارى ان اذكر هنا استطرادا ، وقد
 جردنا الحديث لذكر الطاغية الحاكمة بامر الله ، شيئا من سيرة هذا الجبار
 العنيد لترى إلى أي حد انحطت اخلاق المسلمين في الشرق وماتت قوتهم المعنوية
 وبلغت بهم المذلة والمهانة ، حتى صبروا لحكم كافر جبار ، فاسق فاجر ،
 فكانهم هم الذين خاطبهم معروف الرضافي رحمه الله بقوله :

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبقات عميدها
 واعجب من ذا انهم يرهبونها واموالها منهم ومنهم جنودها
 فكان يامر ببناء الكنائس والمساجد والبيع ، ثم اذا ما تم بناؤها امر بهدمها
 على رؤوس من فيها ، ثم ادعى انه صورة الله ، وان روح الله حلت فيه ، فامر
 بان يقف الناس اجلالا لاسمه عندما ينطق به الخطيب في صلاة الجمعة ، فاطاع
 الناس من نذالتهم امره حتى في الحرمين الشريفين ، وامر بهدم كنيسة
 القيامة في القدس الشريف سنة ٣٩٧ (١٠٠٦) فحدث بذلك رجة هائلة في
 العالم المسيحي كله ، مع ما يصحب ذلك من المبالغات الشعبية ، واذكى بذلك
 نارا كانت تثقد من قبل استعداد للحروب الصليبية الاستعمارية ، وادعى
 ذلك الفاسق الشرير الظالم السفاك للدماء انه يعلم الغيب مع الله ، فوضع
 له رجل على المنبر هذين البيتين :

بالجور والظلم قد رضينا
 ان كنت او تيت علم غيب
 وليس بالكفر والحقاقة
 بين لنا كاتب البطاقة
 وما انجى المسلمين من شروره وآثامه الا اخته ، وويل لامة تعمل امرأة
 واحدة فيها مالا يعمل سائر الرجال مجتمعين ، ويقال انه اراد منها منكرافدست
 له في جهة حلوان من قتله عندما كان يترصد النجوم وذهبت روحه الشريرة
 الى نقمة الله وعذابه السرمدى .

فليقا بل الناظر بين هذا الملك الطاغية ، وما عاناه مسلمو المشرق في نذالة
 وضعة واستكانة في ايامه وبين ما كان مسلموا صقلية يتمتعون به من امن-
 ورفاهية واطمئنان .

وان اردت ان تعرف مدى ما لصق بالدين فى هذا العهد المظلم من خرافات
واباطيل وبدع منكرة صيرت الاسلام نوعا من الوثنية او شرا من الوثنية ،
فاسمع لابن ابى دينار. يقول فى كتاب « المؤنس » :
« وكان بعض شيعته من المغاربة يزعم انه يعود ، فكانوا اذا راوا سحابة فى
الجو سجدوا لها زعما منهم انه فى السحاب » .

تاج الدولة جعفر بن يوسف بن عبد الله

استمر الامير يوسف ، يدير امور صقلية ادارة عادلة رحيمة ، الى ان قضى
الله عليه بداء الفالج اصابه سنة ٣٨٨ (٩٩٨) فعطل جانبه الايسر ، واتفق
الناس معه على تسليم امر الدولة ، لابنه جعفر ، ففعلوا ووضعوه على كرسي
الامارة وراسلوا بذلك طاغية الفاطميين بالقاهرة الحاكم بامر الله فصادق على
ذلك وارسل لجعفر سجل الامارة واعطاه لقب « تاج الدولة سيف الملة »
ثورة على : فى ايامه انتهى عهد النظام والامن والرفاهية (٥٠ سنة) وابتدأ
عهد التدلى والسقوط الذى انتهى بزوال سلطان المسلمين من الجزيرة ووقوعهم
تحت سلطان النرمان .

راى على بن يوسف انه حق بالامارة من اخيه فاستمال اليه جماعة من البربر .
الذين يتبعون كل ناعق ابتغاء الفتنة ، وجماعة من العبيد وتصدى لمحاربة اخيه
جمع جعفر جموعه وخرج للقاء الاخ الخائن فاشتعلت الحرب بين الاخوين
وتمكن جعفر من اخيه الفادر فقتله وقتل من نصره من البربر والعبيد ثم امر
بنفى جند البربر (١) من صقلية فنفوا ، منها وامر بقتل سائر العبيد ، وجعل
جنده من اهل صقلية المسلمين خاصة . فقل بذلك حسبا يرويه البكرى جنده
وسبب له انهيار ملكه .

ثورة الامة : كانت سيرة جعفر اول امره حسنة مقبولة الى ان استوزر كاتبه

(١) اى رجال كتامة الذين كانوا انصار الحكم الفاطمى وحماة . لكنهم لم يرحلوا جميعا ،
كما سترى فيما بعد .

حسن بن محمد الباغاثي وكان فظا غليظ القلب ، وسلم له السلطة واطلق يده في الاعمال ، فاستخف هذا الوزير الوصولي باعيان الامة وشيوخ البلاد وقوادها وامعن في اهانتهم ، وسلك سياسة اقتصادية تخالف ما الفته البلاد ، ففرض الجباية والاعشار على طعام الناس وثمارهم ، وكانت عاداتهم من قبل ان يدفعوا عن كل زوج بقر شيئا معلوما قلت محصولاتهم او كثرت ، ولو انه احسن المعاملة واخذ الناس بالحسنى وخاطبهم باسم الدين لكانت سياسته انجح وخطته اوفق لانها اقرب للزكاة الشرعية مما سار عليه اهل صقلية . لكن الغلظة وسوء الطباع لاثمران الا الفتن والقتل . ولقد خاطبه القوم في الامر فاستغلظ عليهم فثارت البلاد ثورة عامة سنة ٤١٠ (١٠١٩) وحاصر الناس قصر الوالي واشرفوا على اخذه .

عندئذ امر الشيخ العجوز المصاب بالفالج الامير يوسف والد الامير جعفر ان يحمل على محفة وان يخرج للقاء الثائرين فلما رآه هؤلاء وكانت له مكانة عظيمة في القلوب اشفقوا عليه ورثوا لحاله فخاطبهم في شأن ابنه جعفر فاشتكوا من شدته وسوء تدبيره وتدبير وزيره ، وطلبوا منه ان يعزله وان يولي عليهم ابنه الآخر احمد الاكحل فاستجاب الى ما طلبوا ، واعلن عزل جعفر وتولية احمد ، ففرح الناس بذلك واستبشروا به خيرا ، وانتهى امر الثورة بسلام .

ثم ان يوسف خاف ان يصاب ابنه جعفر بمكروه ، او ان تسول له نفسه القيام على اخيه ، فجهز له مركبا حمله مع آله وامواله الى مصر ، وبعد قليل التحق به ومعه من الاموال ٦٧٠ الف دينار ، وقد كان ليوسف من الدواب ثلاثة عشر الف حجرة دون البغال ، ومات رحمه الله بمصر وليست له دابة واحدة . ومن هذا العدد الجسيم ، ومن مقدار ما حمله معه من المال الى مصر ، تدرك مدى الثروة الجسيمة التي بلغها اهل صقلية في منتهى ذلك العصر الزاهر

خسارة جنوب ايطاليا : كان جعفر قد اخذ يوالى الفتح في جنوب ايطاليا عند ولايته ، فاحتل كاليارى وبيزه سنة ٣٩٠ (١٠٠٠) ثم انه في سنة ٣٩٢ (١) هاجم مراكز المسلمين دوج البندقية « ارسولو » وافتك منهم مدينة بارى ، عاصمة الامارة فخسروها انها ، وحلت بالمسلمين نكبة في مدينة ريجيو حيث

خسروا اسطولهم .

ولقد اعادوا الكرة واحتلوا سنة ٣٩٧ (١٠٠٧) مدينة كوسترا Cosenza لكنهم لم يستطيعوا هنالك ثباتا ، وكانت حوادث الثورة ضد جعفر ، وارجاعه البربر لافريقيا قد اضعفت الجند وقللت من عدده ، فاضطر المسلمون لاخلاء قلورية مرغمين تحت ضغط القائد اورسيت ، وذلك سنة ٤١٤ (١٠٢٣) ايام احمد الاكحل السوداء .

الهجرة الى صقلية : اثناء تلك الحوادث ، وفي سنة ٣٩٥ (١٠٠٥) ، وقعت بالبلاد الافريقية مجاعة هائلة وقحط شديد فمات الناس موتا ذريعا من جراء ذلك حتى خلت البوادي واكثر الحواضر ، وخلت الاسواق والمساجد وعمدت البهائم وضائق الارض بما رحبت فيمم الناس شطر صقلية ، وسارت اليها المراكب يتلو بعضها بعضا حاملة جموع اللاجئين من عامة القوم وخاصتهم ، ومن سكان الحواضر والبوادي ، فتقبل امراء صقلية هذه الجموع اللاجئة على الرحب والسعة وافسحوا لهم مكان العيش ويسروا لهم اسباب الارتزاق . واختلت بذلك لامحالة موازين الاقتصاد .

استطراد عن اعمال المسلمين بجنوب ايطاليا

ارى من المفيد تعريب الفصل الثانى من كتاب «غارات الهمج» تأليف المؤرخ الكبير فردينان لوط وقد حوى خلاصة وافية عن تدخل المسلمين فى البلاد الطليانية ، مما يضيف نورا جديدا على ما ذكرناه آنفا خلال تسلسل الحوادث قال :

كانت مدينة نابولى قد اضطرت تحت ضغط الدوق سيكار امير بينيفانت لان تدفع جزية له ، وما قبل اهل نابولى امضاء المعاهدة التى عرضت عليهم سنة

(١) فى هذه السنة توفى ببلاد الاندلس بطلها العصامى الكبير محمد بن ابي عامر ، الملقب بالحاجب المنصور ؛ الذى نالت بلاد الاندلس فى ايامه عزة وسلطانا قلما بلغتها دولة ؛ ودامت ايامه فى حكم مستبذ عادل ٣٦ عاما غزا خلالها اثنتين وخمسين غزوة ، كان النصر فيها حليفه .

١٨٣٦ المكرهين وجلين ، ولقد استغاثوا بامبراطور الفرنج لويس الناسك ، فلم تجد استغاثتهم اذنا صاغية . عندئذ اتجه الامير اندرى دوق مدينة نابولي نحو مسلمى صقلية يستنجدهم فلبوا دعوته وانجدوه ، واضطروا خصمه اللومباردى للانسحاب سنة ٧٣٨ ، ثم اعاد المسلمون الكرة بحرا واحتلوا مدينة ابرنديزى وما انسحبوا منها الا بعد ان تركوها طعمة للنيران .

اخذ المسلمون يوالون التقدم لحسابهم الخاص ، فاحتلوا مدينة « طارنطة » رغم محاولة اهل البندقية الدفاع عنها ثم تمكنوا من مدينة « انقونة » . ورات البندقية يومئذ انها مهددة فعلا فاخذت تتسلح وتتجهز ، لكن اسطولها غلب وانهزم تجاه اسطول المسلمين سنة ٨٤٢ .

ولقد كان موت سيكار الأنف الذكر سنة ٨٣٩ مساعدا للمسلمين على انتصاراتهم الباهرة ، اذ ان الملكة اللومباردية الكبرى قد انقسمت على نفسها اثر موت عاھلها ، وتآلفت على انقاضها مملكتا بينيفانت وسالرنه ، وكانتا مرتعا للفتن التى يثيرها الطامعون فى الملك .

وما كان لهؤلاء الطامعين من معين يعتمدون عليه الا جند المسلمين يستنجده مرة بعد اخرى احد الطامعين ضد خصمه ، ومن هذا القبيل ان الامير رادلشيس البينيفانتى قد استعان بالمسلمين ضد خصمه الامير سيكو نولف السالرنى ، كذلك كان كونت مدينة (بارى) الامير باندو قد فتح لهم ابواب مدينته ، ولم يكن النجاح حليف المسلمين فى نصره هذا الامير ، فقد انهزموا ورجعوا للمدينة بارى فتمكنوا من اكنافها واصبحت لهم طيلة ثلاثين سنة مركزا خيما يباشرونه منه اعمالهم وغاراتهم ، ولقد اضطر رادلشيس ان يفتح ابواب عاصمته بينيفانت فى وجه حلفائه الاشائوس ، وكان المسيطر الحقيقى على تلك الامارة هاتيك الاوقات هو زعيم المسلمين « مصعر » وذلك ابتداء من سنة ٨٤٢ .

ارتأى يومئذ الامير سيكونولف ان يقاوم مسلمى صقلية بجموع من مسلمى اسبانيا وجنوب فرنسا وحتى المسلمين الذين افتتحوا جزيرة اقريطش عام ٨٢٦ ، وهكذا تمكن من افتكاك مقاطعة بيغنتان من بين يدي خصمه لكنه لم يستطع الاستيلاء على العاصمة (بارى) .

فى اليوم الخامس عشر من شهر جوان ٨٤٤ وقع تتويج الامير لويس ، ابن الامبراطور لوثير ملكا على ايطاليا ، وكبرت الآمال فى رؤية هذه البلاد موحدة القوى بصفة كانت فى اشد الحاجة اليها ، لكن الملك الشاب واجه الفوضى العميقة العميقة التي كانت قد ضربت اطنابها فى البلاد ، ثم ان الملكة قد ذاقت الامر من جاراتها ونها بامر الاسطول الحربى .

ذلك ان البحر الابيض المتوسط كان يومئذ بحيرة اسلامية خاصة ولم يكن أى اسطول من اساطيل المسيحية يستطيع ان يعترض لاعمال السفن الاسلامية فى غاراتها وفى انزال الجند بصفة متوالية فى مختلف السواحل .

اتسعت اعمال الاسطول الاسلامى وعمت السواحل الطليانية ، فعمد دوق مدينة نابولى الامير سيرج لجمع قوى امرات نابولى وقايت وامالفى وسورنته ليتمكن من مقاومة تلك الغارات ، لكنه لم يستطع منع المسلمين من احتلال جزيرة ايتسياوراس سورنته والتمكن منهما .

فى سنة ٨٤٦ وقع الخطب الجسيم الذى تزلزل له العالم المسيحى لوعة واسى وذلك ان اسطولا اسلاميا يشل ٧٣ سفينة ، كان قد اقلع من افريقيا واستولى على مدينة اوستى عند مصب نهر التيبر ، ثم اجتاز ذلك النهر حتى ارسى تحت جدران مدينة رومة يوم ٢٦ اوت من تلك السنة .

لم تكن لدى المسلمين يومئذ قوة كافية تمكنهم من مناجزة رومة القتال ومحاولة احتلالها ، فانتهبوا كنيسة القديس بطرس والقديس بولس ، وهما خارج الاسوار وانتهكوا حرمة قبور القديسين ، وما تركوا تلك الاصقاع مثقلين بالغنائم والاسلاب الا عندما اصبحت خالية من الزاد اللازم لهم .

ذهبوا على الاثر يحاصرون مدينة قايط ، ولم يستطع الفرنج ولا اللومبارد صدهم عن ذلك فكانت خيبة المسيحيين متوالية ، لكن مدينة قايط قد تصلبت فى الدفاع وما انقذتها الا عاصفة هوجاء اتلفت اغلب سفن الاسطول الاسلامى .

مهما كانت امبراطورية الكارولين (خلفاء شارلمان) قد سقطت فى مهاوى الانحطاط فانها لم تكن قادرة على عدم التدخل ومحاولة وضع حد لهذه الحالة لذاك اتفق الامبراطور لوثير وابنه لويس ملك ايطاليا وباشرا تحصين الجهة

التي يلتقى فيها نهر التيبر بالبحر وذلك دفاعاً عن كنيسة القديسين ضد غارة اسلامية اخرى ، كما وطدا عزمهما على مهاجمة المسلمين الذين استقرت اقدامهم فى مملكة البيفنتان ، واستصرخا رجال المسيحية لاعتنقهما على ذلك واستقر القرار اخيراً على أن الجند الاصلى المؤلف من الفرنج وجهات بورغونيا وبروفنسا (بالبلاد الفرنسية) يجتمع عند مدينة بافيا يوم ٢٥ يناير ثم يقصد مدينة لارينو حيث يجد العمارة البحرية البندقية وجند دولة البابا وفى تلك الاثناء يجب على اسقف مدينة اريزو ، ومركز مدينة اسبوليت ، ودوق مدينة نابولى ، ان يحاولوا جميعاً اصلاح ذات البين بين امراء بلاد بينيفانت المتخاصمين .

نجحت هذه المحاولة وكللت بالفوز ، وتمكن الحلفاء المسيحيون من استخلاص مدينة بينيفانت ، وهناك وقع القضاء على كامل الحامية الاسلامية وزعيمها الامير مصعر (١) ثم اقتسم الاميران راشلديس وسيكوقولف كامل بلاد ايطاليا الجنوبية وتعاهدا على ان لا يركن احدهما لجانب المسلمين ضد خصمه مرة اخرى وتم كل ذلك سنة ٨٤٧ .

بقيت يومئذ بين ايدى المسلمين مدينة « بارى » يبعثون منها غزاتهم وسراياهم فتولى رهبان « دير كاسان » نشر الدعوة لمحاربتهم واقنعوا الملك لويس الثانى بوجوب ذلك فهاجم المسلمين وغلبهم سنة ٨٥٢ ، الا انه لم يستطع او لم يرد احتلال مركزهم مدينة « بارى » .

على ن قرصان المسلمين كانوا هاتيك الاوقات يقضون مضاجع السواحل الشرقية فاحتلوا مدينة لوني وتركوها من بعد طعمة النيران ثم صعدوا مع مجرى نهر الرون وتمكنوا من مدينة « ارل » بفرنسا سنة ٨٤٩ .

فى نفس هذه السنة ارادوا تجديد المحاولة التي لاقت من قبل ايما نجاح ، فجمعوا على السواحل السردينية اسطولهم ومخروا عباب البحر ، ثم ارسوا

(١) يقول مؤرخو الطليان ان مصعر هاجم مرة مدينة ايزرينا وقبل ان يصلها اعلمه الرواد الذين ارسلهم يرتادون الطرق ، ويمهدون السبل امام الجيش ان زلزالاً حطم اسوار المدينة ،

اتجاه مدينة اوستى ، لكن مصب النهر كان هذه المرة محصنا فلم يستطع المسلمون اقتحامه ، ثم جاء اسطول مدينة نابولي فنازل الاسطول الاسلامى الى ان ثارت روية شنت شمل هذه العمارة . كان يومئذ الامير مفرج يشبث مركزه بمدينة بارى ويدعم هنالك سلطانه وقد اختط فى المدينة مسجدا للمسلمين واعلن انفصاله عن امير صقلية ثم اتخذ لنفسه لقبا كان قليل الاستعمال يومئذ بين المسلمين الا وهو لقب « السلطان » .

لقد كانت الخلافات المستحكمة الحلقات بين امراء ايطاليا وزعماء مدنها تمنعهم من جمع الشمل والتكتل لمحاربة هذه الدولة الناشئة ، فاغتتمت هى تلك الفرصة ونكلت بالبلاد تنكيلا ذريعا ، وكانت ترسل بسفنها مثقلة بالرقيق يباعون فى الاسواق الافريقية .

ويؤكد الرهبان المؤرخون بدير كاسان ان هذا السلطان كان يلتذ كل يوم بقتل خمسمائة نفس (١) وأخيرا تمكن السلطان من احتلال دير كاسان نفسه (٢) وهنالك اخذ يلهو بالشراب فى اباريق الرهبان ويتطيب ببخورهم .

اخيرا ، فيما بين سنتى ٨٦٦ و ٨٦٧ ، اعتزم الامبراطور نجدة المسيحيين بايطاليا ، فنازل المسلمين ودحرهم حتى اووا الى مدينتى بارى وطارنطة ، لكن الامبراطور لم يستطع نصب الحصار على تينك المدينتين نظرا لفقد عمارة بحرية ولقد كان اسطول رومى جاء تلك الربوع ، لكنه اضطر للرجوع من حيث اتى ، وهكذا قويت آمال المسلمين وامتطوا صهوة الحيل العتاق التى غنموها من الافرنج ، فاندفعوا يجوسون خلال الديار ويمعنون فى غزوها .

لكن الامبراطور لويس ، لم يغير عزمه رغم مرضه ، فخاطب جماعات المسيحيين الذين امدوه بقوة من رجال صقلية دلماسيا (بلاد يوغوسلافيا اليوم)

وان المسلمين يستطيعون دخولها دون قتال ، فقال مصر ان الله قد اظهر سخطه على هذه المدينة وانتقم منها فلا ازيد اهلها هما على هم ، ولوى عنانه وتركها وشأنها ترمم خرائبها ولا أعرف فى تاريخ الفروسية والشهامة عملا يضاهى فى نبلة هذا العمل . كذلك يؤكدون انه كان يمر حوالى ديسر كاسان ولم يهاجمه ولم يرد احتلاله .

وسربيا ، وجاء اسطول القسطنطينية يعزز بحريا تلك الحملة ، وحمى الوطيس
برا وبحرا ، واندحر جند اسلامي جاء مددا لمدينة باري فبعد حرب عوان دامت
اربعة اعوام ، وبعد حصار ضيق النطاق ، سقطت مدينة باري يوم ٢ فيفري
سنة ٨٧١ (٣) (٢٥٨ هـ)

لكن هذا النصر قد اقلق امراء ايطاليا وبلبل افكارهم ، خوفا من اغتنام
الامبراطور تلك الفرصة لنصب سلطانه عليهم واخضاعهم ، فدبروا مكيادة
واوقعوا الامبراطور اسيرا بين ايديهم يوم ١٣ اوت من تلك السنة ، وما
اطلقوا سراحه وارجموه لبلاده يوم 17 سبتمبر الا بعد ان تعهد بان يترك لهم
جميع الغنائم والاسلاب التي استولى عليها بعد انهيار دولة المسلمين في
باري ، كما تعهد لهم بانه لا ينتقم منهم جزاء خيانتهم .

في هذه الاثناء كان الجيش الاسلامي الصقلي تحت قيادة امير صقلية العباس
بن الفضل يكتسح جهات نابولي وقابو وبلاد البينيفنتان ، لكن امراء نابولي
وقابو وبينفانتى تأبوا واقفوا تيار المسلمين ، ولقد هاجم هذا الجيش الاسلامي
مدينة « كاسينو » بشدة وكاد يتمكن منها لولا ان الامبراطور ، رغما عما
جرى ، قد هب لنجدها ، ولقد اصابه مرض اثناء ذلك ، لكن قواده نالوا نصرا
مبيناً وفكوا الحصار عن المدينة في صايفة سنة ٨٧٢ ، لكن موت الامبراطور
سنة ٨٧٥ قد جعل هاتيك الجهود الكبيرة تذهب سدى ، ذلك ان خليفة
الامبراطور ، شارل الاصلع ، وقد ارسل البابا يستغيث به ضد المسلمين ، قد
جند جندا واجتاز جبال الالب ثم عاد ادراجه بسرعة نحو بلاده وقضى نحيبه دون
ان يقوم بادنى عمل ، ولم يجد البابا يومئذ من ملجأ يلجأ اليه الا مصانعة
المسلمين ، فتعهد لهم بدفع جزية مكنته من راحة نسبية .

(١) القرية ظاهرة ، ولا ينتظر من راهب بدير كاسان في حالة حرب مع المسلمين وفي القرون
الوسطى ان يكتب غير هذا .

(٢) المسافة بين باري ودير كاسان ٢٥ كيلو مترا .

(٣) يقول مزرخو الطليان ان الامبراطور كان قد اقسم ليقتلن كل مسلم في المدينة ، وكان

لقد كان بحر الادرياتيك يومئذ مرتعا لاعمال القرصنة الاسلامية . وكانت مدينة البندقية وحدها تقاوم هنالك هاتيك الاعمال . اما ايطاليا الجنوبية فقد كان امير بينيفانت غير مستطيع وحده الذود عنها .

كانت مدينة بيزنطة « القسطنطينية » قد ملكت عائلة امبراطورية جديدة هي عائلة مقدونيا ، وتولى كبرها يومئذ بازيل الاول ، واسترجعت بيزنطة ما كانت فقدته من صفة الحامية ، فجهز الامبراطور اسطولا حربيا عتيذا يشمل اربعين سفينة ارسل به نحو السواحل الصقلية الاسلامية فنال ذلك الاسطول فوزا مبينا . ثم انه في سنة ٨٨٠ تمكن الروم البيزنطيون من استخلاص قلورية من بين ايدي المسلمين ولقد كانت مدينة بارى قد تقبلت قبل ذلك واليا روميا اغريقيا من قبل الامبراطور .

لكن تلك الراحة لم تدم طويلا حيث اننا رأينا سنة ٩٠٢ الامير ابراهيم بن الاغلب الثاني يكتسح بجندة ارض قلورية ويلاقى حتفه تجاه مدينة كوسترا . ورغمما عما اصاب المسلمين في الجنوب الايطالي فقد بقيت بايديهم مراكز منيعة مثل سابينو شمال بينيفانت وجنوب بسطوم وميدان كاريليانوا المحضن وخرائب ديرافارفا ومن سائر هذه الجهات كانوا يستطيعون باستمرار تهديد مدينة روما .

يومئذ اعتزم البابا يوحنا العاشر التخلص نهائيا من هذه المعازل الاسلامية المهددة ، فمنح تاج الامبراطورية لبير انجي الفريولي في دسامبر ٩١٥ ، لكن هذا الامبراطور الدعي لم يعمل عملا ، وانسحب للشمال الطلياني فاعتمد اهل روما على انفسهم واستعانوا بمركيز اسبوليت الامير البريك ، فاستولوا على معقل « فارفا » الاسلامي ، ثم تألب جميع امراء ايطاليا الوسطى والجنوبية ، وبذلوا اقصى جهودهم فتخلصوا من المعقل الاسلامي المنيع (كاريليانو) ، واعانهم الاسطول الرومي على ذلك ، واستولوا على المعقل وقتلوا من كان به من

الجوع قد حطم قوى المسلمين . فبعد مقاومة يائسة استسلموا واحتل الامبراطور المدينة فذبح بسيوف جنده جميع « الكفار » ولم ينج منهم الا السلطان مفرج ، واثان من خاصته هما حنون وعبد الباقي ؛ اذ اختفوا بعد انهيار الدفاع في برج من البروج ، ثم ساروا ملتجئين لامير بينيفانت « ادلفيز » فاکرم وفادتهم ، معترفا بجميل السلطان الذي كان قد انقذ شرف ابنته في سالف الايام .

المسلمين ، ولقد كان ذلك النصر الحاسم فى شهر اوت سنة ٩١٦ من اكبر وقائع
ايطاليا الحربية ، وقد شارك فيه البابا بنفسه وعرض ذاته للخطر ، وكان فخورا
بذلك .

كان ذلك النصر قد درأ عن مدينة روما الخطر الاسلامى ، لكنه لم يدرأ عن
السواحل خطر القرصنة ، ولم يدرأ عن الجنوب الطليانى خطر الغارات والغزوات
ففى سنتى ٩٣٤ و ٩٣٥ ، استولت جنود الخليفة ابنى القاسم الفاطمى على
مدينة جنوة حينما وانتهبتها .

وفى سنة ٩٦٥ اندحر اسطول الروم تجاه مسلمى صقلية عند مدينة
مسيناسنة ٩٦٥ (وقعة المجاز) (١)

تكونت الامبراطورية المسيحية فى المانيا اثناء هذه الحوادث واراد الاباطرة
ان يتولوا كبر الحملة على المسلمين .

ففى سنة ٩٨٢ سار الامبراطور اوطون الثانى نحوهم فاحتل مدينة طارنطة
ثم واجه جندامير صقلية ابنى القاسم عند السواحل تجاه مدينة ستيلو او
كوترنى ، ولقد تولى الفرسان الالمان مهاجمة القلب الاسلامى فضعضعوا قواه
ودحروه ، لكن الجناحان الاسلاميان تمكنا فورا من تلافى الفادحة ، فانطبقا
بسرعة على فرسان الالمان ، وباء الالمانيون يومئذ بانهزام شنيع ، وانسحب
الامبراطور مغلوبا مقهورا وما استطاع الفوز بنفسه الا بفضل سفينة رومية -
انقذته من الاسر ، اما امير صقلية فقد لقي حتفه شهيدا اثناء تلك المعركة (٢) .

ولقد مات الامبراطور قبل ان يتمكن من الاخذ بالثار وحدث اضطراب فى
الامبراطورية فاصبح كل امير طليانى يتولى بجهوده الخاصة مقاومة المسلمين .
ففى سنة ١٠٠٢ حاصر مدينة بارى القائد الصقلى « الصافى » فدافع عنها -
القائد الرومى والعمارة البندقية معا وابعد عنها المسلمين ثم ان مدينة بيزا
تمكنت ١٠٠٦ بواسطة جهودها الخاصة من دحر اسطول المسلمين عند مدينة
رجيو ثم تدخل النرمان وانتهى امر المسلمين .

(١) انظر تفصيلها صفحة ١٢٦ (٢) انظر التفصيل صفحة ١٣٧ .

اسد الدولة احمد الكحل

اولاه ابوه وارتضاه الناس ، كما اسلفنا ، فى السادس من شهر المحرم سنة ٤١٠ (١٠٠٩ م) وابتدأ اعماله بحزم شديد ، فضبط الامور ، ومهد الراحة ، ودانت له سائر البلاد .

ولقد رأى النرمان اثر حوادث الثورة السالفة ان الشقاق اخذ يدب من جديد بين مسلمى صقلية فقررُوا ان يهتبلوا الفرصة ، واخذوا يناوشون جند المسلمين لكنهم لم ينالوا فى اول الامر منالا ، واوقفهم جنود احمد عند حدهم .

سياسة قرق تسد : كان اسد الدولة احمد الكحل يعتمد على ولده جعفر كما كان اخوه جعفر يعتمد على وزيره الباغاثى ، فكانت النتيجة خسرانا مبينا لهذا كما كانت النتيجة خسرانا مبينا لذلك .

رأى جعفر بن احمد انه لا يمكن حكم صقلية والثبات بها الا بالاعتماد على فريق فيها دون فريق وتكوين عصبية متينة حول قصر الامارة تحميه من عاديات الزمن واضطرابات الشعب . ولو انه اعتمد على العدل والانصاف واحقاق الحق وازهاق الباطل ، كما اعتمد اجداده واعمامه من قبل ، لكان مآله احسن ، وعاقبته اضمن .

كان سكان صقلية ينقسمون الى فريقين : فريق الصقليين المتاصلين الذين استوطنوا البلاد منذ اوائل عهد الفتح وذرياء تهم ومن اسلم من السكان الاصليين وفريق الافارقة الذين جاءوا البلاد حديثا مع ولاية الفاطميين واستقروا بها واغلبهم من البربر من كتامة وغيرها ، ممن بقى بعد ابعاد تاج الدولة لهم اراد جعفر ان يعتمد اول الامر على فريق الصقليين فخاطبهم فى الامر وقال لهم اننى أريد ان اخرج عنكم هؤلاء الافارقة الذين سكنوا بلادكم وشاركوكم فى دياركم واعتمد عليكم وحدكم فى حكم البلاد فقال له وجوه القوم حذار ان تفعل ذلك ايها الامير فاننا قد صاهرناهم واصبحنا واياهم شيئا واحدا فلما اخفق مع هذا الفريق خاطب زعماء الافارقة فى الموضوع فقبلوا الاقتراح بسرور

تاريخ صقلية - ١٢

وابتهاج واصبحوا منذ تلك الساعة فريقا ممتازا فى الامة ، واعفوا من دفع الضرائب ، فاصبحت الاتاوات لاتمس الا الصقليين الاصلين خاصة ، فوقع من جراء ذلك اضطراب عظيم ، وانقسم حبل الامة وسادت الضغينة والاحقاد بين فسميها ، واستعد النرمان الذين كانوا يرقبون ذلك عن كثب لانزال الضربة النهائية على رأس ذلك الهيكل الذى تداعى للسقوط .

تدخل المعز بن باديس : اصبح الصقليون فى كرب عظيم . فارسلوا خفية وفدا من وجوههم ام بلاط المعز بن باديس مستصرخا مستنجدا ، وقالوا له : لئن لم ترسل من قبلك من يحكمنا حكما عادلا نزيها فاننا سندسلم انفسنا المروم تخلصا من الظلم الفادح .

كان المعز بن باديس قد استقل فعلا بامور افريقيا ، وصفا له الجوامع موقتا ، فاقبل على الانشاء والتعمير ، وكانت له مدينة من اجل واروع ما رآته البلاد الافريقية .

وكانت الخلافة الفاطمية يومئذ تتخبط فى مصر فى دياجير من الكفر والالحاد ، ومن الفسوق والفجور ، ومن المظالم والارتباك بين عصر الحاكم بامر الله وعصر ابنه الظاهر لاعزاز دين الله ، بين ادمان الخمر والاعتكاف على الملذات ، فكان المعز ابن باديس يبغض الفواطم بغضا يكنه فى فؤاده ، وكان يرى وجوب استخلاص اكثر ما يمكن من بلاد الاسلام وانتشالها من بين يرائثهم وكذلك كان اهل صقلية قد راوا ان لا امل لهم فى الاعتماد على الفاطميين ولا نجدة ترجى لهم من قبلهم ، فولوا وجههم كما رايت شطر القيروان يستصرخون ابن باديس ويستنجدونه .

اغتنم ابن باديس تلك الفرصة انجادا لاهل صقلية ، وادخلا لتلك البلاد تحت سلطة القيروان كما كانت اول مرة ، فارسل ولديه عبد الله وايوب وارسل معهما جندا قويا يشمل ثلاثة آلاف راجل فدخلوا ارض صقلية وهاجموا قصر الامارة مع من انضم اليهم من الصقليين فاستولوا عليه وقبضوا على الاخرق احمد الاكحل فى الخالصة وازهقوا روحه سنة ٤١٧ (١٠٢٦) ، واخذ ابن المعز يدبران الامر بحكمة ورأى سديد .

نكبة هائلة : كان النيرمان ، كما قلنا يرقبون عن كثب سير الامور بصقلية ، ويستعدون لانزال الضربة الحاسمة بها ، وما كان الصقليون عن ذلك ممن الغافلين ، فقد ارسلوا الى المعز يستنجدونه ويستصرخونه ، ويطلبون اليه ان يمددهم بقوة عتيدة تمنع عنهم خطر الترمان وتحمل ارض الجزيرة من كل طامع ولقد كان الترمان وجماعة النصارى كما اسلفنا ، قد استخلصوا كامل ارض قلورية واحاطوا بصقلية متكالبين .

لبنى المعز بن باديس رحمه الله الطلب ، فانتدب الناس واستنفرهم للجهاد، وتطوع خلق كثير باعوا انفسهم لله وفى سبيل دينه ، وتم تجهيز اسطول يجمع ٤٠٠ سفينة مثقلة رجالا وخيلا وسلاحا .

انما قضى الله يومئذ بهلاك الجزيرة ولا مرد لقضائه ، فذلك الاسطول العظيم الذى كان يستطيع بقوته وبمن فيه ان يقلب صفحة التاريخ فى صقلية، يله اروبا نفسها ، قد سار حتى وصل جزيرة قوصرة ، وهنالك اصابته زوبعة هائلة اتلفته كله ولم ينج من اهله الا القليل ، فكانت هذه النكبة المؤلمة والكارثة الجلى اكبر اسباب ضياع صقلية ، ومن اعظم اسباب ضياع ملك ابن باديس نفسه الذى اندك فيما بعد تحت ضربات الاعراب الهالين .

فى هاتيك الاثناء ، اجتمع جماعة من اهل صقلية يتلاومون ، وقالوا لقد ادخلتم على حكمكم غيركم ، وفقدتم استقلالكم ، واستنصرتكم من لا يستطيع نصركم ، فاتفقوا على نصب امير من عائلة بنى العحسن وارجاع الملك لهم ، فثاروا بولدى المعز ، وقتلوا من جندهما زهاء الثمانمائة رجل ، وما وسع عبد الله وأيوب الا الرجوع بفلولهما لافريقيا ، ونصب الصقليون فى بالرمة صمصام الدولة حسن ، شقيق أحمد الاكحل القليل .

صمصام الدولة حسن بن يوسف

تتأثر العقد من وسطه ومن أطرافه ، وأخذ النيرمان يتقدمون فى البسلاد . وكان الصمصام مفلولا ، فلم يستطع ان يوطد ملكه او ان يثبت سلطانه ، ولم يجد المسلمون يومئذ وسيلة تنجيهم من ذلك الخطر الداهم ، خطر النيرمان

المميت ، الا الانقسام على انفسهم واستقلال كل أمير بناحية . وصدق الله العظيم « فانها لا تعمى الابصار ، ولكن تعمى القلوب التي فى الصدور » .
ففى بالرمة العاصمة كان الصمصام حسن يحكم الناحية الشمالية . وفى مازرة وما حولها استقل بالامر عبد الله بن منكوث . وفى جرجنتى وما اليها استبد بالامارة على ابن نعمة بن الحواس . وفى سرقوسة وقطانية استقر بن الثمنة . واستقل فى جهة مسينا أمير آخر . واصبح أمير البلاد فوضى ، وتغلب سفلة القوم على اصحاب الرأى والاصالة فيهم .

القادر بالله بن الثمنة

اجتمع أهل بالرمة وأعلنوا خلع طاعة حسن لما راوا من ضعفه ، وما كان ضعيفا الا بهم ، وأمروا عليهم القادر بالله ابن الثمنة ضامين بذلك امارتى سرقوسة وقطانية وامارة بالرمة ، وكان ابن الثمنة متزوجا ميمونة أخت على ابن الحواس أمير جرجنتى ، فكان ذلك بادرة من بوادر جمع الكلمة ومحاولة يائسة لتوحيد صفوف تلاشي نظامها أبديا (١) .

الخرب الاخوية والغيانة : سكر الامير يوما فخلط ، فاتهم زوجه أخت ابن الحواس تهمة هى منها بريئة ، فقطع لها عرق الزند لثموت من نزيف الدم . لكن ولدها ادركها فى اللحظة الاخيرة وجاءها بالاطباء فانعشوها . ومن الغد ادرك الامير سوء فعله فاعتذر لزوجه ، وتظاهرت بقبول الاعتذار ، ثم طلبت اليه ان تذهب لزيارة اخيها فاذن لها . وهنالك قصت على ابن الحواس ما فعل بها زوجها ، فاقسم لينتقم لها منه ، وجمع جموعه لا لرد غائلة النرمان ، بل لمحاربة امير بالرمة ابن الثمنة ، والتقى الجمعان ودارت الدائرة على ابن الثمنة ومن معه ، وانتصب ابن الحواس اميرا فى بالرمة .

اما ابن الثمنة فقد ادت به التذالة والصغار الى جزيرة مالطة ، حيث كان ملك النرمان ، وطلب اليه ان يمدد بجنده ووعدته بملك الجزيرة وما كان روجى الاول

(1) أثناء هذه الحوادث سنة 430 وما حواليتها توطد قدم الأتراك السلجوقيين ببلاد الشام وفلسطين وانتزعوها من أيدي ملوك الطوائف وأمرأ الفاطميين .

ملك الترمذى ينتظر الا مثل ذلك الحادث فجمع اسطوله وجموعه الوحشية وسار مع الخائن ابن الثمنة كما سافر منذ مائتى عام اسد ابن الفرات مع الخائن او فيماس لفتح صقلية .

خراب دولة المعز على يد بنى هلال : فى سنة (١٠٧٣) حيث كانت تجرى هذه الحوادث ، وحين كان من المستطاع التفات المعز من جديد بعد نكبة الاسطول السالفة الذكر وبعد اخراج ولديه من صقلية ، لتلك الناحية البائسة ، وقعت فى مدينة القيروان الفتنة الشهيرة ضد الشيعة او الرافضة كما كانوا يدعون فى ذلك الوقت ، وانقض اهل السنة على رجال الشيعة فقتلوهم فسى الحواضر والبوادر اشنع قتلة ، واعلن المعز يومئذ خلع طاعة الفاطميين وخطب للخلافة البغدادية العباسية وحمل الناس عامة على مذهب مالك ابن انس رضى الله عنه . ثم جاءه من بغداد سنة ٤٣٩ الوزير ابو الفضل بن عبد الواحد الدرهمي يحمل له من الخليفة العباسي القائم بامر الله تقليدا يعترف له فيه بالاستقلال بلغت تلك الانباء مدينة القاهرة ، فعظم الامر على بلاط الفاطميين فيها ، ولقد اشار على الخليفة المنتصر بالله ، وزيره احمد بن على الجرجاني ، ان يرسل اعراب بنى هلال على بلاد المغرب ، انتقاما للشيعة ، وتحطيم اسلطان صنهاجة وملك بنى باديس ، وتخلصا فى آن واحد من اولئك الاعراب الذين كثررت قلاقلهم فى شرق الصعيد المصرى .

قبل الراى كما هو معلوم فى كتب التاريخ ، وانصب على ارض افريقيا من تلك الجموع نحو النصف مليون نسمة ، صادموا جند المعز سنة ٤٤٠ (١٠٤٨ م) فدحروه وتحصن فى القيروان فنازلوه بها واحتلوها ، والحقوا بها نكبة كانت من اكبر نكبات التاريخ فى العالم الاسلامى ، فاندكت بذلك معالم مدنية من ازهى وازهر مدنيات هذه البلاد .

يقول شاعر بلاط المعز الحسن ابن رشيق ، واصفا مصيبة القيروان من قصيد طويل :

وسما اليها كل طرف وان	حسننت فلما ان تكامل حسننها
وغدت محل الامن والايمان	وتجمعت فيها الفضائل كلها

نظرت لها الايام نظرة كاشح
حتى اذا الاقدار حم وقوعها
اهدت لها فتنا كليل مظلم
بمصائب من فادع واشالسب
فتكوا بامة احمد ، اتراهموا
نقضوا العهود المبرمات واخفروا
فاستحسنوا غدر الجوار واثروا
ساموهم سوء العذاب واظهروا
والمسلمون مقسمون تنالهم
يستصرخون فلا يفاث صريخهم
بادوا نفوسهم فلما انفذوا
خرجوا حفاة عائدين بربهم
هربوا بكل وليدة وفطيمة
فتفرقوا ايدى سبا وتشتتوا

ترنو بنظيرة كاشح معيان
ودنا القضاء لمدة واوان
وارادها كالناطق العيدان
ممن تجمع من بنى دهمان
امنوا عقاب الله ، فى رمضان
ذم الاله ولم يفوا بضممان
سبى الحريم وكشفة النسوان
متعسفين كوامن الاضغان
ايدى العصاة بذلة وهوان
حتى اذا سئموا من الازمان
ما جمعوا من صامت وحسان
من خوفهم ، ومصائب الالوان
وبكل ارملة وكل حصان
بعد اجتماعهم ، على الاوطان

اما المعز فقد ترك اواسط البلاد للاعراب والتجأ الى الساحل ، فاستقر فى المهديّة . ثم هدأت نوعا ما عاصفة الاعراب الذين اخذوا يتوغلون فى بلاد الشمال الافريقى من مشرقة الى اقصى مغربه ، واخذت الدولة الصنهاجية تنتعش شيئا فشيئا ، وكانت فيها باقية صالحة للحياة .

ملوك الطوائف وتميم بن المعز : انقسمت البلاد التونسية يومئذ ، وكانت مهد وموطن الدولة الصنهاجية الى عدة امارات صغيرة واهية البنيان ضعيفة الشأن .

فمنها امارة بنى خراسان بمدينة تونس وما حوالها ، استقلوا بشؤون تلك الناحية من حوالى سنة ٤٥٨ الى سنة ٥٥٣ (١) .

ومنها امارة بنى جبارة بن مكى استقلت بناحية سوسة الى سنة ٥٥٤ .
وامارة بنى مدافع بن جامع الهلالى : استبدت بناحية قابس وما اليها من بلاد الجنوب الى سنة ٥٥٥ .

اما ناحية الجريد ، فقد استقرت بها عائلة بنى الرند ، ودام استقلالها
اكثر من الامارات السابقة اى الى سنة ٥٧٥ .

واخيرا بمدينة المهديّة وحواليها من ناحية الغرب والجنوب ، ثبتت امارّة
بنى المعز بن باديس الصنهاجية ، الى سنة ٥٥٥ ، حيث جاءت دعوة مهديّة
اخرى من ناحية المغرب كانت هذه المرة سنّية موحدة ، قضت على ملوك
الطوائف ، ووحدت بلاد الشمال الافريقيّ فى امور الدين والدنيا ، على يد بطل
من ابطال الاسلام الخالدين : عبد المؤمن بن علي .

وقد ازدان ملك صنهاجية بالمهديّة ، كما ازدان ملكها من قبل بالقيروان
ببلاط فاخر التفت حوله ثلة صالحّة من رجال العلم ، واعلام الادب ، وكبار
الفلاسفة والشعراء ، فكانت ايام المهديّة على صغر حجم المملكة وتعاقب الحروب
بينها وبين الهلاليين ، اياما مشهودة فى تاريخ الفن والعلم والادب ، وقصدها
من كل ناحية امثال فيلسوف الاندلس الشهير امية ابن ابي الصلت والمجتهد
الاكبر الامام المازرى والتجّأ اليها بعد خراب صقلية شاعرها الاعظم عبد
الجبار بن حديدس ، وكان امير المهديّة تميم بن المعز من خير الرجال عقلا
وادبا ، وحسن ادارة ، ومعرفة باصول الادب والشعر ، وانه ليصور لك
حال مملكته وحال رجاله وحال العالم الاسلامي كله فى ذلك العصر اذ يقول :

يادهر ما اقساك من متلون	فى حالتك ما اقلك منصف
اتروح للنكس الجهول ممهدا	وعلى اللبيب الحر سيفامرهفا
واذا صفوت كدرت شيمة باخل	واذا وفيت نقضت اسباب الوفا
لا ارتضيك وان كرممت لاننى	ادرى بانك لا تدوم على الصفا

(١) اثر نكبة الدولة الصنهاجية الشرقية على يد الهلاليين وخراب القيروان ، اعلنت مدينة
تونس التى كانت يومئذ من ازهى وازهر المدن فى الشمال الافريقيّ انضمامها للمملكة الصنهاجية
الغربية ؛ مملكة بنى حماد ، وكانت قد استقرت فى بجاية وانتظم شملها وذاع صيتها واصبحت
كعبة القصاد ومحط رحال العلم والادب وكبار الشعراء ؛ فعين ملك بجاية الناصر ، الامير عبد الحق
ابن خراسان واليا على مدينة تونس وما حواليها ، فلما استقر به المقام وتم له الاتفاق مع اهل
البلاد ؛ اعلن استقلاله ، وحافظ هو وبنوه على ذلك الاستقلال فى تلك الامارة الصغيرة الرقعة
الكبيرة الاهمية مدى مائة عام .

زمن اذا اعطى استرد عطائه واذا استقام بدا له فتحرفا
ما قام خيرك يا زمان بشره اولى بنا ماقل منك وما كفى
ثم هو يخاطب البقية من قومه ، يحرضهم ويستفز منهم الحمية ، كأنه يلهب
فيهم نار الايمان ليرسل بهم نجدة لمسلمى صقلية :

متى كانت دماؤكم تطل ؟ اما فيكم بشار مستقل ؟
اغاثم ثم سالم ، ان فشلتهم فما كانت اوائلكم تذل
ونتمت عن طلاب المجد حتى كان العزم فيكم مضحـل
وما كسرتم فيه العـوالى ولا بيض تفـل ولا تسـل
وتسمو به احيانا نفسه الابية حتى تبلغ ذروة الطموح للعلـى واسترجاع المجد
الآفل :

بكر الخيل دامية النحـور وقرع الهام بالقضب الذكور
لاقتحمها حربا عوانا يشيب لهولها راس الصغير
فاما الملك فى شرف وعـز على التاج فى اعلى السريـر
وما الموت بين ضبا العوالى فلسـت بخالد ابد الدهور

محاولة انقاذ صقلية : اخذ فى صقلية اميرها المتغلب على بن الحواس يجمع
الجموع ويحاول توحيد الكلمة ، لتاليب الناس ضد النرمان ، والدفاع النهائى
عن حكم المسلمين بتلك الجزيرة .

فى هاتيك الاثناء ، قصد وفد من رجال الجزيرة مدينة المهديـة ، وقد علم كما
علمت فضل اميرها ونخوته وهمته العالية ، فاستنجدوه واستمد منه الاعانة
على الفرنج المتكالبين . فما كان من الامير تميم بن المعز الا تلبية الدعوة ،
واستنفار الناس للجهاد ، فجهز بعض قطع الاسطول الذى كان بالمهدية ، وحمله
ثلة صالحة من بقايا جنده ، وارسل بكل ذلك تحت قيادة ولديه على وايوب .
نزل على بن تميم بقسم من الجند فى مدينة بالرمة ، ونزل ايوب بالقسم
الاخر فى مدينة جرجنتى ، فاکرم ابن الحواس وفادتهما ، وتفاءل الناس خيرا
بهذا المدد الكريم ، واحسن ايوب وعلى السيرة ، فمال اليهما الناس واحبوهما
حبا عظيما واستعد الجميع للجهاد ضد النرمان .

لكن ابن الحواس خشى منهما على ملكه المتضعع ، وخاف زوال سلطانه
الآفل ، ففرق الكلمة بعد اجتماعها ، وشتت الشمل بعد التثامه ، وجمع جماعة
من جنوده صادم بهم نذالة وخيانة وصغارا جند المتقذين على وايوب ، ومات
اللعين فى معركة بضربة سهم .

ايوب بن تميم

اجتمع اكثر الناس يومئذ على ولاية ايوب ، وروا فيه الرجل الصالح والقائد
الذى يمكنه انقاذ الجزيرة من رجال النرمان الذين كانوا يتقدمون دائما، فياكلون
اطرافها ، وقد التهموا منها الشيء الكثير بل اصبح اكثرها بين ايديهم، واخذت
نيران الحماس تتقد فى النفوس يذكىها شعراء امجاد امثال عبد الجبار بن
حمديس الذى انشد قصيدا خالدا انتشر يومئذ بين الناس فاستنهض همهم
ودفع بهم الى مقاومة عنيفة هى مقاومة اليائس المستميت ، قلما رأيت لها مثيلا
فى اسفزاز الهمم الفاترة للدفاع عن الوطن المشرف على الهلاك . واننى لا ارى
غنى عن تسجيل هذا القصيد برمته لانه يمثل بنفسه صفحة من غرب واروع
صفحات الجهاد الاسلامى بصقلية . يقول ابن حمديس :

بنى الثغر لستم فى الوغى من بنى امى	اذا لم اصل بالعرب منكم على للعجم
دعوا الخوف انى خائف ان تدوسكم	دواء وانتم فى الامانى مع الحليم
وكاس بام الموت يسعى مديرها	الى اهل كاس حثها بابنة الكرم
فردوا وجوه الخيل نحو كريهة	مصرحة الروم بالثكل واليتيم
تهيل مع النقع المحلق بالضحى	على الشمس ما هالته ليلا على النجم
وصولوا ببيض فى العجاج كأنها	فروق بضرب الهام محمرة السجم
فلا عدت من سلها من غمودها	ظهورا ، فقد تخفى الجداول بالرجم
وقرع الحسام الرأس من كل كافر	احب الى سمعى من الثقر فى اليم
ووالله منكم كل ماض كعضبة	يسير الى الهيحاء متقد العزم
يحدث بالاقدام نفسا كأنها	تطير الى الحرب اشتياقا عن السلم
ويسطو بمحجوب الظباء اذا بدا	جلاما جلا بالصبح من ظلمة الظلم

له دخلة فى الجسم تخرج نفسه وما يفتدى منه بلحسم ولا دم ليوث اذا ما اقبل الموت فاغرا له عين ضرغام هصور ، فقلبه ولله ارض ان عدتم هواءها وعزكم يفضى الى الذل والنوى وان بلاد الناس ليست بلادكم اعن ارضكم تغنيكم ارض غيركم تقيده من القطر العزيز بموطن واياك عنه ان تجرب غربلة

قبيل خروج الحد منه على الجسم ولكن بما فى العظم بالبرى للعظم يردد فى الاسماع جرجرة القمر بتصريف فعل الجهل منه على علم قاهواؤكم فى الارض منشورة النظم من البين ترمى الشمل منكم بما ترمى ولا جارها والحكم كالجار والحكم وكم خالة جداء لم تفن عن أم ومت عند ربع من ربوعك اورسم فلن يستخير العقل تجربة السم

النكبة : استمر الجهاد عنيفا قاسيا ، انما كان النرمان يتقدمون فى البلاد باستمرار ، واخذ الخناق يضيق على المسلمين هنالك ، ولقد صدق من قال :

يغمى على المرء فى ايام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

ففى هاتيك الايام ، والنرمان يتقدمون والمسلمون يتوالى خسراهم ، ويستمر انهيارهم ، تألب جماعة من المسلمين هنالك ضد ايوب بن تميم ، وناووه وقاتلوه على مرأى ومسمع من النرمان (١) ، فعلم هذا انه خسر الصفقة ، وعلم كبار القوم هنالك ان صقلية قد ضاعت على يد سفهاثا وانذالها ، فقرر ايوب وقرر وجوه القوم معه الانسحاب الى المهدية ، فركبوا الاسطول ، حاملين معهم جميع من راي الانسحاب من الجزيرة من خاصة القوم واعيانهم وعامتهم وكان ذلك سنة ٤٦١ (١٠٧٨) وعندئذ انتهى امر المقاومة المنظمة او الشبيهة بالمنظمة وخلا الجو لرجال النرمان فاندفعوا يحتلون بقايا الجزيرة .

آخر مقاومة : لم يبق يومئذ بارض الجزيرة بيد المسلمين الا قلعة قصر يانة ومدينة جرجنتى ، فقصدهما رجار الاول ملك النرمان ، ونصب عليهما الحصار

(١) الامر اعظم من ان يكون تنظما وجهالة ، بل كان فى نظرى نتيجة خيانة وتواطىء مع النرمان

وضيقه ، وتفانى اهل المدينتين فى الدفاع ، واستبسلوا استبسالاً لو وقع من قبل مثله لبقيت صقلية احقاباً عديدة اخرى بيد المسلمين ، ودام الحصار ثلاثة اعوام ، حتى اكل المحصورون الجيف ، فاستسلمت جرجنتى ، ونصب النرمان عليها لواء الصليب وبقبب قصر يانة ثابتة منيعة رغم الجوع والخصاصة والالام ، فسجلت فى تاريخ المقاومة الاسلامية ضد النرمان ، ما سجلته من قبل فى تاريخ المقاومة المسيحية ضد المسلمين ، وهكذا ابى الله الا ان يختم صفحة المسلمين بصقلية ، ختاماً كله عزة وشرف وافخار ، وما استسلمت قصر يانة تحت ضربات رجار العنيفة الا سنة ٤٨٤ (١٠٩١) اى ٢٣ عاماً بعد انسحاب من انسحب من المسلمين مع ايوب ابن تميم ابن المعز . وتملك يومئذ النرمان كامل جزيرة صقلية (١) .

سيرة النرمان الاولى : كان النرمان لم يختلطوا بعد بالمسلمين فى غير ميادين القتال ، فكانوا لم يزالوا على فطرتهم الوحشية الاروبية الاولى ، ولم يفترقوا بعد من المدنية الاسلامية التى كانت وضاعة لامعة رغم الحروب ورغم الفتن والقلقل ، والخلافات السياسية والحزبية والعنصرية .

فان رجار الاول ملك النرمان لما تم له الامر كاملاً بارض الجزيرة اسكن الروم والنرمان مع المسلمين فى سائر جهاتها ، فتم الاختلاط بينهم ، ولم يترك لاهلها من المسلمين حسباً يرويه ابن الاثير : حماماً ولا دكاناً ولا ولا طاحوناً ولا فرناً .

فكانت ايام رجار الاول - نحو الثلاثين سنة - ايام تشكيل وزجر ، ايام

(١) لم يكتف النرمان باحتلال صقلية والثبات بها ، بل تبعوا المسلمين الى البلاد الافريقية ، وانحنوا فيهم واصبحت اساطيل الملك رجار تلقى الرعب فى قلوب سكان السواحل الاسلامية بافريقيا الشمالية ؛ فكانت نتيجة سقوط صقلية ان استولى النرمان على مدينة طرابلس الغرب سنة ٥٤٠ هـ ؛ فافنى رجالها وسبى حرمها ، لان اهلها ثاروا بالنرمان واطردوهم ، اذا كانوا قد احتلوا قبل ذلك سنة ٥٢٠ هـ .

ثم احتل النرمان مدينة صفاقس سنة ٥٤٣ هـ ، واحتلوا مدينة المهدية ، واطردوا منها سلطانها الحسن بن على بن يحيى سنة ٥٤٣ هـ .

اقتلاع جذور الحكم الاسلامى بالجزيرة ، وتمكين سلطان المسيحية فيها ،
فكانت دورا من ادوار الفتح العربى ، دام طيلة ايام رجار الاول (٣٠ سنة) ،
الا انه يسجل لهذا الملك انه لم يعمد الى قتل المسلمين ، ولم يشردهم عن
البلاد ، فكان ذلك سببا فى بقاء المدنية الاسلامية وازدهار فيما بعد بصفة لامعة
وضاءة ، وكان النرمان انفسهم اول مستفيد منها .



وفى سنة ٥٤٨ هـ احتلوا مدينة عنابة وجزيرة قرقنة .
واحتلوا سنة ٥٤٨ هـ كذلك جزيرة جربة وفتكوا باهلها فتكا ذريعا .

القسم السابع

صقلية الاسلامية

تحت الحكم المسيحى النرمانى

رجار الثانى : كان من اغرب نتائج استيلاء النرمان على صقلية ان الغالبين النرمان تأثروا ايما تأثر بمدنية المسلمين المغلوبين ، وكان اختلاط العنصرين فى المدن والقرى والبوادرى سببا لتعارفهم السريع ، واقول لتألفهم البديع .

لقد نشأت فى هاتيك الاصفاع ، منذ انتهاء عصرى الاحتلال ، وموت الملك الفاتح رجار الاول ، مدنية جديدة زاهية زاهرة ، ظاهرة لامعة ، يمكننا ان ندعوها المدنية النرمانية الاسلامية .

كان المسلمين حين فقدوا سلطانهم السياسى بهاتيك الديار ، وضعفت عصبيتهم عن مزاولة الحكم وممارسة رئاسة الدولة ، فقدوا جميع الاسباب التى كانت تحول بينهم فى منازعاتهم الداخلية آخر ايام ملكهم ، وبين الاستمرار على نشر رسالتهم العلمية الفنية المدنية الرائعة ، فاقبلوا يومئذ تحت سلطة النرمان على العلوم والفنون والآداب ، وانشاء المباني الجليلة الضخمة والقصور البديعة ، وحتى الكنائس والكاتدرائيات ، مما لاتزال آثاره الجليلة قائمة الى يومنا هذا ، ولقد دام هذا الدور البديع دور المدنية الاسلامية النرمانية طيلة عهد النرمان فى صقلية ، بعد رجار الاول (مائة سنة)

يقول ابن الاثير عن رجار الثانى :

« سلك طريق ملوك المسلمين من الخبائب والحجاب ، والسلاحية والجاندارية وغير ذلك ، وخالف عادة الفرنج فانهم لا يعرفون شيئا من ذلك . وجعل له ديوان المظالم يرفع اليه شكوى المظلومين فينصفهم ولو من ولده ، واكرم المسلمين وقربهم ومنع عنهم الفرنج فاحبوه . »

قال غوستاف لوبون فى تاريخه الشهير عن هذا العهد من تاريخ المدنية

الاسلامية النرمانية : (ص ٣١٦) .

« كانت مدينة العرب لاتزال زاهية بصقلية عندما اتم النرمان فتحها .
ولقد اظهر رجار وخلفاؤه من بعده عقلا راجحا ، عندما ادركوا سمو منزلة اتباع
الرسول ، فاقتبسوا عنهم النظم والتراتيب الادارية وبذلوا لهم حمايتهم ، وبذلك
اتاحوا للبلاد عصر رفاهية دام الى عصر ملوك السواب الالمان (١١٩٤) الذين
ابعدوا العرب خارج صقلية .

ثم يقول فى موضع آخر من كتابه المذكور ، عن هذه الفترة التاريخية ايضا
(ص ٤١٦) :

« لقد ادرك الملك رجار كما ادرك رجال المسلمين ان التسامح وحده هو الذى
يكفل الحكم الصالح للجميع . وكانت الارستقراطية ، اعيان الامة وعلية القوم
من رجال العلم والفكر والصناعة مؤلفة خاصة من المسلمين فبذل لهم حمايته
بصفة فعالة .

ولقد سلك خليفته غليوم خطته فتعلم العربية وحذقها ، وكان لا يعتمد فى
المهمات الدقيقة الا على العرب خاصة ، واعترف له هؤلاء بالجميل ، فكانوا
ينضوون تحت لوائه لمقاومة الخصوم واخماد نيران الفتن وكانت لهم فى بالرمة
حارات فسيحة ، ومساجد ضخمة ، وائمة ، وقاض يفصل ما شجر بينهم ،
وبفضلهم كان بلاط ملوك النرمان زاهرا كثير التألق ، حتى امكن للمؤرخ ابنى
الفداء ان يقول عنه ، « وانه كان يضاهى بلاط الخلفاء فى بغداد والقاهرة » .
يقول الشريف الادريسي الصقلى فى كتابه الشهير « نزعة المشتاق فى
اختراق الآفاق » عن الملك رجار :

« فان افضل ما عنى به الناظر ، واستعمل فيه الافكار والخواطر ، ما سبق
الملك المعظم رجار المعتز بالله ، والمقتدر بقدرته ، ملك صقلية وانكبيدة وايطاليا
وقلورية امام رومية الناصر للملة النصرانية ، اذ هو خير من ملك الروم بسطا
وقبضا وصرف الامور على ارادته صرفا وقبضا ، ودان فى ملته بدين العبدل ،
واشتمل عليهم بكنف التطول والفضل ، وقام باسباب مملكته احسن قيام ،
اجرى سنن دولته على افضل نظام واجمل قيام . الخ

ملوك الترممان تولوا امر صقلية

الملك	الولادة	الولاية	الوفاة
رجار الاول	١٠٤٠	١٠٧٠	١١٠١
ابنه رجار الثانى	١٠٩٣	١١٠١	١١٥٤
ابنه غليوم الخبيث (١)	١١٢٠	١١٥٤	١١٦٦
ابنه غليوم الحسن	١١٥٤	١١٦٦	١١٨٩
طانكريت (٢)		١١٩٠	١١٩٤
غليوم الثالث		١١٩٤	

وهو آخر ملوك الترممان ، نولى صبيا تمعت رعاية امه (سبيلا) لكن الامبراطور
الالماني هنرى استولى فعلا على امر البلاد وضمها للامبراطورية وساق غليوم
وامه واخوته للاسر فسمم اعينهم وجسمهم فى قلعة حتى لاقوا حتفهم .



(١) اطلق النصارى عليه هذا الاسم لحسن سيرته مع المسلمين ولانه عندما تولى الملك اعتمد فى المهمات عليهم .

(٢) هو ابن غير شرعى لرجار الثانى ؛ وفى ايامه تدخل الامبراطور هنرى الرابع الالماني فى امر صقلية وضرب على ايدى الترممان والمسلمين معا .

التفوذ الاسلامى بصقلية

تحت امرة ملوك النرمان

يقول مسيو لوط السالف ذكره ، فى كتابه « غارات الهمج » عن هذه الحقبة من تاريخ المسلمين فى صقلية :

« انتهى امر الاستيلاء العربى بجزيرة صقلية ، لكن الحياة العربية قد استمرت بعد ذلك ، فالملك رجار الاول ، والملك رجار الثانى الذى استبدل لقبه واصبح يدعى الملك بدل الكونت وكذلك غليوم الاول وغليوم الثانى قد نفذوا جميعا ما تعهدوا به لجماعة المسلمين هنالك من احترام عوائدهم وقوانينهم ولغتهم وديانتهن

ثم ان ملوك النرمان قد استخدموا المسلمين جنودهم ، وتركوا للمدن الصقلية وكانت كلها يومئذ مدنا اسلامية (١) جميع نظمها البلدية والعرفية والصناعية، وفتحوا فى وجه المسلمين ابواب ارفع مناصب الدولة يتولونها ، اما علماء المسلمين ورجال الادب والفكر منهم فقد كانوا خلاصة الخاصة فى بلاط الملوك . اما بالنسبة لسائر الرعايا المسلمين فقد كانوا يرون فى ملوك النرمان ، امراء يعتنقون الدين المسيحى ، ويقول عمارى ان الامبراطور فريديريك الثانى كان كما كان رجار الثانى قبله سلطانا من سلاطين الشرق لا يميزه عنهم الا تدينه بالمسيحية .

... ولقد دام الرقى المادى العربى والحضارة الادبية العربية امدا طويلا ، وورثها عن ملوك النرمان ملوك الالمان من عائلة الالمان من عائلة هوها نستوفن كهنرى الرابع وافر يدريك الثانى .

« ولعنا لا نجد مندوحة عن المقارنة بين سياسة ملوك النرمان الحرة الماهرة مع مسلمى صقلية ، وبين سياسة ملوك قشتالة الاسبان مع مسلمى الاندلس .

(١) انظر فيما بعد قسم : كيف ترك المسلمون الجزيرة ؟

لكننا نقول ان فارقا جسيما يمنعنا من هذا التنظير ، حيث إن المسيحيين فسي اسبانيا كانوا يتولون بانفسهم اخراج المسلمين الغاصبين من بلادهم ، اما في صقلية فان النرمان انفسهم كانوا ا جانب غاصبين ، بل كانوا في اول امرهم مغامرين مكروهين ، واضطرو الاضطناع الناس بحسن السلوك ، فقربوا منهم المسلمين واجملوا معاملة التصاري سواء كانوا من الصقليين اللاتينيين او من الصقليين الاغريق .

« كانت حياة المسيحيين بصقلية اثناء حكم المسلمين من الاغالبية او الفاطميين حياة مظلمة النواحي لا نستطيع ان نستجلي غوامضها ، لان الكتابات المسيحية واغلبها كان مكتوبا باللغة اليونانية قد ا تلفت خلال القرن العاشر ، انما كان مقامهم هنالك كمقام سائر المسيحيين الذين الذين عاشوا تحت حكم المسلمين اى انهم كانوا يدفعون للدولة اتاوات ثقيلة وكانوا في اكثر الاوقات بعيدين عن المناصب الادارية ، ولقد كانوا يتمتعون بحريتهم الدينية انما على شرط ان يكون ذلك بصفة هادئة خافتة » ان عدم وجود شهداء للمسيحية بهذه الاقطار خلال هذا العصر يدل دلالة صريحة على تسامح المسلمين نسبيا ، ويقول ميكال عمارى ان استشهاد وتعذيب القديس بوركوب اسقف طبرمين عند سقوط هذه المدينة سنة ٩٠٧ بين ايدى المسلمين لم يكن نتيجة تعصب دينى اسلامى بل كان نتيجة جنون ابراهيم الاغلبى الثانى الذى قاسى اهله وذوو قرابته الاهوال من جنونه .

« . . . لقد ازدهر التفوق الاسلامى بصقلية ازدهارا لامعا من القرن التاسع الى القرن الحادى عشر حتى يكاد يخيل لك ان صقلية قد اصبحت جزيرة عربية بحثة . وكنت تنتظر بعد ذلك ان ترى فوق اديم صقلية معالم وآثارا تباهى بجمالها وجلالها معالم وآثار اسبانيا والمغرب وتونس . لكن يالها من خيبة امل ، انه لم يبق لنا من ذلك اى شىء سواء معالم الدين او الحياة المدنية . انما يتجلى لك نفوذ الهندسة العربية فى قصور وكنائس النرمانيين امثال قصور القبة والعزير والقبولاء او كاتدرائيات بالرمة وشفالو . .

« . . نظرا لذلك الدور العظيم الذى لعبه بارض الجزيرة علماء الرياضة

والمنجمون والاطباء والمهندسون المسلمون ، ونظرا لكون البلاط الملكي النرمانى كان بلاطا شرقيا فى نظير امراء المسيحية ، كان ينتظر ان تحيا العربية فى هاتيك الديار حياة طويلة . لكن شيئا من ذلك لم يكن . واخذت العربية تتراجع وتتقهقر خلال النصف الثانى من القرن الثالث عشر الى ان تضاءلت حتى فى المدن ، وذلك يرجع لسببين اثنين : اولهما ان الطبقات الراقية والعليا من المسلمين قد هجرت الجزيرة الى افريقيا ومصر وثانيهما وهو الاهم ان الرهبان اللاتينيين قد امعنوا فى تنصير الناس طوعا او كرها بحيث ان الاسلام اضمحل تماما من ارض الجزيرة حسبما يلاحظه عمارى خلال القرن الثالث عشر »

جاء فى كتاب « التاريخ العالمى » للمؤرخ السويدي الكبير كارل كرمبرغ (١) ، عن هذه الفترة ، ما يلى :

« كانت صقلية ، خلال القرنين الحادى والثانى عشر ، الموطن الوحيد الذى تسود فيه حرية المعتقد . فالاديان الثلاثة المسيحية والاسلامية واليهودية ، كانت تعيش هنالك جنبا الى جنب ، فى امن وسلام .

« قامت هنالك معدنية ضخمة شامخة ، ذات طابع مختلط ، كانت ثمرة ما اظهره الملك روجى من عبقرية سياسية ، وضعته فى صف الاسكندر ، وتيودوريك الكبير .

« نشأت هذه المدنية بفضل حكومة سمحت لليونانيين والمسلمين وللطليانيين وللإهود ، بأن يعمل كل على شاكلته ، وكانت تشجع الجميع على حد سواء . وهكذا كانت صقلية ، جغرافيا وتاريخيا ، الملتقى الطبيعى للمدنيات الاغريقية والرومانية والعربية . كذلك اجتمع فيها ، فى تجانس بديع ، الفن الهندسى المعمارى البيزنطى ، والعربى ، والرومانى والنرمانى ، فتشكل من كل ذلك هذا الفن النرمانى الصقلي ، وهو زبدة أربع مدنيات » .

(1) Histoire Universelle : Karl GRIMBERG

بعد مائة عام - حكاية ابن جبير : فى سنة ٥٦٠ هجرية (١١٧٢ م) اى بعد مائة عام من انهيار حكم المسلمين بصقلية ودخولها تحت طاعة النرمان ، وبعد ان تدخل فعلا الالمان فضربوا على ايدى آخر ملوك النرمان وتكلموا بالمسلمين تنكيلا ذريعا ، بعد ذلك ، دخل صقلية قافلا من حجه الرحالة الشهير ابو الحسين بن جبير الكنانى الاندلسى ، فترك لنا وثيقة من اغرب وثائق التاريخ ، هى رحلته البديعة التى صور فيها تصويرا دقيقا حالة المسلمين فى الجزيرة مع ملوك الالمان فى اخرج ساعة ، وادق موقف ، اى فى الساعة التى سبقت انتهاء عصر التسامح الدينى واخراج المسلمين كافة من صقلية .

فهذا القسم من الرحلة يعتبر اصدق تاريخ لتلك الحقبة من التاريخ الصقلى وتقل نتف منه بنصها نعتبره تنمة لمبحثنا هذا ، يقول ابن جبير وهو فى مسينا :

« وكفى بانها ابنة الاندلس فى سعة العمارة وكثرة الخصب والزفاهة ، مشحونة بالارزاق على اختلافها ، مملوءة بانواع الفواكه واصنافها ، لكنها معمورة بعبدة الصليبان يمشون فى مناكبها ويرتعون فى اكنافها ، والمسلمون معهم على املاكهم وضياعهم قد احسنوا السيرة فى استعمالهم واصطناعهم : وضربوا عليهم اثاوة فى فصلين من العام يؤدونها ، وحالوا بينهم وبين سعة فى الارض كانوا يجدونها .

... وليس فى مسينا هذه من المسلمين الانفر يسير من ذوى المهن ولذلك

يستوحش بها المسلم الغريب » .

ثم حل ببالريمة فكتب لنا عنها هذه القطعة الطريفة : « هى مسكن ملكهم غليام Gilloume (١) وشان ملكهم عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المحاييب ، وكلهم او اكثرهم كاتم ايمانه متمسك بشريعة الاسلام ، وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم فى احواله ، والمهم من اشغاله ، حتى ان الناظر فى مطبخته رجل من المسلمين . وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم . ووزراؤه وحجابه الفتيان ، وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم . ووزراؤه وحجابه الفتيان

وله منهم جملة كثيرة هم اهل دولته والمرتسمون بخاصته ، وعليهم يلوح رونق مملكته لانهم متسعون في الملابس الفاخرة ، والمراكب الفارحة ، وما منهم الا من له الحاشية والخول والاتباع ، وليس في ملوك النصارى اترق فسى الملك ولا انعم ولا ارقه منه ، وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع اساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم ابهة الملك واطهار زينته بملوك المسلمين ، وله الاطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى انه متى ذكر له ان طبيبا او منجما اجتاز ببلده امر بامساكه وادر له ارزاق معيشته ، حتى يسليه عن وطنه وسنه نحو الثلاثين سنة . . . ومن عجيب شأنه انه يقرأ ويكتب العربية ، وعلامته على ما اعلما به احد خدمته المختصين به « الحمد لله حق حمده » وكانت علامة ابيه : « الحمد لله شكرا لا نعمه

» واما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن ، ومن اعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى ابن فتيان الطراز ، وهو يطرز بالذهب فسى طراز الملك ان النصرانية من الفرنجيات تقع في قصره فتعود مسلمة ، يعيدها الجوارى المذكورات مسلمة ، وهن على تكتم من ملكن في ذلك كله ، ولهن في فعل الخير امور عجيبة .

» واعلمنا انه كان بهذه الجزيرة زلازل مرجفة ، دعر لها هذا المشرك ، فكان يتطلع في قصره ، فلا يسمع الا ذاكرا لله ورسوله من نساؤه وفتيانه ، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته ، فكان يقول لهم ، ليذكر كل احد منكم معبوده ومن يدين به تسكينا لهم .

» وما فتيانه الذين هم عيون دولته واهل عمالته في ملكه فهم مسلمون ، ما منهم الا من يصوم الا شهر تطوعا وتؤجرا ، ويتصدق تقربا الى الله وتزلفا ، ويفتك الاسارى ويربى الاصاغر منهم ويزوجهم ، ويحسن اليهم ، . . الفينامهم بمسينة فتى اسمه « عبد المسيح » من وجوههم وكبرائهم ، بعد مقدمة رغيسة

(١) هو غليوم الحسن ورحلة ابن جبير وقعت في آخر سنة من ملكه .

منا إليه في ذلك ، فاحتفل في كرامتنا وبرنا ، واخرج لنا من سره المكنون بعد مراقبة منه في مجلسه ، ازال لها من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه ، فسألنا عن مكة قدسها الله ، وعن مشاهد المعظمة وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فاخبرنا وهو يذوب شوقا وتحرقا . . . وقال لنا انتم مدلون باظهار الاسلام ، فائزون بما قصدتم له رابحون ان شاء الله ، ونحن كاتمون ايماننا خائفون على انفسنا متمسكون بعبادة الله واداء فرائضه سرا متعلقون في ملكة كافر بالله قد وضع في اعناقنا ربقة الرق . . .

« ومن عجيب شأن هؤلاء الفتيان انهم يحضرون عند مولاهم فيحين وقت الصلاة فيخرجون اذ اذا من مجلسه فيقضون صلاتهم . . . فلا يزالون باعمالهم ونياتهم وبنصائحهم الباطنة للمسلمين في جهاد دائم » .

ويقول عن مدينة ثرمة :

« وسرنا في طريق كأنها السوق عمارة ، وكثرة صادر ووارد وطوائف النصاري يتلقوننا فيبادرون بالسلام علينا ويؤنسونا ، فراينا من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين ما يوقع الفتنة في نفوس اهل الجهل . . . فانتبهنا الى « قصر سعد » وهو على فرسخ من المدينة وقد اخذ منا الاعياء فبتنا فيه ، وهذا القصر على ساحل البحر ، مشيد البناء عتيقه ، قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين للجزيرة ، لم يزل ولا يزال بفضل الله مسكنا للعباد منهم ، وحوله قبور كثيرة للمسلمين ، اهل الزهادة والورع ، وهو موصوف بالفضل والبركة مقصود من كل مكان ، وبازائه عين تعرف بعين المجتونة ، وله بساب وثيق من الحديد وداخله مساكن وعلالي مشرفة وبيوت منتظمة ، وهو كامل مرافق السكنى ، وفي اعلاه مسجد من احسن مساجد الدنيا بهاء ، مستطيل ذو حنايا مستطيلة مفروش بحصر نظيفة لم ير احسن منها صنعة ، وقد علق فيه نحو الاربعين قنديلا من انواع الصفر (النحاس) والزجاج ، وامامه شارع واسع ، يستدير باعلى القصر وفي اسفل القصر بئر عذبة ، فبتنا في هذا المسجد احسن مبيت واطيبه ، وسمعنا الاذان وكنا قد طال عهدنا بسماعه ، واكرمنا القوم الساكنون فيه ، ولهم امام يصلي بهم الفريضة والتراويح في

هذا الشهر المبارك

ووصف حال مسلمى بالرمة فقال :

وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الايمان ، يعبرون اكثر مساجدهم
ويقيمون الصلاة باذان مسموع ، ولهم ارباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن
النصارى والاسواق مغمورة بهم وهم التجار فيها ، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة
المحضوره عليهم ويصلون الاعياد بخطبة ، ودعاؤهم فيها للعباسى ،
ولهم بهاقاض يرتفعون ائيه فى احكامهم ، وجامع يجتمعون فيه
للصلاة ، ويحتفلون فى وقيدى فى هذا الشهر المبارك ، واما المساجد فكثيرة لا
تحصى ، واكثرها محاضر لمعلمى القرآن . . .

ورى النصرانيات فى هذه المدينة زى نساء المسلمين ، فصيحات الالسن ،
ملتحفات ، متنقيات ، خرجن فى هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير
المذهب والتحفن اللحف الراققة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الاخفاف المذهبة
وبرزن لكنائسهن او كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلى
والتخضب والتعطر ، فتذكرنا على جهة الدعابة الادبية قول الشاعر :

ان من يدخل الكنيسة يوما يلق فيها جاذرا وظيفاء
» . . . وبثنا فى الطريق ليلة واحدة فى بلدة تعرف بعلمة ، وهى كبيرة
متسعة فيها الاسواق والمساجد وسكانها وسكان الضياع التى فى هذا الطريق
كلهم مسلمون ،

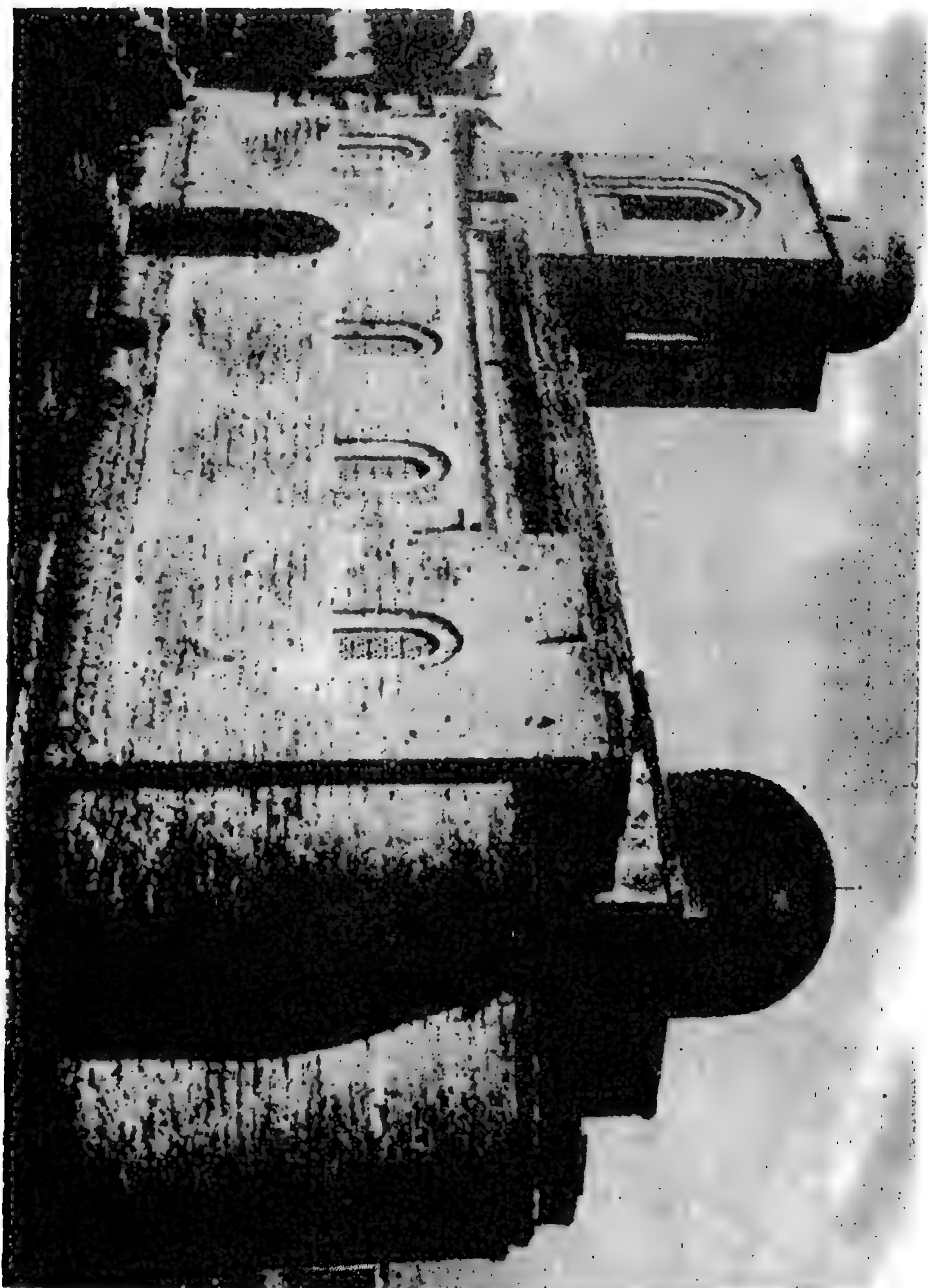
ثم حل بمدينة اطرابنش فقال :

» وكان مصلانا فى هذا العيد المبارك (عيد الفطر) باحد مساجد اطرابنش
المذكورة ، مع قوم من اهلها امتنعوا من الخروج الى المصلى لعذر لهم ، . . .
وخرج اهل البلد الى مصلاهم ، مع صاحب احكامهم وانصرفوا بالطبول والبوقات
فمجبنا من ذلك ومن اغضاء النصارى لهم عليه .

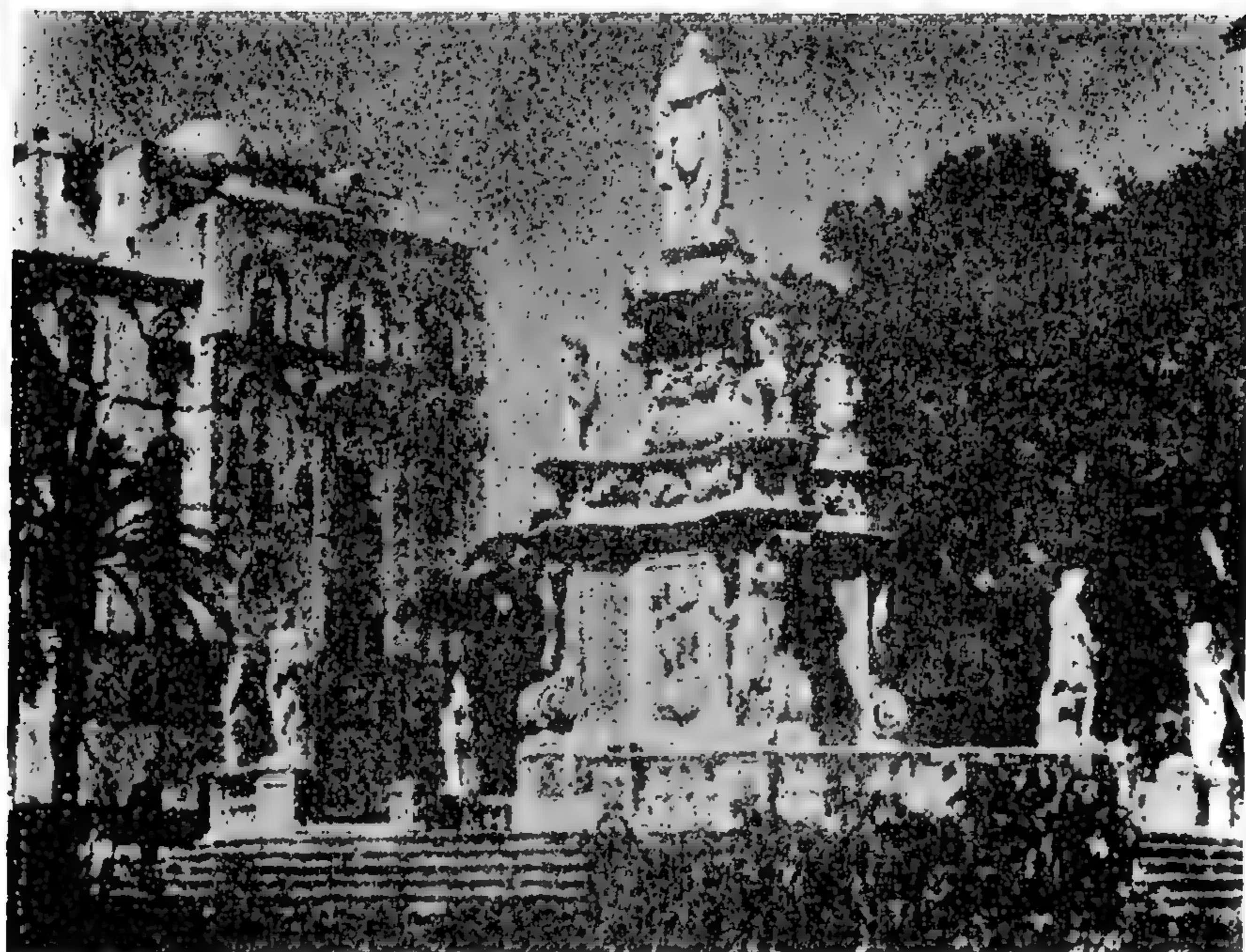
ابتداء امر الفتنة فى الدين : مما يرويه ابن جبير ، بعد ان اقام مدة الشتاء



» قلعة فيسي « نوردج من القرية الصقلية الجبلية



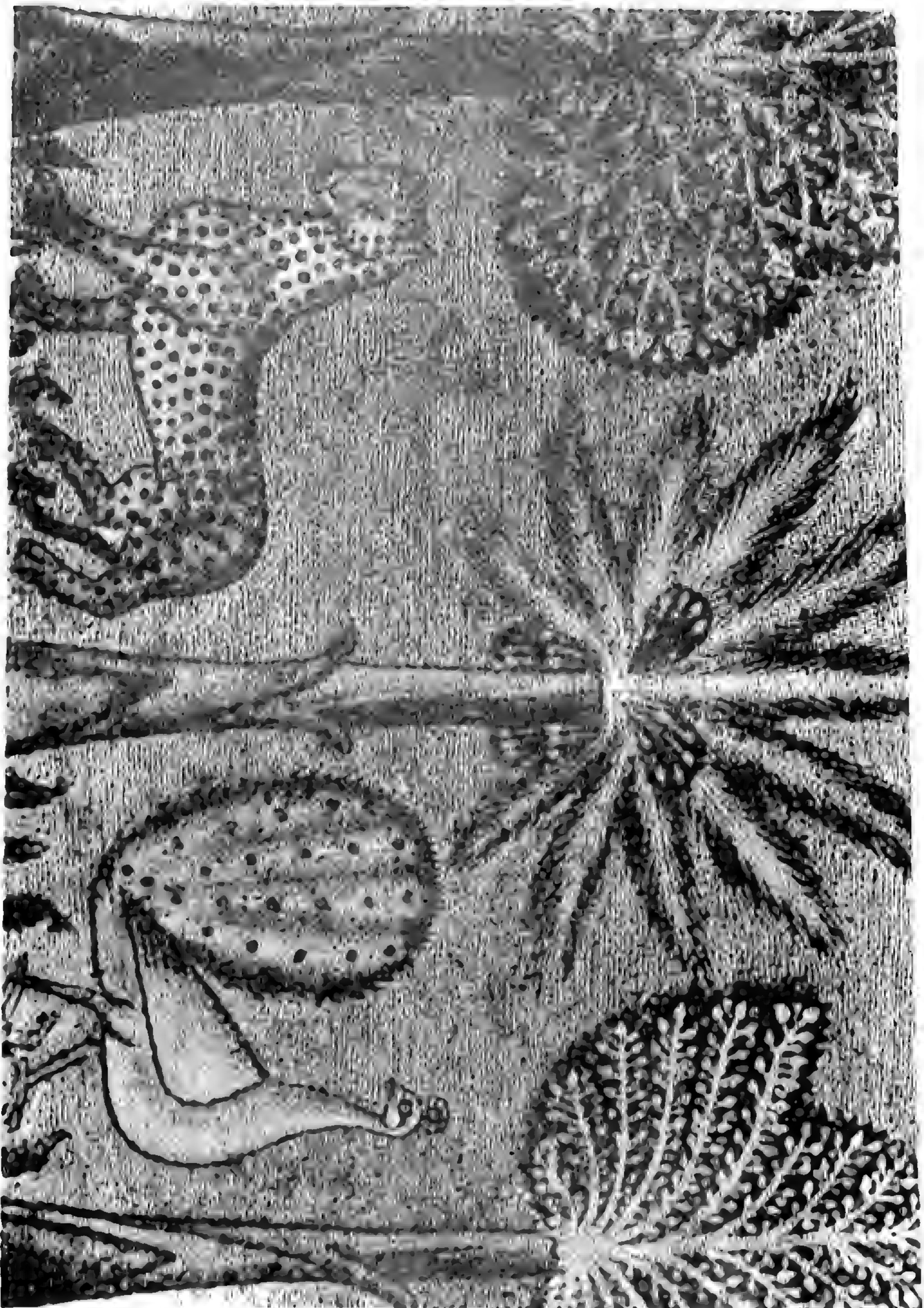
كنيسة سان جوفاني من اثار المسلمين بفواحي بالرمه



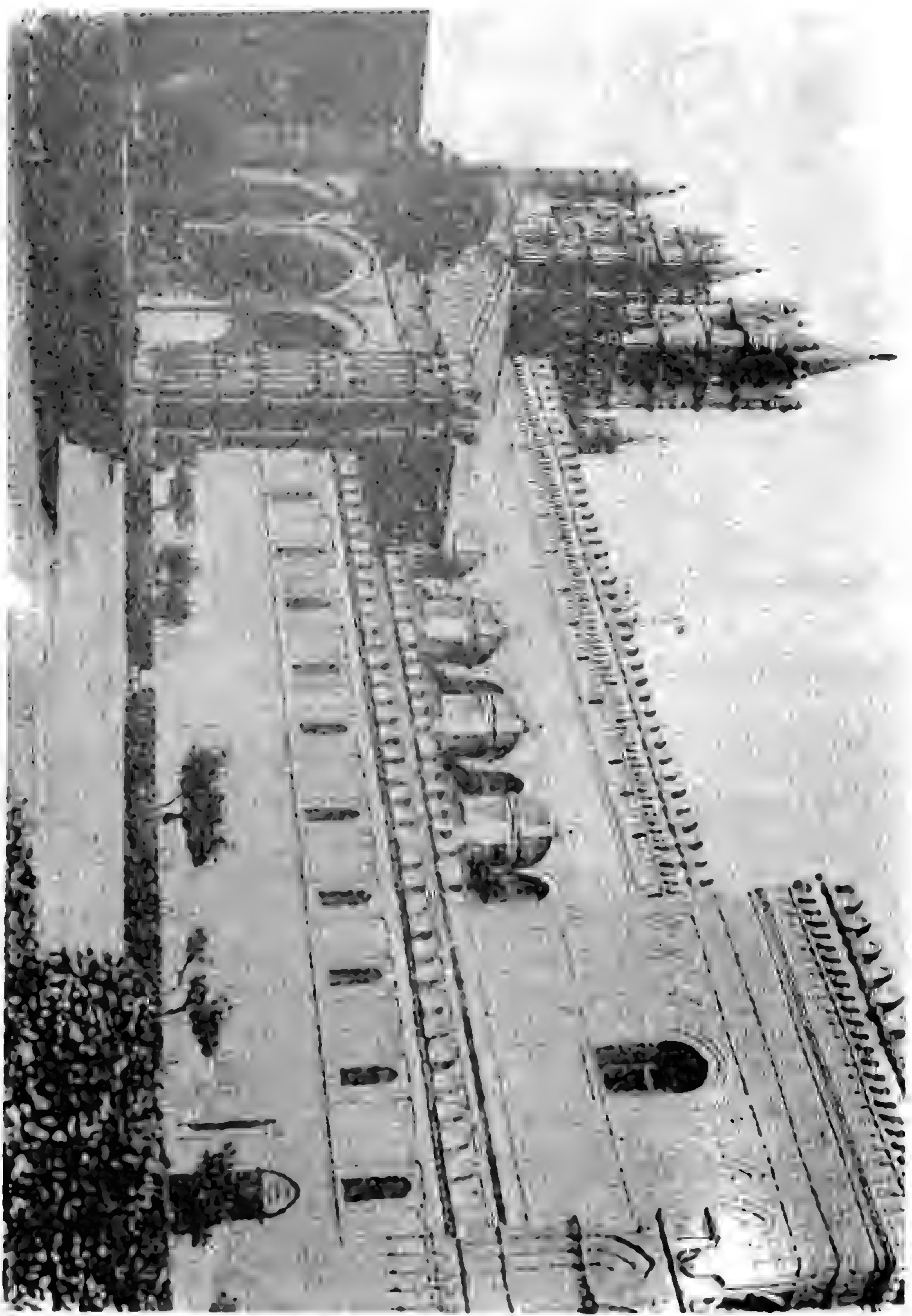
القصر الملكي ببيارمة من الخارج



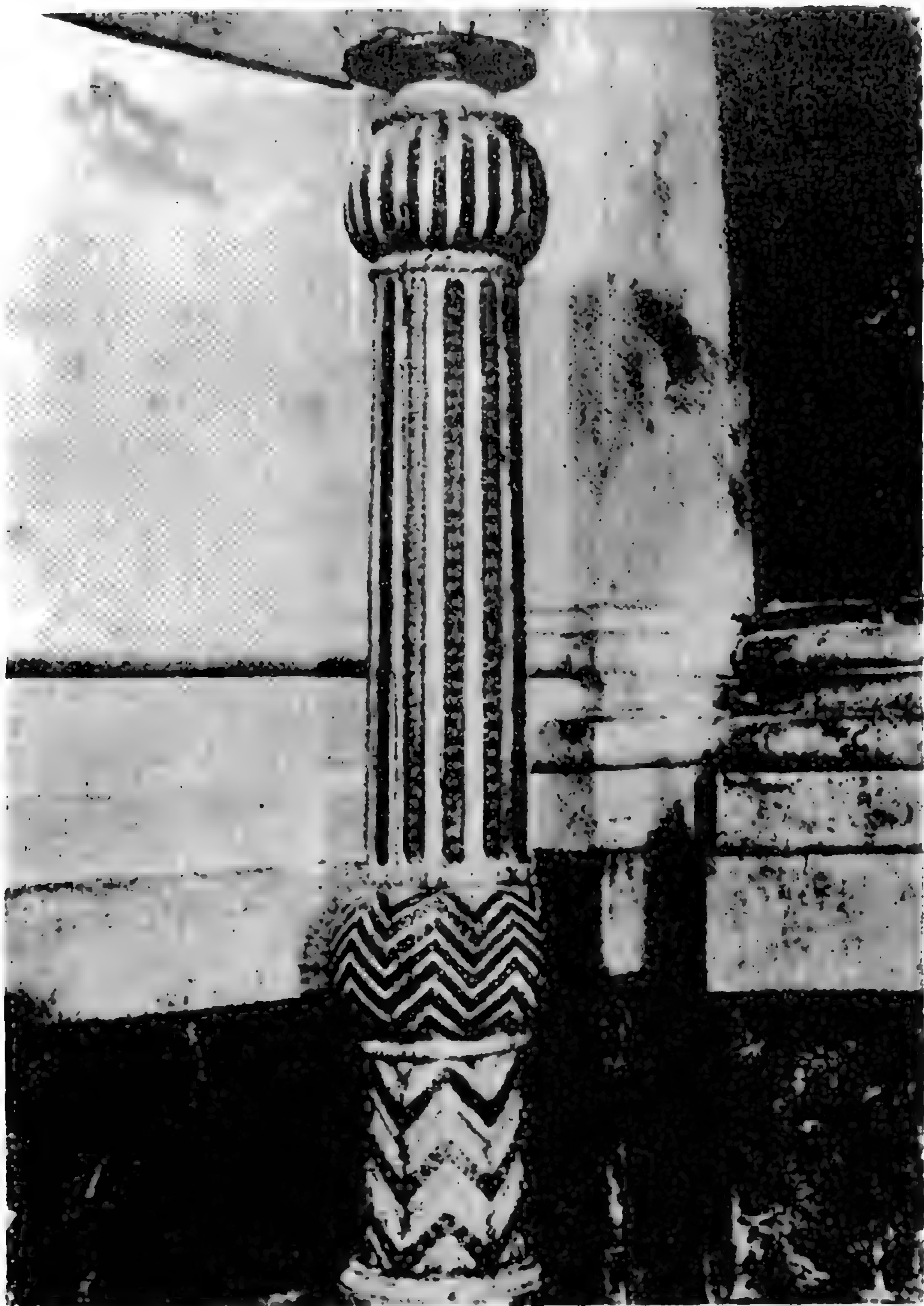
القصر الملكي ببيارمة من الداخل



التصوير المكسيكي بيلارمة من الداخل فسيناء في غرفة رجاله الثاني



كاتدرائية الروم . على الميناء مسجدا الشرقي والاولى



شعدان من صنع عربي بكنيسة بالرومة



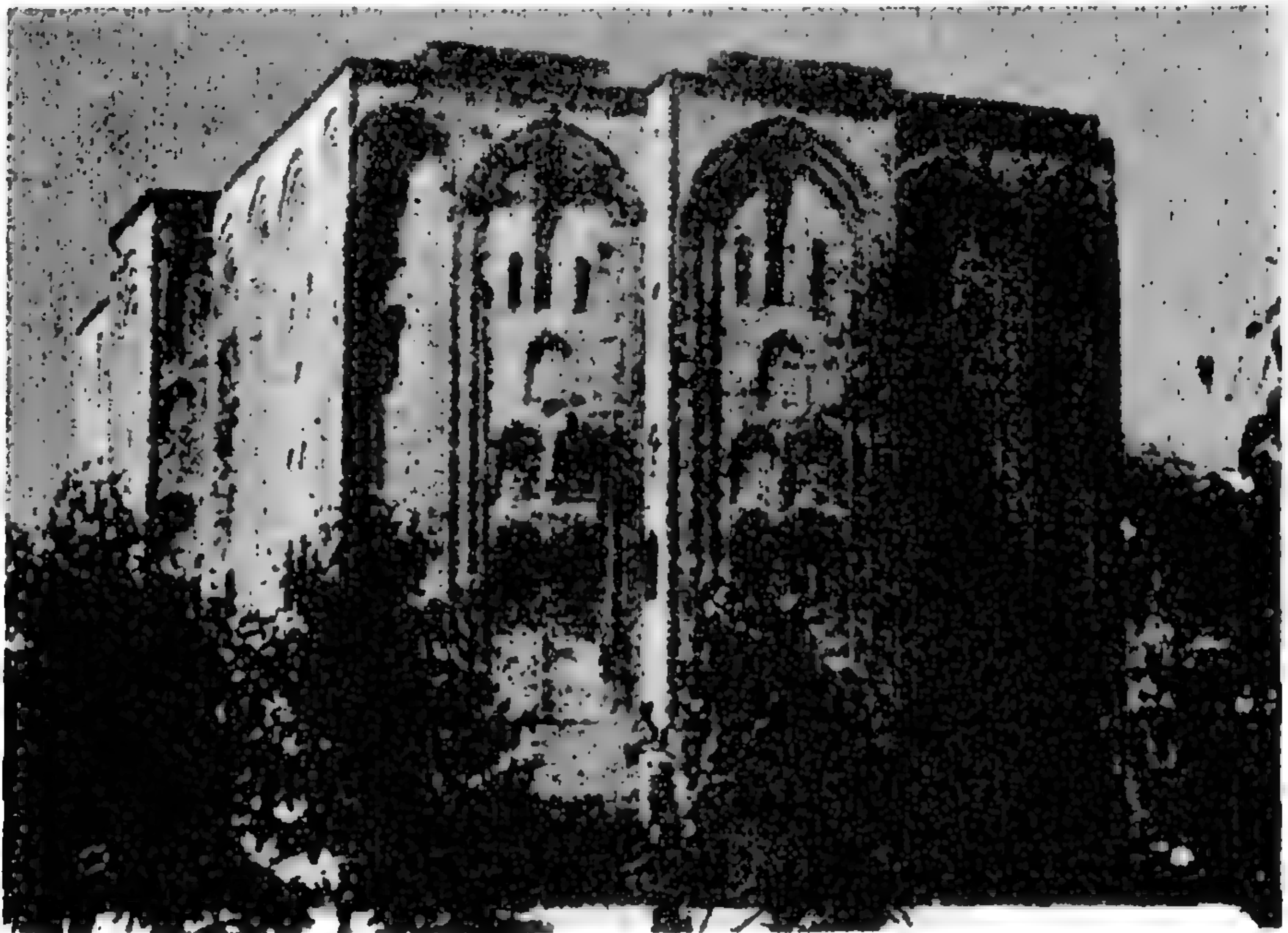
دير القديس يوحنا



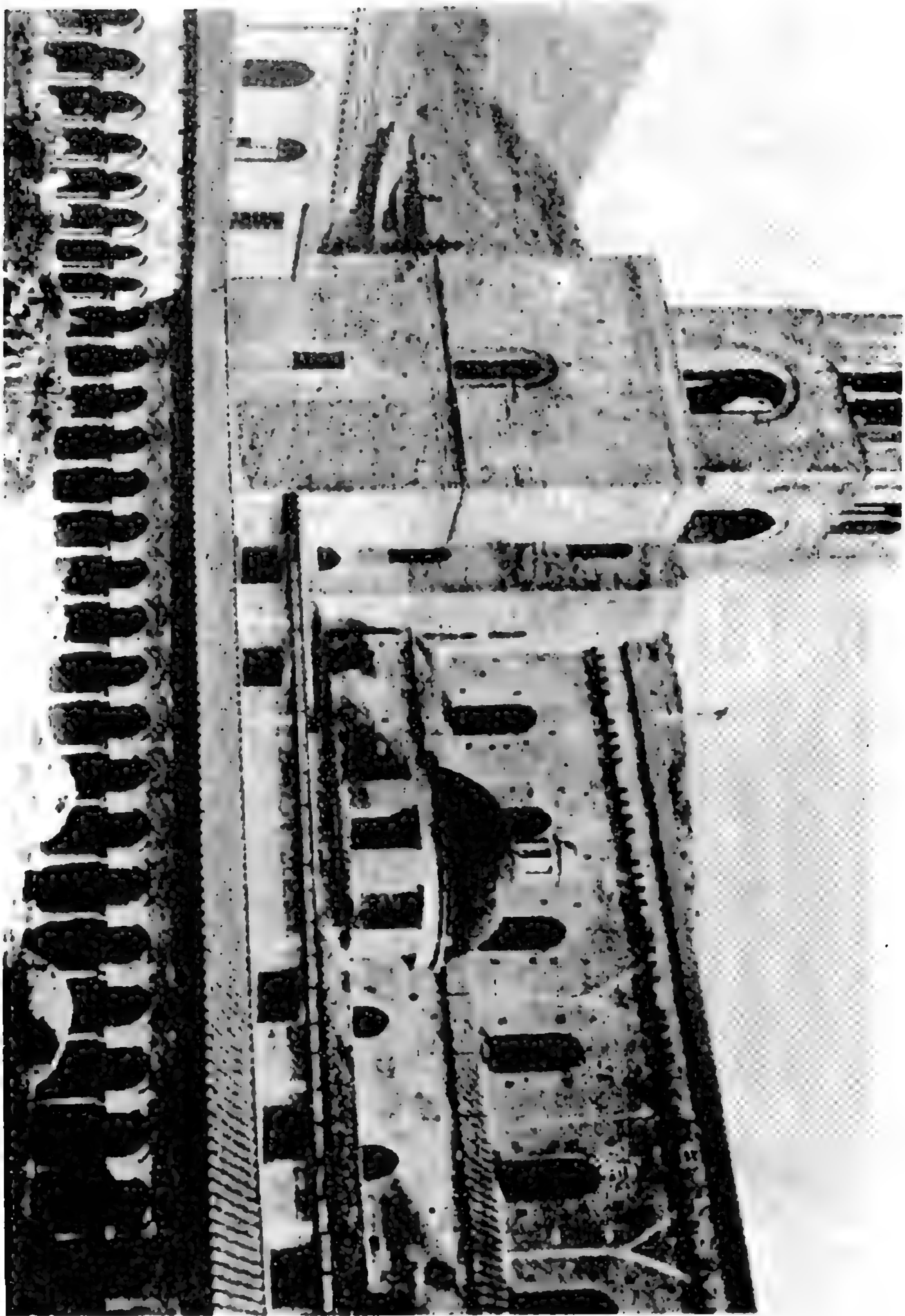
كنيسة القديس يوحنا



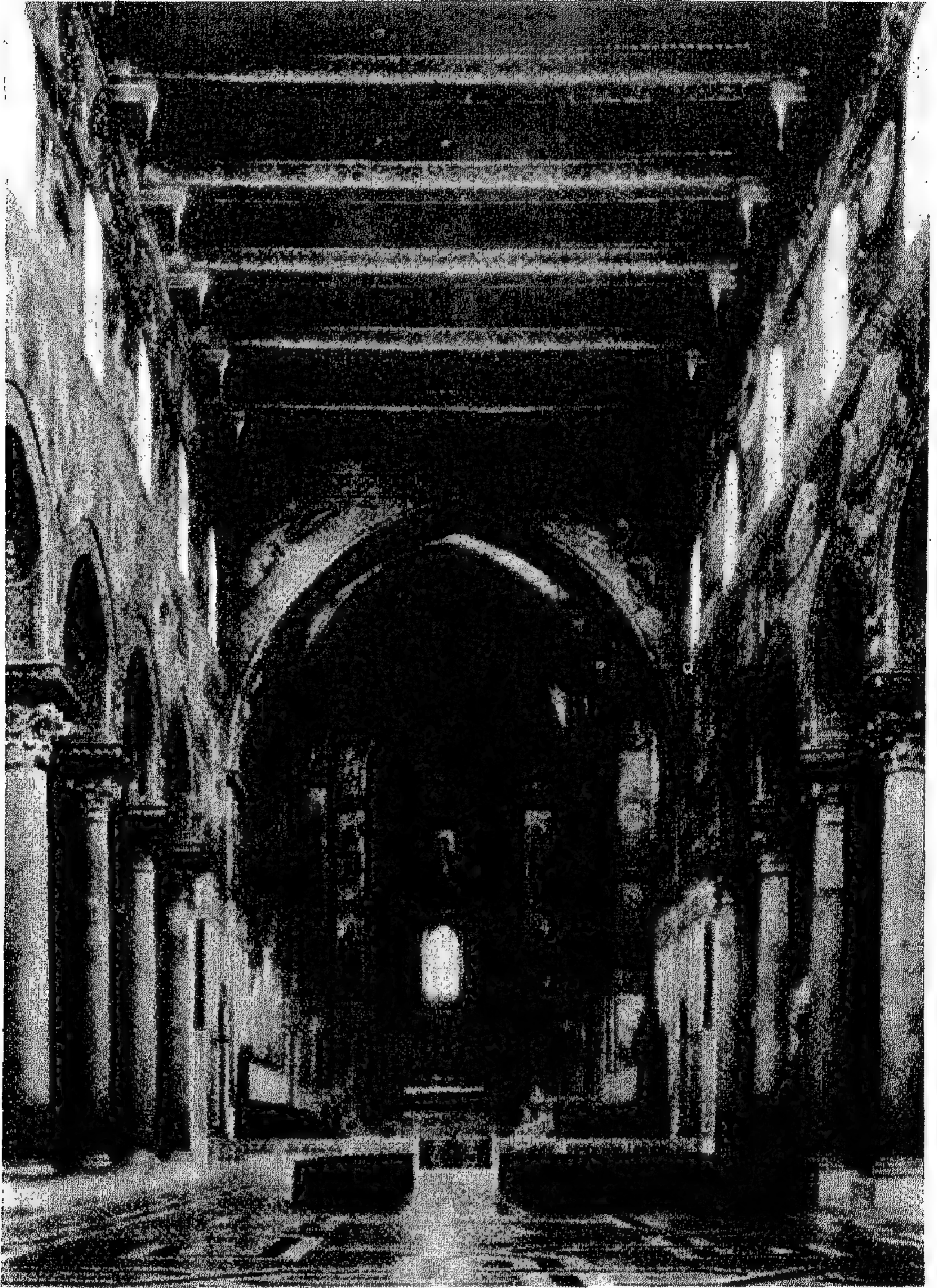
كاتدرائية سيفالو



قصر القبة من آثار المسلمين بضواحي بالرومة



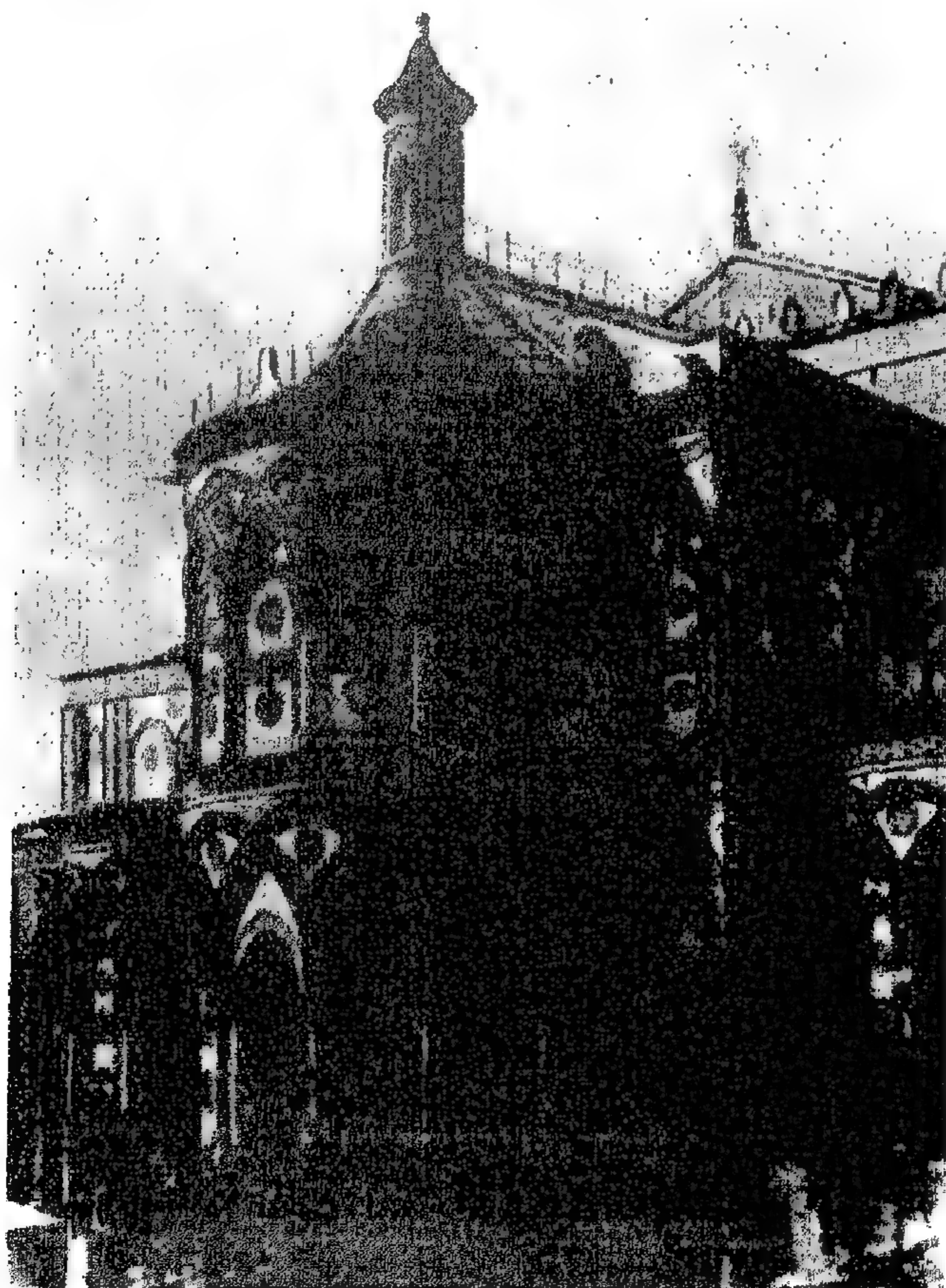
دير الموزيل

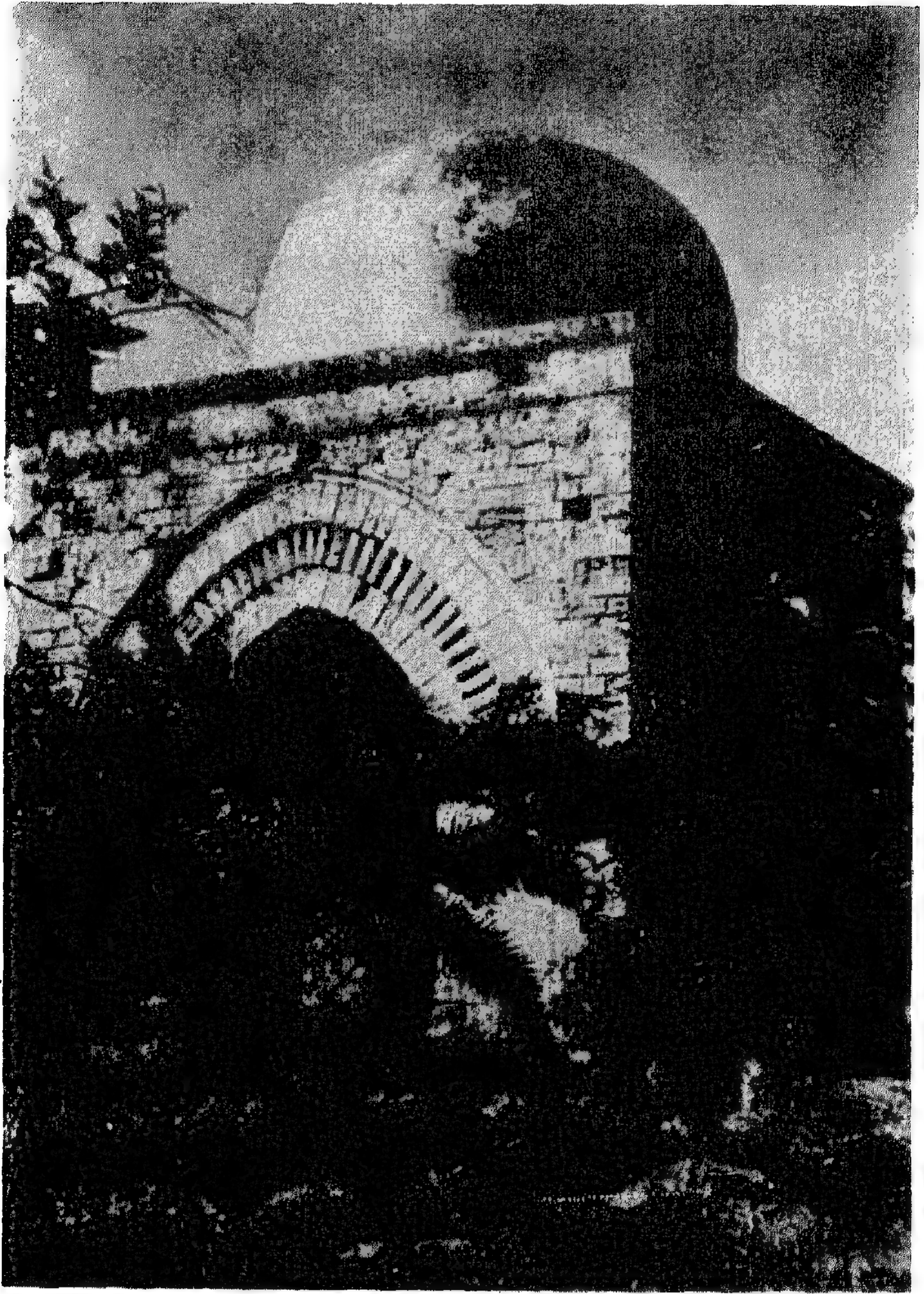


كاتدرائية الموزيال

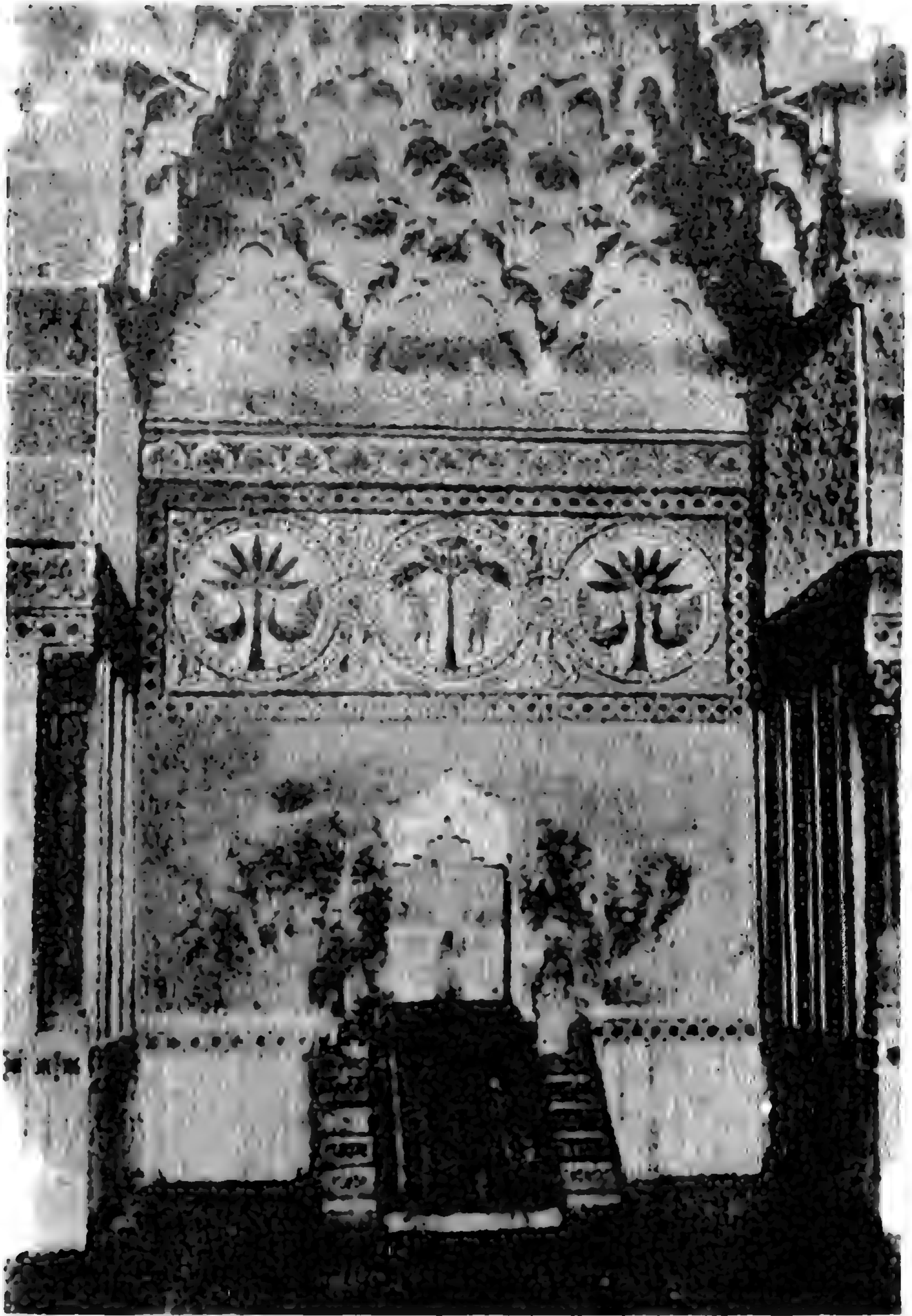


منظران لكاتدرائية مونريال

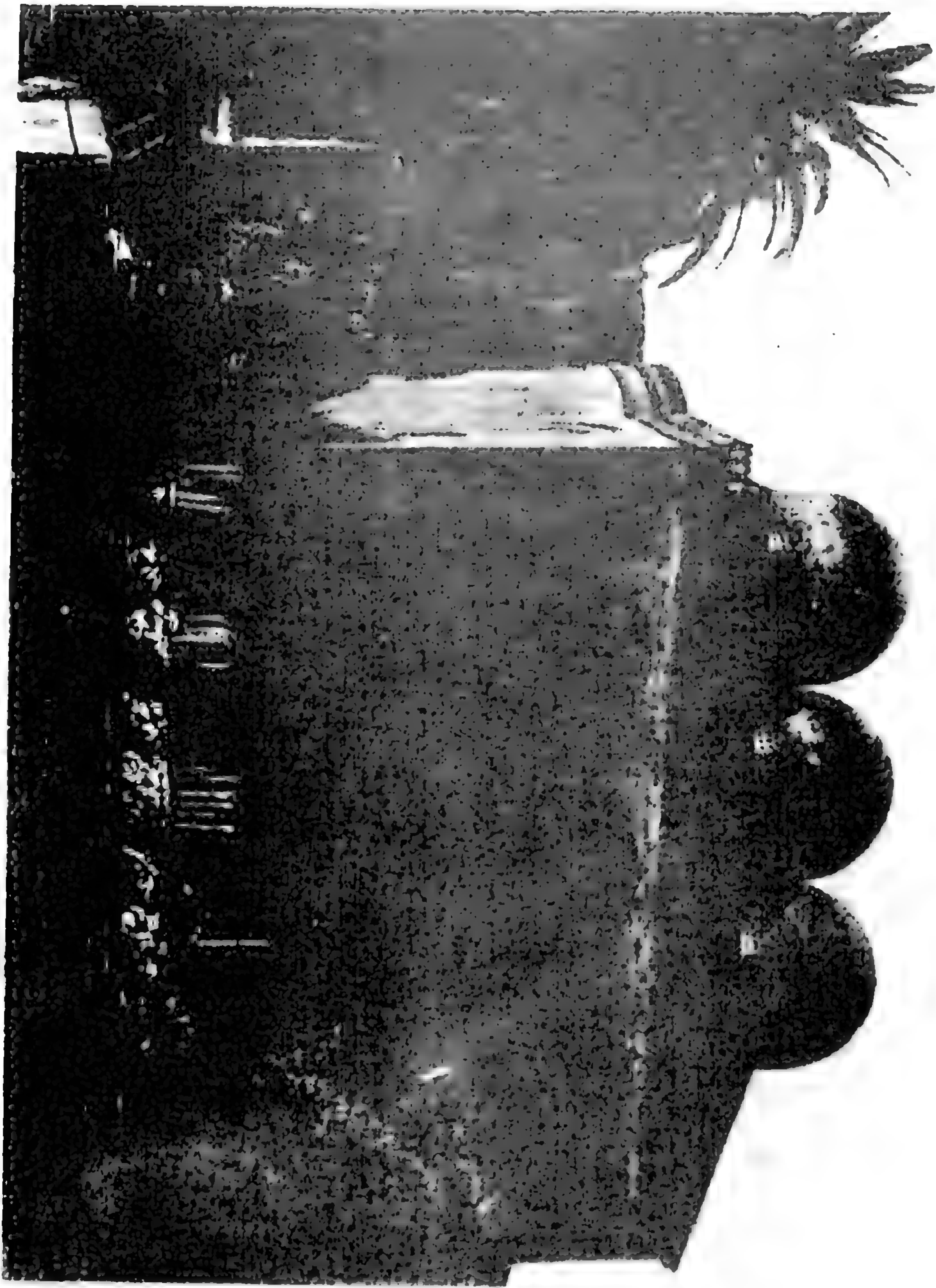




القبّة الحمراء



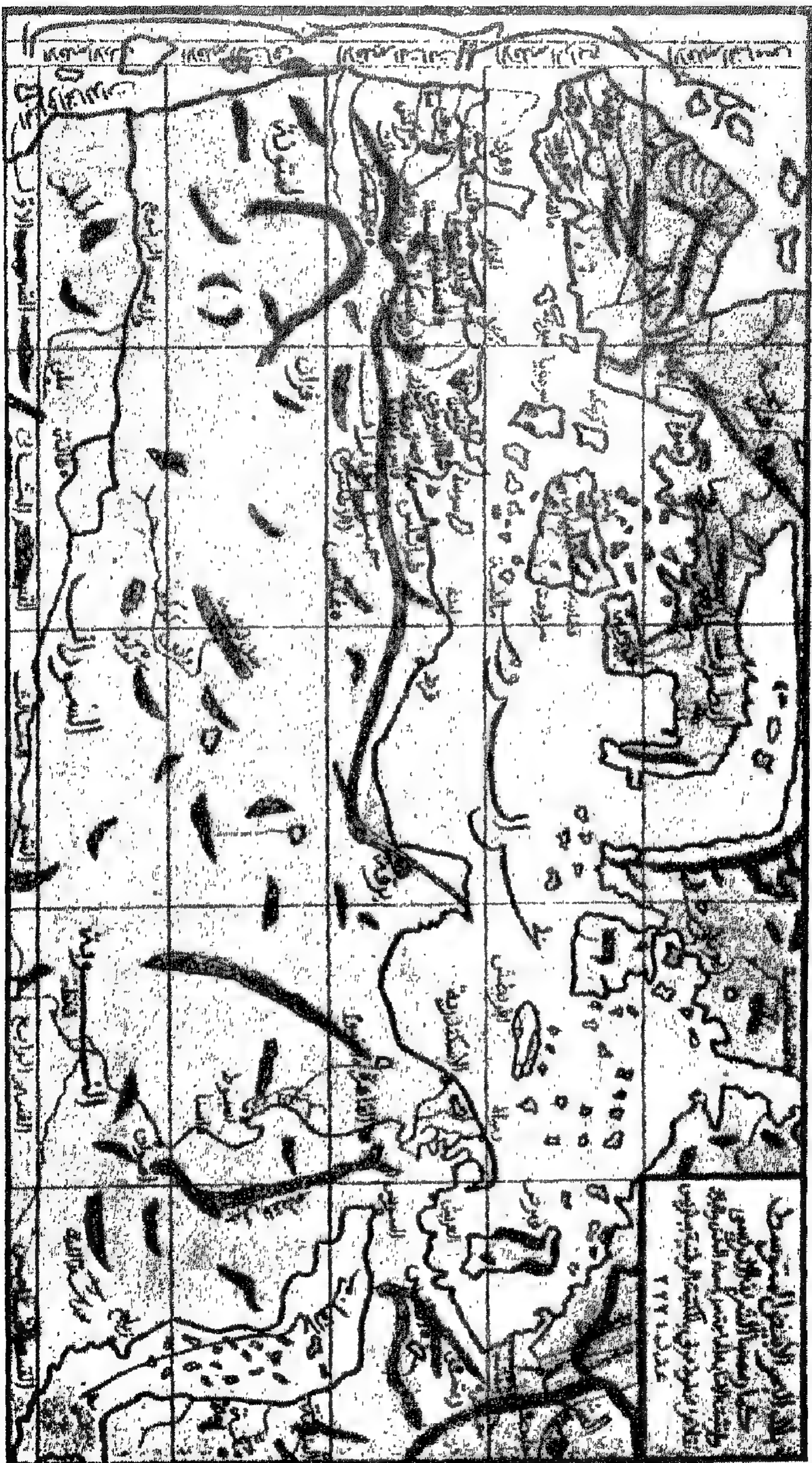
العين الجارية بالقاعة الكبرى بقصر العري.



كنيسة القديس كالدو



«رداء حريري» رسم فيه غر يفترس جلاً، وحوله كتابة كوفية، تشير الى انه صنع سنة ٥٢٨ هجرية للملك رجار الثاني، وكان ملوك اليرمان واباطرة الالمان بعدهم يرتدونه في حفلة التتويج وهو محفوظ بمتحف مدينة نورنبرغ وصنعه على قسط صنع
«العجار التتويجي»



فى مدينة اطرابنشى :

« تعرفنا ما يؤلم النفوس تعرفه من سوء حال اهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب بها - دمرهم الله - وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة والمقام تحت عهدة الذمة وغلظه الملك الى دواعى طوارى الفتنة فى الدين على من كتب الله عليه الشقاء من ابنائهم ونسائهم ، وربما تسبب الى بعض اشياخهم اسباب نكالية تدعوهم الى فراق دينهم . »

« فمنها قصة اتفقت فى هذه السنين الغربية لبعض فقهاء مدينتهم التى فى حضرة ملكهم الطاغية ، ويعرف (الفقيه) بابن زدغة ، ضغطته بالمطالبة حتى اظهر فراق دين الاسلام ، والانغماس فى دين النصرانية ، ومهر فى حفظ الانجيل ومطالعة سير الروم ، وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد فى جملة القسيسين الذين يستفتون فى الاحكام النصرانية ، وربما طرأ حكم اسلامى ايضا فيه لما سبق من معرفته بالاحكام الشرعية ، ويقع الوقوف عند فتياه فى كلا الحكمين ، وكان له مسجد بازاء داره اعاده كنيسة نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتم الضلالة ومع ذلك فاعلمنا انه يكتن ايمانه . »

« ومن اعظم ما منى به اهل هذه الجزيرة ان الرجل ربما غضب على ابنه او على زوجه او تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المضروب عليه انفة تؤديسه الى التطارح فى الكنيسة فيتنصر ويتعمد فلا يجد الاب على الابن ولا الام على البنت سبيلا ، فتخيّل حال من منى بهذا فى اهله وولده ويقطع عمره متوقعا لوقوع هذه الفتنة فيهم ، فهم الدهر كله فى مداراة الاهل والولد خوف هذه الحال ، واهل النظر فى العواقب منهم يخافون ان يتفق على جميعهم ما اتفق على اهل جزيرة اقريطش من المسلمين فى المدة السالفة فانه لم تزل بهم الملكة الطاغية من النصارى والاستدراج الشئ بعد الشئ حالا بعد حال ، حتى اضطروا الى التنصر عن آخرهم ، وفر منهم من قضى الله بنجاته . »

زعيم المسلمين ابن حمود : قال ابن نجير : « وصل هذه الايام الى هذه المدينة زعيم اهل هذه الجزيرة من المسلمين وسيدهم : القائد ابو القاسم ابن حمود المعروف بابن حجر ، وهذا الرجل من اهل بيت بهذه الجزيرة ، توارثوا السيادة

كابرا عن كابر ، وقرر لدينا مع ذلك انه من اهل العمل الصالح مريد للخير
محب لاهله كثير الصنائع الاخر اوية ، من افتكاك الاسارى وبث الصدقات
فى الغرباء والمنقطعين من الحجاج ، الى مآثر جمة ومناقب كريمة ، فارتجست
هذه المدينة لوصوله .

وكان فى هذه المدة تحت هجران من الطاغية الزمه داره بمطالبة توجهت عليه
من اعدائه ، افتروا عليه فيها احاديث مزورة نسبوه فيها الى مخاطبة الموحدين
ايدهم الله ، كادت تقضى عليه لولا حارس المدة وتوالت عليه مصادرات اغرمته
نيفا على الثلاثين الف دينار ، مؤمنية ، ولم يزل يتخلى عن جميع دياره واملاكه
المورثة عن سلفه حتى بقى بدون مال .

« فاتفق فى هذه الايام رضى الطاغية عنه وامره بالتفوذ لهم من اشغاله
السلطانية فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله وصدرت عنه عند
وصوله الى هذه ابلدة رغبة فى الاجتماع بنا فاجتمعنا به ، فاطهر لنا من باطن
حاله وبواطن احوال هذه الجزيرة مع اعدائهم ما يبكى العيون دما ويذيب الما ،
فمن ذلك انه قال : كنت اود لو اباع انا واهل بيتى فلعل البيع كان يخلصنا
مما نحن فيه ، ويؤدى بنا الى الحصول فى بلاد المسلمين ومن عظم هذا الرجل
المحمود المذكور فى نفوس النصارى انهم يزعمون انه لو تنصر لما بقى فى
الجزيرة مسلم الا وفعل فعله ، اقتداء به . »

حادث له مفزاه الاليم - وآخر ما نرويه عن ابن جبير ، هذه الحادثة
الفربية التى تملؤ النفوس لوعة واسى وتسد دلالة قوية على ان مقام
المسلمين بصقلية رغم مظاهر التسامح الدينى الاخيرة ، كان مقاما قد قصر امده
وانتهت مدته :

« ومن اعجب ما شاهدناه من احوالهم التى تقطع النفوس اشفاقا وتذيب
القلوب رافة وحنانا ، ان احد اعيان هذه البلدة وجه ابنه الى احد اصحابنا
الحجاج راغبا فى ان يقبل منه بنتا بكرا صغيرة السن قد راهقت الادراك ، فاز
رضيها تزوجها وان لم يرضها زوجها ممن رضى لها من اهل بلده ويخرجها مع

نفسه راضية بفراق ابيها واخوتها ، طمعا فى التخلص من هذه الفتنة ، ورغبة فى الحصول فى بلاد المسلمين ، فطاب الابن والاخوة نفسا بذلك لعلهم يجدون السبيل لتتخلص الى بلاد المسلمين ، بانفسهم اذا زالت هذه العلقة المقيدة عنهم .
« فتأجر هذا الرجل المرغوب اليه بقبول ذلك وأعناه على استغنام هذه الفرصة المؤدية الى خير الدنيا والآخرة ؛ وطال عجبنا من حال تؤدى بانسان الى السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة من القلب ، واسلامها الى يد من يغربها واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق اليها والوحشة دونها ؛ كما استغربنا حال الصبية صانها الله ، ورضاها بفراق اهلها رغبة فى الاسلام ؛ واستمساكا بعروته الوثقى ، .

فريدريك الثانى

امبراطور المانيا وملك صقلية

كان الامر قد استتب للمانيين بصقلية وربوع ايطاليا ؛ واحتضنت البابوية تلك الامبراطورية الجرمانية وشملتها بالرعاية مستفيدة من قوتها المادية لبسط سلطانها الروحى ؛ كما استفاد المانيون من ذلك النفوذ الروحى لتقوية سلطانهم المادى . ولقد ظهرت آثار ذلك التعاون جلية اثناء الحروب الصليبية التى كانت متقدة الاوار بالبلاد الشامية ، وكانت الباباوية تذكى الحمية فى نفوس الملوك والاباطرة والامراء باروبا وتبعث منهم الفوج اثر الفوج للجهاد فى سبيل الصليب .

فى تلك الاثناء ، فى مفتح القرن الثالث عشر المسيحى ، تألق فى السماء الاروبية نجم جديد هو نجم الامبراطور الشاب فريدريك الثانى ، الذى ترعرع تحت رعاية البابا انوسانت الثالث ، الذى كان يطمع فى ادارة الدنيا واخضاعها لسلطانه ، فلما مات ذلك انابا سنة ١٢١٦ ، عندما كان يتفقد التجهيزات النهيئة للحملة الصليبية استقل فريدريك بامور نفسه متخلصا من كل نفوذ .
نشأ فريدريك نشأة صقلية عربية ، اذ كانت امه كنستنسا صقلية النشأة

والمسكن ، فتربى هنالك فى وسط راق ، رقيق الحاشية جمع الى مدنية المسلمين وحضارتهم رقة الآداب الاغريقية وعلومهم ؛ فلما استقل بامور الملك حين ترشد اتخذ من بالرمة مقرا لسلطانه ، وسار على غرار ملوك النرمان السالفين ومن سبقهم من ملوك وامراء المسلمين .

اقرار المسلمين بالجنوب الايطالى - انتهى عهد ملوك النرمان بصقلية بعد سلطان دام مائة عام ، وانتهى معه كما اسلفنا عهد راحة المسلمين وحريتهم . وابتدأت اعمال الاضطهاد والتنكيل تحت تأثير الكنيسة ، وتحت مفعول الحرب الصليبية ، تظهر نتائجها فجمع المسجون امرهم عندما تولى البابا انوسانت الثالث الوصاية على فريدرىك الصبى ، وخلصوا طاعة الجرمانيين ، واصلوا الثورة لكن الجنود المسيحية غلبتهم على امرهم سنة ١٢٠٠ فسكنوا حينئذ ثم عادوا للعصيان والثورة فرارا من الفتنة فى الدين فكان على الامبراطور فريدرىك اخضاعهم فيما بين سنتين ١٢٢١ و ١٢٢٥ ، فكانت ثوراتهم اشبه شىء بثورات بقايا مسلمى اسبانيا « المورىسك » الذين تظاهروا بالتنصر واخفوا الايمان ، خلال كامل القرن السادس عشر (١) .

لكنه فكر فى وسيلة تمكنه فى آن واحد من التخلص من اولئك الرجال الاشداء فى صقلية ، واستعمال قوة سواعدهم وصلابة سيوفهم لتمكين سلطانه وقهر اعدائه بالبلاد الطليانية ، لانهم يخاربون غير متأثرين بالفكرة المسيحية ، وهكذا اخذ ينقل للبلاد الطليانية جموعا كثيرة من المسلمين اسكنهم اول الامر مدينة لصيرة ، ثم نصيرة (انظر الخريطة) وقد بلغ عدد المسلمين والمسلمات هنالك (٦٠) الف نسمة منهم الثلث من رجال السيف والطعان ولقد احدث هذا العمل رجة فى العالم المسيحى وكان من جملة الاسباب التى حملت البابا على اعلان (كفر) فريدرىك لانه استعمل المسلمين لقتال المسيحيين بئسما الكنيسة تعمل على جمع كلمة المسيحيين لقتال المسلمين شرقا وغربا .

لقد سار فريدرىك اول مرة لبلاد فلسطين مشاركا فى الحرب الصليبية استرضاء للمسيحيين ؛ لكن البابا اغتنم فرصة ابتعاد الملك الامبراطور لايقاد

نيران الفتن فى بلاده ودفع امراء الطليان لرفع لواء العصيان فكان جنود فريدريك الصقليون ومسلموا نصيرة ينكلون بالشائرين ويخضعونهم .

تأسيس المملكة - رجع فريدريك من فلسطين واعلن سنة ١٢٣١ تأسيس مملكة صقلية وقد كان متشبعا بالنظم الشرقية الاسلامية ؛ وكأنه ذهب لبلاد الشرق الادنى ليدرس النظم الاجتماعية والادارية لا ليحارب المسلمين ؛ فرتب يومئذ امور الدولة ترتيبا اجمع المؤرخون على انه كان حجرة الاساس فى تكوين الدول الحديثة ، واسس الدواوين المختصة ، وفصل بين السلط القضائية والمالية والتشريعية التى كانت من خصائص الملك وحده فيما سلف . وقضى على سلطة الكهنوت بصفة جعلت البابا غريغوريوس التاسع يعلن ان الملحد فريدريك « محارب للكنيسة متلف للحريات العامة » والحريات العامة فى نظر البابا هى حرية رجال الدين خاصة .

البسلاط - فى القصر الملكى ببالرمه (انظر رسمه فى القسم المصور) اعاد الملك رونق وبهاء بلاط ملوك الترممان والمسلمين ؛ وجمع حوله فى تناسق غريب جملة من جلة علماء المسلمين والاغريق واللاتينيين ؛ ولقد كان الملك يحسن التكلم بالالسن العربية والالمانية والبطليانية والاغريقية والفرنسية ؛ وكان متبحرا فى علم الحيوان والنبات وقد اخذ معه من بلاد الشرق طائفة من غريب الحيوان شكل منها « متحف » كان ينقله معه اثناء حروبه بايطاليا .

واذ كانت العلوم قد تضاءلت فى صقلية وجنوب ايطاليا ، فان الملك فريدريك اسس جامعة « نابولى » التى كانت اولى الجامعات الحديثة من نوعها وقد جاء فى مرسوم تاسيسها : « ان جميع معلومات الانسان يجب ان تدرس بنابولى ، لكى يجد كل جائع للعلم الغذاء الذى تميل نفسه اليه حتى لا يكون مضطرا للهجرة فى سبيل المعرفة واستعطاف الاجانب من اجل العلم » . وبما ان « جامعة سالرنة » الطبية كانت ذات شهرة واسعة تدرس على

(١) انظر كتابنا « تاريخ الحروب الجزائرية الاسبانية ١٤٩٢ - ١٧٩٣ » .

الطريقة التي اختطها العلامة التونسي الصقلي (قسنطين) (١) اعلن الملك فريدريك انه لا يجوز لانسان ان يباشر مهنة التطبيب ما لم يكن متحصلا على اجازة تلك الجامعة .

الافكار الدينية - كان الامبراطور الملك على صلة متواصلة مع العلماء المسلمين شرقا وغربا ؛ وكان يستدعي لبلاطه علماء الاندلس وافريقيا ، ويجادلهم في علوم الكلام ومسألة الارواح وخلود النفس ما الى ذلك مما هو مرسوم بكتاب يدعى « المسائل الصقلية » (٢) كتبت نسخته الاصلية باللغة العربية ؛ وكان حافظا لفلسفة ابن رشد ناشر لها ومدافعا عنها .

ولقد كانت الحياة تليد له في مدينة نصيرة بين الجماعة الاسلامية التي استعمر بها تلك الناحية ، وهناك كان له قصر شرقي وخدم وحواشي وجواري حسان وهناك كان يحيا حياة سلطان من سلاطين المسلمين .

ولم تكن فكرته الدينية مستقيمة على الوتر المسيحي ، فلقد كتب البابا غريغوريوس التاسع منشورا لرجال الكنيسة يعلن فيها كفر الملك ويقول « نستطيع ان نثبت ان هذا الملك الفاجر يصرح علنا بان العالم قد غلظه ثلاثة من الادياء هم : موسى وعيسى ومحمد (صلوات الله عليهم) وانه بينما قد مات موسى ومحمد في عنفوان المجد والشرف ، مات عيسى مودة حقيرة وهو معلق على صليب خشبي ؛ ثم يقول ان العقل البشري لا يتصور ان امرأة عذراء تلد الاها ، ويجاهر امام الناس انه لا يمكن لاسنان ان يعتقد الا ما يقبله العقل ويقوم الدليل على صحته وتشهد الوقائع على ثبوته » .

ولقد كان فريدريك شديد النعمة على الرهبان ، وشديد القسوة على رجال

(١) انظر ترجمته وآثاره فيما بعد .

(٢) هي جواب الصوفي الاتدلسي عبد الحق ابن سبعين ، احد اقطاب فلسفة « وحدة الوجود » (Le Pantheisme) عن اسئلة الامبراطور افرديريك حول : قول ارسطو بقدوم العالم . والعلم . الأنهى . والمقولات العشر . وبقاء النفس البشرية بعد الموت . ومن اشهر كتبه « كتاب الالواح » وفيه بيان كامل لفلسفة وحدة الوجود .

الكنيسة ، ويقول ان عيسى كان فقيرا يحب الفقراء ، فما للرهبان ورجال الكهنوت يجمعون الثروات الطائلة ويعيشون فى الترف والنعيم ؟

ولقد كتب مرة رسالة لامبراطور الروم فاتاتزيس Valatzes يقول فيها :
« يا لسعادة آسيا ؛ ويا لسعادة بلاد الشرق ، هنالك لا يخشى الملوك ثورة شعوبهم ، ولا دسائس رجال الدين حواليتهم » .

فى الحرب الصليبية - كان البابا يستشير العامة ، ورجال الدين ، واوروبا كلها ، ضد فريديريك ، فاضطر هذا للعودة تخفيفا لتلك الغائلة ، للميدان الشرقى والحرب الصليبية ؛ فارسل الحملة تحت قيادة احد رجاله ، وكانت نتيجتها ان استولى المسلمون على دمياط (سنة ١٢٢١) فاشتدت نقمة المسيحيين على الملك ، واضطر للسفر بنفسه سنة ١٢٢٨ ، لكنه لم يعمل هنالك اعمال صليبي محارب ، بل اخذ يختلط برجال المسلمين وكبرائهم ، ويربط صلات الود والادب والعلم معهم ، فكانت الوقائع الحربية فاترة من الجهتين ، انتهت بعقدة معاهدة مع سلطان مصر الملك الكامل الايوبى ، نال بها المسيحيون صلحا بيت المقدس وبيت لحم والناصر ، فلم تشبع تلك الحملة نهم الباباوية ورجال التعصب ، وصدر الحكم « بكفر » الامبراطور الملك فريديريك .

لكن الامبراطور راي انه لا تمكن له مقاومة الكنيسة بصفة علنية ، وانه لا يستطيع الحكم ورجال الدين على الاطلاق وشعبه ضده ، فاخذ يعمل لنيل رضا البابا ، حتى نال الغفران ، ووقع نشر البلاغين التاليين ؛ الدبلوماسيين :
يقول البابا فى منشورة « لقد جاءنى الامبراطور وبين جنبيه نفس مؤمنة مطمئنة ، ورايت انه على استعداد ليقوم باى عمل فى سبيل منشأتنا وتحقيق غاياتنا » .

ويقول الامبراطور فى منشوره : « لقد خاطبنى البابا بقلب مفتوح ، وهذا ثائرة نفسى ، فلا اريد ان اذكر شيئا من الماضى » .

هنالك ثارت ثورة التعصب الكنيسى ؛ واسترجع رجال الكهنوت نفوذهم وسلطانهم ، وقاموا برد الفعل فاخذوا يمعنون فى تتبع « الكفار » ، والتنكيل بهم ، واحراقهم ، ونال المسلمون من ذلك جانبا عظيما .

اخراج آخر المسلمين من صقلية - اصبح المسلمون يغادرون الجزيرة جماعات وافرادا ، كلما وجدوا للخروج سبيلا ، فلم يبق منهم هنالك الا الاقل يعيشون فى ذل ومسكنة .

لما تفاقم امر ذلك ، وكانت دولة الموحدين العلية قد تركت فى بلاد تونس وشرق الجزائر ، ثمرتها الطيبة ، دولة بنى حفص ، عقد السلطان ابو زكريا بن ابي محمد عهدا مع الامبراطور ، يضمن للمسلمين فى بالرمة وضواحيها حرية دينهم وذواتهم واملاكهم ، وان يكونوا شركاء المنصارى فى البلاد والضاحية ؛ وبقي المسلمون آخر ايامهم هنالك متمتعين بتلك العناية الحفصية القالية :

عندما لبي ابو زكريا داعى ربه فى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤٧ (١٢٤٩ م) وبلغ نصارى صقلية موت السلطان المسلم العظيم ؛ يادروا بنقض ذلك العهد ، ولجوا فى طغيانهم ضد المسلمين وتكالبوا عليهم ، فلجأت بقايا المسلمين هنالك للحصون والاورار ؛ ونصبوا عليهم زعيما عربيا من بنى عبس ؛ فصمد اليهم النصارى وحاصروهم وضيقوا عليهم حتى استسلموا ، فاركبهم الملك البحر (١) واجتاز بهم الى الارض الافريقية ، وعرج النصارى كذلك على جزيرة مالطة ، فاحرجوا منها فى تلك السنة سائر من كان قد بقى بها من المسلمين ؛ واحلوههم البلاد الافريقية كذلك ؛ وانقطعت يومئذ آخر كلمة للاسلام بهاتيك الديار ، والملك لله الواحد القهار (٢) .

موت الملك واستشهاد مسلمي نصيرة - سلك الملك منذ تلك الساعة سياسة اوروبية مسيحية بحتة . وتمكن بواسطة البابا من تدعيم سلطانه وبث نفوذه واخضاع الامراء لسلطته . الى ان حانت ساعة وفاته وقد كان يحن

لشرقيته القديمة وتلذ له السكنى فى قصره بين مسلمى نصيرة وهناك مات
ودفن وله ضريح ضخم ، نقشت عليه كتابات عربية بديعة .

فلما تولى الملك شارل دابجو الفرنسى ، عمد الى التخلص من جموع
المسلمين فى نصيرة فاركب الكثير منهم الى افريقيا سنة ١٢٩٢ بعد ان اقاموا
هنالك وازدهر استعمارهم ٦٧ سنة . ولقد بقيت منهم بقية من المستضعفين
بتلك البلاد ، راي الملك شارل التخلص منهم دفعة واحدة فاطلق عليهم وحوش
جنده سنة ١٣٠٠ (٧٠٠ هـ) فقتلوههم ومحقوا رسمهم من الوجود ، ووزع ارضهم
واملاكهم ومتاعهم على العائلات الطليانية وهكذا انتهى امر الاسلام بايطاليا بعد
ما انتهى من صقلية .

(١) لاحظ ما لى اركابهم البحر وعدم الفك بهم بعد تلك الثورة من عاطفة انسانية غريبة
الوقوع فى تلك العصور المظلمة .

(٢) فيكون المسلمون قد بقوا بصقلية ، حاكمين ومحكومين ، مدة ٢٣ سنة (٨٢٧ - ١٢٥٠)

القسم الثامن

التمدن والعمران

شهد المؤرخون كافة ان ايام المسلمين بصقلية سواء حاكمين او محكومين، كانت ازهر ايام الجزيرة واكثرها امنا واوسعها عمراناً .

ولا نستطيع مهما اوتينا من مقدرة وبيان ، ان نلخص مدنية المسلمين في الجزيرة الصلية ونجمل وصفها بمثل ما لحصها واجمل وصفها اجمالاً بديعا المؤرخ الاكبر النزيه قوسطاف لوبون ، في كتابه مدنيات العرب ؛ فلا نرى اوفق من تعريب الفصل برمته ، اذ هو الصورة الصادقة لمدينة المسلمين هنالك ، صورة لم تكذ تترك شاردة ولا واردة الا احصتها وسجلتها ؛ يقول قوسطاف لوبون :

« ان ما لدينا من المصادر ، لاهياء معالم المدنية العربية بصقلية نادر قليل، بل ان المعلومات الوجيهة التي لدينا تنحصر في روايات المؤرخين المختلفة ، وفي عدد قليل من الآثار التي سلمت من ايدي الحراب والتحطيم ، وفي بعض النقود .

« ذلك المقدار الزهيد الذي بين ايدينا اليوم يكفيننا على كل حال لاقامة البرهان على ان مدنية العرب في جزيرة صقلية كانت دون مدنياتهم في اسبانيا وفي مصر ؛ انما هي كانت رغم ذلك موجودة وطيدة الاركان ، بحيث ان المستوى الفكرى والصناعى والاجتماعى فى صقلية كان ارفع عند خروج المسلمين من صقلية من المستوى الذى كانت عليه عندما دخلوها .

« لا يستطيع انسان ان يدرك مدى التأثير التمدنى لشعب على آخر الا بمدى ما احدثه فيه من اثر اصلاحى . فاذا نحن جرينا على هذه القاعدة ، راينا ان النفوذ الصالح للعرب فى جزيرة صقلية كان جسيماً .

« النظام الإداري (١) » - عندما أتم المسلمون فتح الجزيرة ابتدأوا فيها عصر التنظيم والترتيب ، ولقد كانت الجزيرة مقسمة منذ عهد الفنيقيين الى ولايتين : سرقوسة وبالرمة فالعرب قسموها الى ثلاث ولايات (٢) تقسيما مناسباً للوضعية الجغرافية .

ولقد كان لكل وال من الولاة في هذه الاقاليم الثلاثة تحت امرته طائفة من القواد يحكمون النواحي .

« القضاء » - كان المفتى وهو قاضى القضاة ينتصب في مدينة بالرمة . وفي كل مدينة من المدن كان يوجد قاض وكاتب .

« الجباية والديوان » - في كل مدينة كان يوجد مستخلص الضرائب والعشور وهنالك (ببالرمة) مجلس اكبر يدعى الديوان (٣) ؛ من خصائصه ضبط اموال الدولة وفحص الحسابات العامة .

« الحرية الدينية والمدنية » - كان المسيحيون الصقليون يتمتعون في كل ما ليس له مساس بالصالح العام ، بقوانينهم الدينية والمدنية ، ولهم كذلك حق الحكم فيما بينهم .

« فالقضاة من الاغريق الذين كان يطلق عليهم اسم « ستراتيغ » او الحكماء قد احتفظوا مدة الفتح الاسلامى بوظائفهم وبامتيازاتهم وحتى باسمهم التقليدى القديم ، فكانوا يحكمون في كل خلاف شجر بين النصارى . وكان هم الذن يتولون جمع الجزية التي فرضها العرب على رعاياهم النصارى ، وكان مقدارها : ٤٨ ديناراً في السنة على كل رجل غنى و ٢٤ ديناراً على متوسط الحال ؛ و ١٢ ديناراً على العامل الذي يكسب قوته بعمل يديه . فكانت هذه الضريبة ، اقل مما كان يدفعه النصارى تحت حكومة الروم . اما النساء والاطفال فكانوا لا يدفعون ادنى اتاوة .

(١) العناوين الصغيرة اضفناها على الاصل لزيادة البيان (٢) هي : سرقوسة ونوطس وبالرمة (٣) اخذ النرمان نظام الديوان واسمونه «Dohana» ومنها اخذ الاروبيون كلمة الدوان «Douanes»

« ولقد كانت كل القوانين المدنية المتعلقة بالاملاك وبالموارث ونحو ذلك منطبقة غاية الانطباق على عادات البلاد واخلاقها ، الى درجة ان النرمان عندما استولوا على البلاد ، ابقوا العمل جاريا بهاتيك القوانين ولم يمسوا منها شيئا .
« التسامح الديني - لقد احتفظ المسيحيون ايام سلطان المسلمين بقوانينهم وعاداتهم وحرية معتقدتهم ، ولقد قال الراهب الدومينكي كورداين من كنيسة القديسة كاترينة بباليمة ، ان الرهبان كانوا يخرجون مرتدين ثيابهم التقليدية الدينية ، ويذهبون كذلك يحملون الى المرضى طقوس الدين .
« اما الراهب مور كولى ، فيقص علينا قصة الحفلات الدينية في مدينة مسينا ، حيث كان المسيحيون في اعيادهم يحملون علمين : علما اخضر اللون وفي وسطه برج اسود ، وهو علم المسلمين ؛ وعلما احمر في وسطه صليب ذهبي هو علم النصارى .

« ولقد ابقى المسلمون في صقلية جميع كنائس النصارى ولم يمدوا لها ايديهم بسوء لكنهم لم يسمحوا لهم باقامة كنائس جديدة ، وذلك خلافا لما كان واقعيا في اسبانيا .

« الزراعة - ما كاد العرب يسيطرون سلطانهم على جزيرة صقلية حتى اندفعوا في ميدان الزراعة (١) والصناعة ، فانتشلوها من وهدة السقوط العظيم الذى وقعتا من قبل فيه .

« لقد ادخلوا الى الجزيرة غراسة القطن ؛ وقصب السكر وشجرة المبرن Frêne والزيتون (والفستق والبرتقال والليمون (٢) ؛ واحداثوا في سبيل خدمة الارض قنوات الري التى لا تزال موجودة ، واستعملوا على الاخص مجارى المياه بركب الماسورة Agueduc à Siphon وكان ذلك مجهولا قبلهم (I).

(١) يقول الرحالة ابن حوقل ؛ ان حقول القمح والشعير كانت تبسط على اكثر اقسام الجزيرة ونساحا من الذهب الابريز .

(٢) قال مسيو جيهار فى كتابه « اصول النهضة فى ايطاليا » ما نصه :

الصناعة - اما الصناعة فهي مدينة لهم كذلك برقيها العظيم ؛ فقد استغلوا احسن استغلال ثروات البلاد الطبيعية ، من فضة وحديد ونحاس وكبريت ورخام وحجر صلب الخ ؛ وادخلوا الى الجزيرة صناعة الحرير ، ففي متحف نورمبرغ بالمانيا يوجد معطف من الحرير ، كان يرتديه ملوك صقلية ، محاط بنسيج من الكتابة الكوفية يحمل تاريخ ٥٢٠ هجرية (٢) (١١٢٦ م) وكل شيء يحملنا على الاعتقاد ، بان فن صباغة اثياب قد انتقل من صقلية الى اوروبا .

التجارة - اما التجارة فقد كانت قبلهم ليست بذات قيمة فاصبحت بفضلهم واسعة ! لنطاق ، ولدينا على ذلك دليل ، ما كانت تتقاضاه (الديوانة) من مكوس على الصادرات والواردات في عهدهم ، وهناك لائحة طويلة الذيل ضمن اجازات تجارية نرمانية من اوائل عهد الاحتلال ، تثبت لنا مقدار ما بلغته التجارة من اتساع وتنوع ، عندما استولى الترمانيون على الجزيرة (١)

الآثار - لم يبق الآن في صقلية من آثار المسلمين الا النذر اليسير ، واهم ذلك قصر العزيز (لازيزا) وقصر القبة ، جوار بالرمة ؛ وهذه البقية الباقية تثبت لنا ان الرواة الذين وصفوا لنا ابهة وفخامة قصور المسلمين هنالك لم يرتكبوا اي غلو او شطط .

فالراهب تيودوز ، والجغرافي الادريسي على الاخص ، قد وصفوا لنا وصفا بديعا معجبا تلك القصور المحلاة بالرخام النادر ؛ والفسيفساء الناصعة الالوان تحيط بكل ذلك الحدائق الغناء . والراهب تيودوز وقد اسر سنة ٨٧٨ في

« ان جزيرة صقلية ، اميد وقل العتيقة ، قد اصبحت تحت ايدي المسلمين بما فيها من ثمانى عشرة من المدن ، وثلاثمائة وعشرين من القلاع المحصنة ، وما استثمر فيها من معادن الذهب والفضة والصفير ومناجم الكبريت ، وما انتشر فوق اديمها من حقول الحبوب ومزارع القطن وقصب السكر وحدائق النارجيل والنخيل ، وبما كان يغمرها من زهور ذات الوان زاهية ناصعة ، ومن مرابط الخيول الجياد ، ومن معانج الاقمشة والسندس ؛ وبما كان فيها من قصور ومساجد ؛ اصبحت بكل ذلك تبدو كأنها جنة ن رياض الشرق اليانعة » .

(١) لا تزال بالجزيرة الى يومنا هذا آثار من قنوات السرى والترع التى انشأها المسلمون كما لا تزال القرية الصقلية تحمل الطابع الاسلامى الى الآن .

(٣) انظر رسمه فى القسم المصور .

حصار سرقوسة وسير به الى بالرمة ؛ يحكى باعجاب عما شاهده من قصور
ومساجد وحارات حوالى هذه المدينة ، . اهـ .

كيف ترك المسلمون الجزيرة ؟

ترك لنا الجغرافى الاكبر محمد بن محمد بن عبد الله الادريسى كتابه الجليل
القيمة العالى المقدار (نزهة المشتاق فى اختراق الافاق) الفه للملك النرمانى
الشهير رجار الثانى ، وبطلب منه ؛ ووضع له اول خريطة (٢) جغرافية علمية
عرفت فى الدنيا ، تعتبر آية فى الدقة بالنسبة لذلك الزمن (انظر فى القسم
المصور قطعة منها) .

فلنتقل عن الادريسى بعض ما وصف به مدن صقلية فى عهده اى آخر عهد
الحكم الاسلامى واول عهد الحكم النرمانى ؛ بعد أن اقبل المسلمون تحت سلطة ملوك
النصارى على اصلاح ما افسدته الحروب وما خربته حوادث الاحتلال ؛ فاستمع
اليه يحكى لنا عن بالرمة .

بالرمة « Palerme »

« وساحلها بهج مشرق فرج ولها حسن المباني التى سارت الركبان بنشر
محاسنها فى بناآتها ودقائق صناعاتها وبدائع مخترعاتها وهى على قسمين :
قصر وربض فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره فى كل بلد واقليم وهو
فى ذاته على ثلاثة اسطى ؛ فالسماط الاوسط يشتمل على قصور منيفة ، ومنازل
شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار
والسمطان الباقيان فيهما ايضا قصور سامية ومبان فاخرة عالية وبهما من

(١) يقول مسيو نوبل دى فرجى فى كتابه « العالم » ان تجارة صقلية بلغت ايام المسلمين
مبلغا هائلا لم تدركه ابدا من قبل ولا من بعد .

(٢) يدعون ان انكليزيا كان اول من وضع رسما جغرافيا للعالم لكن ذلك الرسم على فرض
صحته يعتبر لعب صبيان اذا قيس بخريطة الادريسى المدققة .

الفنادق والحمامات كثير وبه (القصر القديم) الجامع الاعظم الذى كان بيعة فى الزمن الاقدم واعيد فى هذه المرة على حالته فى سالف الزمان . . .

فاما الربض فمدينة اخرى تحدد بالمدينة من جميع جهاتها وبه المدينة القديمة المسماة بالحالصة ، التى كان بها سكنى السلطان والحالصة فى ايام المسلمين وباب ابجر ودار الصناعة التى هى للانشاء والمياه بجميع جهات مدينة بالرم مخترقة وعيونها جارية متدفقة وفواكهها كثيرة ومبانيها ومنزهااتها حسنة تعجز الواصفين وتبهر عقول العارفين وهى بالجملة فتنة للناظرين والقصر المذكور من اكثر القصور منعة واعلاها رفعة لا ينال بقتال ولا يطاق على حال . .
والربض المحدق بالقصر القديم المتقدم ذكره هو فى ذاته كبير القطر كثير الفنادق والديار والحمامات والحوانيت والاسواق وله سور يحيط به وخندق وفصل وله فى داخله بساتين كثيرة ومنزهاات عجيبة وسقايات ماء عذبة جارية مجلوبة اليها من الجبال المحدقة ببقعتها (١)

مسينا Messine

« ساحلها بهج وارضها طيبة المنابت وبها جنات وبساتين ذات ثمار كثيرة ولها انهار غزيرة عليها ارجاء كثيرة وهى من اجل البلاد واكثرها عمارة والسفر منها اليها قصدا وهى دار الانشاء وبها الحط والاقلاع وبها الارساء من جميع بلاد الروم الساحلية وبها تجتمع السفن الكبار والمسافرون والتجار من بلاد الروم والاسلام القاصدون اليها من جميع الاقطار ؛ واسواقها رائقة وتجارها نافقة وقاصدها كثير وفى جبلها معدن الحديد الذى يتجهز به منه الى البلاد المجاورة لها ومرساها العجب العجيب الذى يتحدث به فى كل البلاد وذلك ان اكبر ما يكون من السفن العظام يرسى بها من الشاطئ بحيث يتناول ما فيها من البر بالايدي . »

(١) يقول ابن حوقل ان مدينة بالرمة كانت تشمل خمس حارات :

طيرمين Taormina

« حصن منيع وبلد شامخ رفيع من عيون الحصون الازلية واشراف البلاد الدولية وهو على جبل مطل على البحر وله مرسى حسن والسفر اليه من كل الجهات ويحمل منه كثير من القلات وبه منازل واسواق وهو مجتمع القوافل والرفاق الواصلة الى مسينا وبه ضياع صالحة ومزارع طيبة زاكية وبه الجبل المشهور المسمى بالطور الموصوف بالآيات المعروف بالعبادات وبه انهار غزيرة عليها ارحاء كثيرة وبها جنات قلائل ولها واد عليه قنطرة عجيبة وبنائها يدل على قدرة بانيها .

قطانية Catania

« وهى البلد الجميل المعروف ببلد الفيل الشامخة القدر العالمة الذكر ، وهى على ساحل البحر وبها الاسواق العامرة والديار الزاهرة والمساجد والجوامع والحمامات والحانات ، وبها مرسى حسن ؛ ويسافر اليها من جميع الآفاق ويحمل منها كل البضائع والاوزاق وجناتها كثيرة ومياها من انهارها وعيونها غزيرة ، وبها نهر فى امره عجب عجيب وشان مستطرف غريب ؛ وذلك انه فى بعض السنين يفيض فيضا كثيرا فتصب عليه الارحاء وتمتلئ منه الاودية وفى بعضها ينضب فلا يوجد فيه ماء يشرب ؛ وعمارتها واسعة وباديتها ومزارعها طيبة نافعة واسوارها منيعة ، واقطارها واسعة ؛ والفيل الذى اشتهرت به هو طلسم من حجر على صورة فيل ، كان منصوبا على بناء شاهق فى سالف الازمان ، ثم

(١) « القصر وفيه المدينة القديمة وسى التجار والمسجد الاعظم .

(٢) « الخالصة وهى مقر الامير والحاشية والدواوين ودار الصناعة .

وليست بها حركة تجارة وصناعة وفيها الكثير من المساجد والمدارس

(٣) « حى الصقالية وفيه المرسى والحركة التجارية وكان يسكنه الكثير من الصقالية (من

ناحية اسلوفاكيا)

(٤) « حى ابن صقلب والحى الجديد وفيهما عامة الناس »

ثم انه لا تزال الى يومنا هذا بالمدينة حارة تدعى « اتاريني » كانت سوق العطارين فيما مضى

وكان سكان المدينة ايام المسلمين زهاء الثلاثماية وخمسين الفا وبها ٥٠٠ مسجد .

تقل الآن فنصب داخل المدينة بكنيسة الرهبان .

لنتيني Lentini

« قلعة حصينة متحضرة الاسواق كالمدينة ، وهى من البحر على ستة اميال ، وموضعها على ضفة النهر المنسوب اليها وتبعد فيه المراكب باوساقها حتى تحط بين يديها من شرقيها ، وبغربيها ارض واسعة جدا فسيحة الارحاء ممتدة الفضاء ولها بواديهها انواع من السمك الجليل المعلوم المثال ما يحمل منه الى جميع جهاتها . »

سرقوسة Syracuse

« من مشاهير المدن واعيان البلاد ، تشهد لها المطى من كل حاضر وباد ويقصد اليها قصاد التجار من جميع الاقطار ، وهى على ساحل البحر ، وهو محدد بها دائرة بجميع جهاتها والدخول اليها والخروج منها على باب واحد وهو بشمالها ، وشهرتها تغنى عن التكثير من وصفها اذ هى منبر مشهور ومقل مذكور ، وبها مرسيان ليس مثلها فى جميع البلدان احدهما اكبر من الآخر وهو بجنوبها والآخر اشهر وهو بشمالها وبها فوارة النبودى تنبع من جرف على حاشية البحر وهى عجيبة الامر

« وبها ما باكبر المدن من الاسواق ذوات السماطات والحانات والديار والحمامات والمباني الرائقة والاقنية الواسعة ؛ (لاحظ انه لم يذكر بها مساجد) ولها اقليم كبير طائل وضياع ومنازل وهو خصيب المواضع زكى المزارع وتوسق منه السفن بالطعام وغيره من سائر الاوساق الى سائر البلاد والآفاق . »

نوطس Noto

« من ارفع القلاع حصنا واشرف المدن حسنا قطرها واسع المساحة شريف المنافع والرجاحة وبه اسواق جميلة الترتيب وديار متقنة التركيب

انهارها جارية بمياه غزيرة وعليها ارجاء كثيرة ولها عمل واسع المجال واقلية شريف الحال مزارعها ازكى المزارع ومواضعها اخصب المواضع وهى ازلية العمارة قديمة الآثار .

رغوص Ragusa

« وهى قلعة منيعة وبلدة شريفة قديمة العمران ازلية المكان محدقة بها الاودية والانهار كثيرة الارحاء والمطاحن حسنة الابنية واسعة الاقنية ولها بادية خصيبة ومزارع زكية رحيبة وبينها وبين البحر سبعة اميال ونهرها المنسوب اليها يجرى منها بجهتها الشرقية وبهذا الوادى عند مصبه فى البحر مرسى حسن والمراكب تدخله وبه توسق وتفرغ ولها اسواق يتصرف اليها من جميع النواحي والافاق .

بثيرة Butera

احسن البلاد بادية وحاضرة ، واشبه شىء بالمدن الكبيرة العامرة حسنة البنيان مشيدة الاركان ، ديارها رائقة عجيبة واسواقها مرتبة رحيبة وبها مساجد للجماعات ويدور بها واد من اعظم الاودية محدقة به الجنات من جميع الجهات ؛ ولها فواكه طيبة وخيرات كثيرة معجبة .

جرجنت Girgenti

مدينة متحضرة من اشرف الحواضر عامرة بالوارد والصادر ؛ وقلعتها حصينة سامية ومدينتها زاهية قديمة العمران مشهورة فى جميع البلدان ؛ بل هى من اعظم الحصور منعة واجل البلاد رفعة يسعى اليها من سائر الافاق وتجتمع بها السفن والرفاق ديارها سامية فى الديار ومحلاتها تفتن الانظار وبها اسواق جامعة لاصناف الصنائع وضروب المتاجر والمبايع واصناف كثيرة من الثمرات ؛ ازلية اولية تدل آثارها على سلطنة عليا ، ويحمل على كل ما وصل اليها من عظام السفن ما يتجاوز اوساقها فى الايام القلائل لاتساع ما بها من

مواد الطوائل وبها جنات وغللات مشهورات ؛ وهى على ثلاثة اميال من البحر .

مازرة Mazara

« مدينة فاضلة شامخة كاملة ، لا شبه لها ولا مثال ، فى شرف المحل والخال واليها الانتهاء فى جمال الهيئة والبناء ، وما اجتمع فيها من المحاسن التى لم تجتمع فى غيرها من المواطن وهى ذات اسوار حصينة شائقة وديار حسنة فائقة بها ازقة واسعة وشوارع واسواق عامرة بالتجارات والصنائع وحمامات فاضلة وخانات واسعات وبساتين وجنات طيبات المزروعات ، يسافر اليها من جميع الآفاق ويتجهز منها بوافر الاوساق واقليمها كثير الاتساع يشتمل على منازل جلييلة وضياع .

مرسى على (مرصالا) Marsala

كانت مدينة ازلية من اشرف بلاد صقلية ، وكانت خربت ودثرت فعمرها النومس رجار وسور عليها سورا قصارت ذات عمارة واسواق وخانات ولها اقليم واسع وعمل شاسع وسفر اهل بلاد افريقيا اليها كثير . . . ولها فنادق وحمامات وبساتين ومزارع طيبات .

طرابنش Trapani

مدينة ازلية قديمة المحل على ساحل البحر والبحر يحرق بها من جميع جهاتها وانما يسلك اليها على قنطرة على باب شرقيها ومرساها بالجانب الجنوبي منها وهو مرسى ساكن غير متحرك تشتوبه اكثر السفن آمنة من جميع الانواء هاد موجه عند هيجان البحر ويصاد به من السمك ما يفوق المقدار ويصاد به السمك الكبير ايضا المعروف بالتن بشباك كبار ويصاد ببحرها المرجان السننى وعلى بابها سباح الملح البحرى ولها اقليم واسع الاجناب ممتد الاطناب ارضها من اكرم الارضين فى الزراعات كثيرة الفوائد والغللات ، وطرابنش فى ذاتها

ذات اسواق رحبية ومعائن خصيبة وبقرها جزيرة الراهب وجزيرة اليايسة
وجزيرة مليطمة ولكل واحدة من هذه الجزائر مرسى وآبار ومحتطب .

بر طنيق Partinico

« بلدة جميلة طيبة وطية حسنة المنظر بهية وبها ضياع زكية يعمل بها
القطن الكثير والحناء وغير ذلك من انواع القطنى وبها مياه غزيرة وعليها
ارحاء كثيرة .

قريش Carini

« بلدة طيبة جميلة حصينة وبها اصناف من الفواكه كثيرة وبها سوق
كبيرة واكبر ما بالحوض من الاسواق والحمامات والديار الواسعة ومنها يحمل
كثير من اللوز والتين الناشف والخرنوب ويوسق به المراكب والقوارب ويتجهز
به الى الكثير من البلاد .

بعد هذه الجولة التى جالها الشريف الادريسي حول المدن البحرية
الصقلية ؛ مبتدئاً ببالرمة ومسينا متجهاً من الشمال الشرقى صوب الجنوب
ثم منه الى الشمال الغربى ؛ وقد اقتبسنا منه وصف اهم المدن ينتقل الى داخل
البلاد واصفا المدن البرية فلنقتبس منه شيئاً من ذلك ؛ قال عن :

الحزان

« وهو حصن فى اعلى جبل ، من اجمل القلاع وافضل البقاع ، وحاله افضل
حال ولها عمارة وارحال ، ومنه يخرج النهر المسمى وادى الامير واصله من
الحزان فيتزل مع الحنادق وتجتمع به مياه قجانة ، (وهذا الحزان من جملة
منشآت المسلمين لتنظيم الري فى البلاد وتوزيع المياه على المزارع والبساتين)

الصنم Castelvetrano

« رجل كبير ؛ يحتوى على بشر كثير ، وعليه حصن مطل ومقل سامى المحل ، اشجاره مصطفة وبساتينه ملتفة ومياهه مندفة وخيراته محدقة ، ومن الصنم الى مازر سبعة اميال . »

قلعة النساء Calata Nisetta

« قلعة حسنة البناء ، مطلة على عمارات متصلة ومنايع جمة وغلات واشجار وفواكه . »

قصر يانى Gastro Giovanni

« وهى مدينة فى اعلى جبل ، ذات حصن حصين ومقل متين ، قطرها واسع وفناؤها شاسع ولها اسواق جميلة الترتيب وديار متقنة التركيب وصنائع وبضائع ، وصناع ومتاجر وامتاع ، ولها عمل واسع المجال ، واقاليم واسية الحال ، مزارعها زكية وغلاتها مرضية وهواؤها بارد ومرافقها تشفى الصادر والوارد ، وبالجملة انها امنع بلاد الله مكانا واوثقها بنيانا ، ولها مع حصانتها فى جبلها مزارع ومياه جارية لا تحتاج الى البسط ، وبها رقة راثقة ورقعة شاهقة ، لا تغلب فى الحال ولا يمكن فيها القتال . »

(من اجل ذلك كانت آخر معقل الروم التى سقطت بايدى المسلمين ، ثم كانت من بعد آخر معقل المسلمين التى سقطت بين ايدى النرمان) . »

حياة اللغة العربية ايام النرمان

كانت العربية كما رايت لسان البلاد الرسمي تستعمل فى كثير من الاحيان قبل اللغة انثرومانية . وكان شعار الملك النرمانى عربيا والتخاطب فى البلاط باللغة العربية ، والنقود النرمانية عربية بالضرب عربية الصيغة ، وانما نقش على احد وجهيها رسم الملك واسمه باللغة النرمانية ، واستمر العلم زاهرا

والتعليم العربى منتشرًا يدل على ذلك اجلى دلالة شواهد القبور من العهد النرمانى الاسلامى التى لا تزال قائمة الى يومنا هذا .

من ذلك شاهد فى مدينة بالرمة نقش عليه « الله العزة والبقاء وعلى خلقه كتب الفناء . ولكم فى رسول الله اسوة حسنة ، هذا قبر ميمونة بنت حسان بن على الهذلى عرف بابن الاسوسى توفيت رحمة الله عليها يوم الخميس السادس عشر من شهر شعبان من سنة تسع وستين وخمسائة (١) وهى تشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له .

انظر بعينك هل فى الارض من باقى او دافع الموت او للموت من راقى الموت اخرجنى قسرا فيما اسفى لم ينجنى منه ابوابى واغلاقى وصرت رهنا بما قدمت من عمل محصى على وما خلفته باقى يا من راي القبر انى قد بليت به والترب غير اجفانى وآماقى فى مضجعى ومقامى فى البلا عبر وفى نشورى اذا ما جئت خلاقى وامثال هذه الشواهد كثير فى صقلية ايام العهد النرمانى ، لا تكاد تحصى ؛ وقد جمع اكثرها سيد كتاب صقلية وكبير المستشرقين ، ميكل عمارى ، فى كتاب جليل اقيمة اسماء . **Le Epigrafi Arabiche di Sicilia** انما الذى يعطيك صورة صادقة لحياة العربية اذاك ، وانها كانت اللغة الرسمية ليس فى الدوائر الحكومية فحسب بل حتى فى الدوائر الدينية المسيحية ما نقش على قبر مسيحي :

« توفيت أنه ام القسيس اكريزنت قسيس الحضرة المالكة الملكية الملكية العالية العلية المعظمة السنية القريسية البهية المعتزة بالله الملووزة بقدرته المنصورة بقوته مالكة ينطالية وانكبرده وقلورية وصقلية وافريقية ، معزة امام رومية النصرانية سرمد الله مملكتها يوم الجمعة العشر العشرين من او سبت سنة ثلاث واربعين وخمسائة (١) ودفنت بالجامع الاعظم ثم نقلها ولدها

(١) ١١٧٣ م ٢٠ ايام الملك النرمانى غليوم الحسن

بالمستنجد الى هذه الكنيسة حنت مخايلة يوم الجمعة اول ساعة العشا
العشرين مائة سنة اربع واربعين وخمسمائة وبنى على على قبرها هذه الكنيسة
وسمى الكنيسة جنت انه على اسم ام مريم ودعا لها بالرحمة آمين آمين آمين ،
وانك لا ريب قد لا حظت ان التاريخ المستعمل كان التاريخ الهجرى ولم يذكر
التاريخ المسيحى فى بناء كنيسة مقدسة للمسيحية وليس بعد هذا الاثر اثر
ولا افصح من هذا البيان بيان .



القسم التاسع

العلوم والادب

فى تلك الفترة الطويلة التى قضاها المسلمون فى ربوع صقلية ، وقد جعلوها روضة غناء ، وحديقة يانعة ، وجنة تجرى من تحتها الانهار ، وسواء كانوا حاكمين يومئذ او محكومين ؛ ورغم جميع ما اجتازته الجزيرة من حروب خارجية واضطرابات وفتن داخلية ؛ ازدهرت العلوم والفنون والآداب ، ونبغ فى الجزيرة رجال خلدوا على صفحات التاريخ اسمها ؛ ورفعوا ذكرها بين البلاد عليا ؛ فكانت العلوم تدرس هنالك فى كل مدينة وكل قرية ، شأنها فى ذلك شأن بقية بلاد الاسلام ، حيث كانت المساجد والجوامع تقوم مقام المدارس الثانوية والعليا ؛ وحيث كانت الكتائب القرآنية المنتشرة انتشارا غريبا ، فى كل حارة من حارات المدن والقرى ، تبث التعليم الابتدائى العربى الدينى وتؤهل الاطفال لتسبم ذرى المعارف العليا فى صقلية نفسها او ببلاد افريقيا او الاندلس او الشرق .

ويقص علينا ياقوت الحموى ، فى كتابه معجم البلدان ؛ انه كان بمدينة بالرمة فى عهده ثلاثمائة مدرس ؛ وان المدرسين ومعلمى القرآن كانوا لا يكلفون بحمل سلاح ، وليس عليهم اى شئ من التكاليف الحكومية .

نشأت هنالك ، خلال تلك المدنية الشامخة انذرى ، طبقات غفيرة من الاطباء كان لهم الفضل الاكبر ، لاختلاطهم بايطاليا وبقية اوروبا ، فى نشر آخر ما وصلت اليه قرائح اطباء العرب والاغريق فى كامل القارة الاوروبية وسياتيك نبا قسطنطين الصقلى التونسى فيما بعد ، ونشأت هنالك طبقات عديدة من رجال العلم والفن والآداب ، كما نشأ هنالك جمهور صالح من كبار الشعراء من

افذاذ العباقرة الموهومين ترعرعوا بين احضان الروعة والجمال ، والعزة والجلال ، فسجلوا لصقلية باشعارهم النفيسة صورة طيبة محببة الى النفس ، وانشأوا بذلك فى صقلية ادبا قوميا صقليا عربيا متينا ، جزلا رقيقا ، كأنة الдре اللامعة فى عقد الادب العربى الرائع البهاء . وانما اقول ان شعراء صقلية قد انشأوا شعرا قوميا ، لأن تلك الطائفة الصالحة من كبار الشعراء ، كما سيمر بك فيما بعد ، قد صوروا لنا فابدعوا تصوير صقلية بلهجة شعرهم وبتشابههم المنتقاة من صلب الحياة الصقلية ، وعلى الاخص بما وصفوه لنا من حياة صقلية ، ومن جهادها ومن عبثها ، ومن رياضها وجنانها ومن زمردها واشجارها ، ما يجعلك نشعر بعد تلاوة ذلك الشعر الحى المتين ، انك تغلغلت خلال ذلك الوسط ، وعاشرت اهله ، واطلعت على تخفى نفوسهم من عظمة وقوة ، وما تخلل ذلك من تهتك ومجون .

وانها لدراسة ثرية ، بعيدة الغور ، فسيحة الآفاق ، دراسة آداب صقلية وعلومها وفنونها ، وحياة الادباء والعلماء والفنانين فيها ؛ فعسى الله ان يقيض من ابناء هذا الشمال الافريقى من يتخصص لهذه الدراسة ، فهى جديرة بان يهبها باحث كل حياته لا جزءاً من وقته ، وان من قضى حياته فى ذلك العمل يكون قد خلد اسمه فى سجل الاعلام .

ولنلق الآن نظرة وجيزة على اولئك النابغين الافذاذ الذين استحققت بهم صقلية كما يقول العلامة البحاثة كارل سيدهورف ، لقب « باب الشرق للتوغل فى الغرب » .

قسطنطين الصقلي

ومدرسة سالرنة

وانه لحرى ان نفتتح به هذه السلسلة الذهبية ، وان كان آخر علماء صقلية وايطاليا عهداً ؛ انما كان يمثل لنا طبقة من الرجال ، من اجل العلم خلقوا ، وكل ميسر لما خلق له ، ومن اجل العلم عاشوا ، وفى سبيل العلم جاهدوا

الجهاد العنيف وتم يتأخروا عن تقديم اعز التضحيات واثقله على النفس في سبيل نشر المعرفة ، وبث الانوار في الاصقاع التي كانت يومئذ في ظلمات الجهالة ، اعنى قارة اوروبا .

فقسطنطين الصقلي او الافريقى ، كان الطبيب المعلم الذى نقل الى الغرب كتب الطب والحكمة ، فترجمها لللسان اللاتينى ، وجمع حولها رواد المعرفة والراغبين فى العلم ، فأسس لهم « مدرسة سالرنة » (١) التي كانت اول مدرسة من نوعها فى اوروبا ، والتي كانت مبعث انوار الطب الحديث فى العالم الغربى باسره ؛ والتي بقيت عدة قرون حاملة راية الطب يتبع طريقتها التي سنّها قسطنطين كل علماء اوروبا وجامعاتها .

حوالى سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٥ م) ولد بمدينة تونس ، ذلك الرجل الذى سيسجل التاريخ اسمه باحرف من نور ، وبها تعلم وتهذب وثقف ، وكان يتعاطى التجارة فى مقتبل عمره ويقبل بكليته على العلوم ، ويفامر فى الاسفار ، ويعتكف على دراسة كتب الطب حتى استوعب منها الكثير ثم حل يومئذ فى تجارة له بمدينة سالرنة ، واتصلت علاقته باميرها جيزولف وكان مترجمنا الذى سيدعى فيما بعد « قسطنطين » يجهل اللاتينية وكان قصارى امره يومئذ انه تاجر من تجار المسلمين ومثقف متنور بين جماعة غفيرة من المثقفين المتنورين ، فكان الطبيب العربى « عباس دى كوربا » يتولى مهمة الترجمة بين المسافرين والامير ، وسال قسطنطين الذى لم يكن يدعى يومئذ بهذا الاسم اثناء عملية تحليل البول ، هل لاطباء ايطاليا كتب طبية باللغة اللاتينية فاجيب سلبا ، واعلم ان الطب يتلقى هنالك شفويا ويعتمد على بعض التجارب ليس الا . رجع الرجل لنبلاذ التونسية ، وانكب على استكمال معلوماته الطبية بين افريقيا وصقلية وبلاد الشرق ، وجمع من احسن كتب الطب الشىء الكثير فبعد ان استوعب جميع ذلك ، أخذ معه تلك المكتبة الشمينة الثرية ، وسافر الى

(١) اصبحت جامعة رسمية بامر من الملك روجى الثانى سنة ١١٥٠ ؛ واستمرت عاملة مدى ٦٦٧ عاما . ثم ألغيت سنة ١٨١٧ .

صقلية ، ومنها اجتاز الى مدينة ساليرنة يحمل ذخيرة ستكون غذاء أوروبا طيلة قرون .

هنالك انكب على دراسة اللغة اللاتينية حتى حذقها على يد رجال الدين والكهنوت ، واصبح يدعى يومئذ « قسطنطين الافريقى » تارة « وقسطنطين الصقلى » تارة اخرى ، ثم اعتكف فى دير جبل كاسان ، ولهذا الدير شهرة عالمية باقية منذ تلك الساعة الى يومنا هذا (١) ؛ ومنالك فى ذلك الدير اخذ قسطنطين فى بادىء امره ، يترجم اللغة اللاتينية اهم كتب الطب العربى وفى طليعتها : « زاد المسافر » لابن الجزار ، ترجمة تحت اسم *Viaticum* وانتشر صيت ذلك الكتاب ، وعمت شهرته كافة البلاد الاروبية ، واصبحت طريقة ابن الجزار فى الطب طريقة اروبا كلها . ومكثت كذلك قرونا عديدة ثم نشر شيئا من كتاب على بن العباس تحت اسم : *Pratica Panlegni* وترجم كذلك كتباً نلرازى ؛ وكتباً اخرى لاسحاق ابن سليمان الاسرائيلى ؛ ولم يكتف بترجمة تلك الكتب ، بل اخذ يتبحر فى علم الطب ، والف نحواً من ٢٢ كتاباً فى مختلف شعب الطب وطريقة الوقاية من الامراض والعلاج ، ولقد طبعت كتبه كلها ما بين سنتى ١٥٣٦ و ١٥٣٩ ومن اهمها :

قانون الطث ؛ ١٢ كتاباً .

فياتيكوم فى الطب العام ، ٧ كتب :

النبول وتحليله - الاعضاء الداخلية فى جسم الانسان - الجماع - جسم المرأة واعضاؤها - النبض - كتاب الجراحة - كتاب المعدة - كتاب العيون - النبات الطبى - المالىخوليا - الحمية للمرضى - طبيعة الانسان ووظائف الاعضاء - الحيوان . الخ .

(١) حطمته الحرب العالمية الاخيرة الوحشية وقضت فيه على ثروة علمية ادبية تاريخية عزيزة المثال ، واصبح كوما من حجارة ورماد .

يؤخذ على قسطنطين الصقلي ، انه كان كلما ترجم كتابا نسبته الى نفسه ؛ ولم يذكر اسم المؤلف ، ويدافع عنه رجال من كبار العلماء ، امثال دارمبيرغ (١) (Daremborg) وسيددهوف (Sudhoff) فيقولون ان العلاقات بين النصارى والمسلمين كانت يومئذ رديئة عدائية ؛ وقد تركت محاولات المسلمين لاستعمار الجنوب الطليانى اثراً عظيماً فى نفوس القوم ؛ فعندما ادرك قسطنطين ذلك علم انه اذا نسب كتب المسلمين لاصحابها ، عمل التعصب عمله وحال بينها وبين الانتشار ، فنسبها الى نفسه ، كانها عمل راهب من رهبان دير كسان ، يعلم الطب فى مدينة ساليرنة ، فانتشرت تلك الكتب بتلك الطريقة ؛ وما كاد علماء عصر النهضة يدركون ذلك حتى كانت تلك الكتب قد تمكنت وعم ذبوعها وانتشارها ، واصبحت فى العالم الاروبى نبراساً منيراً ؛ ومات قسطنطين فى دير جبل كاسان سنة ٤٨٠ (١٠٨٧) .

وقد طبعت مؤلفاته بمدينة بال بسويسرا فى جزأين ضخمين ، صدر الاول منهما سنة ١٥٣٦ والثانى سنة ١٥٣٩ (٢) .

الامام محمد بن على المازرى - قال عنه صاحب سمط اللئال :

ابو عبد الله محمد بن على بن عمر التميمى المازرى ؛ اصله من مازرة (هقلية) اخذ عن اللخمي وعبد الحميد السوسى المعروف بابن الصائغ وغيرهما ؛ وهو احد الاعلام المشاز اليهم فى حفظ الحديث والكلام وآخر المشتغلين بتحقيق العلم ورتبة الاجتهاد ودقة النظر حتى لقب بالامام ؛ ومن اخذ عنه بالاجازة القاضى عياض كان يفرع اليه فى الفتوى وفى الطب كما يفرع اليه فى الفقه ، وسبب اشتغاله بالطب انه مريض ، وكان يطبه يهودى ؛ فقال اليهودى : يا سيدى مثلى يطب مئلكم ، واى قرية اجدها اتقرب فيها فى دينى مثل ان افقدك للمسلمين ، فمن حينئذ اشتغل بالطب ، وقد هاجر الى افريقيا

(١) علامة فرنسى (١٨١٧ - ١٨٧٢) نشر قاموس الآثار الرومانية واليونانية

MORBORUM COGNITIONE

(٢) اسم الكتاب الاول

OPERA RELIQUAT

واسم الكتاب الثانى

وتولى قضاء القيروان وقضاء المهدية ،

وله تأليف كثيرة جليلة ، منها شرحه على صحيح مسلم المسمى كتاب المعلم بفوائد كتاب مسلم ، وعليه بنى القاضى عياض كتاب الاكمال تكملة له ؛ توفي رحمه الله فى ١٨ ربيع الاول سنة ٥٣٦ هـ ؛ وتربته خارج بلد المنستير من جهة البحر ؛ يزورها الناس افواجا الى يومنا هذا .

محمد بن يونس التميمي - من مدينة مازرة كذلك ، مـ علم من اعلام الفقه اخذ عن اللمخمي وابن الصائغ وغيرهما وتبحر فى العلم وشدت اليه الرحال للافتاء حتى لقب « بالامام الاكبر » وقد الف تأليف حافلة عن شرح موطأ الامام مالك بن انس رضى الله عنه والتعليق عليه ، ونال بواسطة ذلك شهرة ذائعة وصيتا عظيما ؛ وتوفاه الله بمدينة مازرة فى اوج عزه وسؤدده العلمى سنة ٤٤٧ (١٠٥٥ م) ؛ وترك جماعة من العلماء الجلة ممن صحبوه واخذوا عنه ونفعوا الناس بعلمه وآثاره .

محمد بن محمد بن ظفر - من افاذ صقلية الاعلام ايام حكم النرماو؛ قضى حياته كلها فى التعلم والتأليف والتنقل بين البلاد ، من صقلية الى مصر الى بلاد الشام ، وصحب الملك رجار الصقلى ، وقدم له بعض الكتب المؤلفة باسمه ؛ مثل : « سلوان المطاع و فى عدوان الاتباع » وهو كتاب ثمين ؛ قام بترجمته للغة الطليانية المستشرق الصقلى الاكبر والعلامة الجليل ميكل عمارى .

وتكاد كتب محمد بن ظفر الصقلى لا يحصيها عد ؛ منها : ينبوع الحياة فى تفسير القرآن الكريم - فوائد الوحي الموجز الى فرائد الوحي المعجز - المسند فى الفقه على مذهب مالك - اساليب الغاية فى احكام الآيات - معاتبة الجريء فى معاقبة البريء ، فى اعتقاد ابى حنيفة والاشعرى - كتاب الجنة فى اعتقاد اهل السنة - خير البشر - ملح اللغة فيما اتفق لفظه واختلف معناه على حروف المعجم - ايهام الغواص فى ايهام الخواص ، فى بيان غلط ابى محمد الحريرى - الخوذ الواقية ، والعود الراقية ؛ كتابان فى شرح الحريرى - كتاب الاشتراك اللغوى والاستنباط المعنوى - كتاب الاشارة الى علم العبارة - القواعد والبيان

فى علم النحو - أنباء نجباء الإبتاء - مالك الأذكار فى مسالك الأفكار - الخ - الخ .
ولم يزل فى حل وترحال بين صقلية وبلاد المشرق ، الى ان غادر صقلية
نهائيا سنة ٥٥٤ (١١٥٩) ، بعد ان ألف كتابه البديع « سلوان المطاع ، فى
عدوان الاتباع » وقال فى مقدمته : « ان ملكا حسن السيرة مظلون حسن
السريرة ، أمرنى ان أصنف له كتابا يكون لهجومه شافيا ، ولكليلة ودمنة
قافيا ، فاجبته لذلك مكافيا » واستقر بعدئذ بمدينة حماه من مدن الشام
وبها أدركته الوفاة سنة ٥٥٦ .

وكان شاعرا رقيقا ، قال :

حملتك فى قلبى فهل أنت عالم بأنك محمول وانت مقيم
الا ان شخصا فى فؤادى محله واشتاقه شخص على كريم
ومن قل فيما يتقيه اضطباره فقد قل فيما يرتجيه نصيبه
وقال: على قدر اهل الفضل تؤتى خطوبه ويعرف عند الصبر فيه نصيبه

عبد الرحمان ابن محمد بن عمر - من مدينة بشيرة ، بصقلية ، عاش ايام
رجار ؛ وقد كان حاملا كتاب الله ، واشتهر شهرة ذائعة فى الشعر والادب ،
ولقد مدح الملك رجار الصقلى بقصيد من عيون الشعر ، له قيمة تاريخية عالية ،
كاغلب الشعر الصقلى ، يصف به حياة الجزيرة ويتغنى ببهاثها وجمالها ، منه :

ادر العقيق العسجدية وصل اضطحابك بالعشية
واشرب على وقع المئان الى والأغاني المعبدية
ما عيشة تصفو سوى بذرى صقلية هنية
فى دولة اربت على دول الملوك القيصرية

* * *

وقصور منصورية حط السرور بها المطية
اعجب بمنزلها الذى قد أكمل الرحمن ربه
والملعب الزاهى على كل المباني الهندسية

ورياضة الانف انتى عادت بها الدنيا زهية
 وأسود « شادر وانه » تهسى مياها كوثرية
 وكسا الربيع ربوعها من حسنه حللا بهية
 وغدا يكلل وجهها بمصبغات جوهريّة
 عطرن انفاس الصبّا عند الصبيحة والعشية

عبد الرحمان بن ابى العباس - شاعر اديب فنان ، لم يترك لنا صورة
 زيتية تمثل حياة صقلية ، انما ابقى لنا من غرر الشعر قصيدا بديعا يصف به
 الجزيرة ، وحياة بالرمة ، وقصر الفوارة التابع لقصر المعتزية ، الذى كان
 منتزه ملوك صقلية المسلمين ، فاستمع اليه يقول :

فوارة البحرين جمعت المنى عيش يطيب ومنظر يستعظم
 قسمت مياهاك فى جداوا، تسعة يا حبذا جريانها المتقسم
 فى ملتقى بحريك معترك الهوى، وعلى خليجك الفرام مخيم
 لله بحر النخلتين وما حوى الـ بحر المشيد به المقام الاعظم
 وكان ما المفرغين وصفوه در مذاب ، وانتسيطة عدرم
 وكان اغصان الرياض تطاولت ترنو الى سمك المياه وتبسم
 والحوث يسبح فى صفاء مياها والطير بين رياضها يثرنم
 وكان نارنج الجزيرة اذ زها نار على قضب الزبرجد تضرم
 وكانا الليمون صفرة عاشق قد بات من الم النوى يتالم
 والنخلتين كعاشقين استخلا حذر العدا حصنا منيعا منهم
 او ريبة علقتهم فتطاولا يستمحنان ظنون من يشوهم
 يا نخلتى بحرى بلرم سقيتما صوب الحيا (١) بتواصل لا يصرم
 هنيئما امر الزمان ونلتما كل الامانى والحوادث نوم
 بالله طيبا واسترا اهل الهوى فبأمن ظلكما الهوى يتحرم

عيسى بن عبد المنعم - هو الفقيه ابوموسى عيسى بن عبد المنعم الصقلى ،
 ذكر عنه صاحب خريدة القصر ، انه كان كبير الشأن ، ذا الحجة والبرهان ،

نقيه الامة له المعاني والافكار البعيدة مراميها ومراقبيها ، والالفاظ التي هي كالرياض . فمن بديع قوله في الغزل ، في فتاة نرمانية بلا ريب ، واعجب بفقيه مسلم يعشق فتاة نرمانية ويتغزل فيها :

يا بنى الاصفر (٢) انتم بدمى منكم القاتل لي والمستبيح
امليسح هجر من يهواكم وحلال ذاك في دين المسيح ؟
يا عليل الطرف من غير ضنى (٣) واذا لاحظ قلبا فصحيح
كل شيء بعد ما ابصرتكم من صنوف الحسن في عيني قبيح
عمر بن حسن النحوى - كان شيخا من شيوخ اللغة ، واماما من ائمة
النحو وبليغا من اكبر البلغاء في عصره ، وكان ممن جاهد ضد النرمان ، وابلى
البلاء الحسن الى ان اسر ونكب ، وجاء عهد الملك رجار فافرج عنه وقربه ،
فقال يمدحه من قصيد :

طلب السلو لو أن غير سعاده حلت سويدا قلبه وفنؤاده
ورجا زيارة طيفها في صدره وغرامه يابى لذيد رقباده
والله لولا الملك (رجار) الذى اردى لحبته عظيم وداده
ما عاف كاس الوجد يوم فراقها ورأى محيا المجد في ميلاده
يهتز للجدوى اهتزاز مهند يهتز في كفيه يوم جلاده
ويضى في الديجور صبح جبينه فيخال ضوء الشمس من حساده
ومطالع الجوزاء ارض خيامه والنجم والقمران من اجناده
واذا الامور تشابهت فلقصبه خط يبيض سودها بمداده
ابن القطاع - هو ابو القاسم على بن جعفر بن على السعدى ، المعروف
بابن القطاع ويرتفع نسبه الى ابراهيم بن الاغلب ، ولد في صقلية سنة ٤٣٣
(١٠٤١ م) وبها عاش وتعلم وتأدب ، وقرأ على ابن البر الصقلى واضرابه من

(١) الحيا ، المطر (٢) بنو الاصفر النصارى ، يقول البهاء زهير :
واقسم ما ذقت بنو الاحقر الكرى وما حلت الا باعلامه الصفر
(٣) الضنا ، المرض

رجال ذلك العصر وقال انشعر صبيبا ، وجمع من اخبار اهل صقلية من الشعراء والادباء الشيء الكثير فالف كتابه «الدرة الخطيرة» والمختار من شعراء الجزيرة» جمع فيه طائفة صالحة من شعراء صقلية ، وذكر البعض من جيد شعرهم ، وهاجر آخر ايامه الى بلد الكنانة ، فعاش الى آخر زمان الملك الافضل ، وقد الف كتاب « تاريخ صقلية » ذكره ونقل عنه ياقوت الحموي في معجم البلدان ؛ ولا نزال نجد في البحث عنه ؛ وتوفى في صفر سنة ٥١٥ .

ابو عبد الله محمد بن الحسن - المعزوف بابن الطرى ؛ كان ايام الدولة الاسلامية ، صاحب ديوان الرسائل والانشاء ، وكان من ذوى الفضل والمكانة فصيحاً بليغاً مترسلاً شاعراً ؛ وكان من اصحاب الباع الطويل الى جانب ذلك في علم الطب . قال يهجو منافقا :

يقرب قوله لك كل شيء وتطلبه فتبصره بعيدا
فما يرجو الصديق الوعد منه ولا يخشى العدو له وعيدا

الاصلاح الاسلامي - ولقد ترك لنا من ابيات ، صورة لما كانت عليه حالة المسلمين في صقلية يومئذ ، من الركض في ميدان البدع والمنكرات التي الصقت بالاسلام ظلما وعدوانا ، بدعوى انها من القربات الصوفية ؛ شأنها في ذلك شأن بقية العالم الاسلامي ، وما كان كرام الامة ومصلحو الاسلام يشنونه من غارة على تلك الاباطيل ، فيقول :

ليس التصوف لبس الصوف ترقه ولا بكاء اذا غنى المغنوننا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب ولا تغاش كان قد صرت مجنوننا
بل التصوف ان تصفو بلا كدر وتتبع الحق ، والقرآن ، والدينا
وان ترى خائفنا الله ، ذا ندم على ذنوبك طول الدهر محزوننا

ابو الفضل مشرف بن راشد - من شعراء امجادهم ، تغنى بذكر الجزيرة فاجاد ، مما يقوله مادحا احد كبار قوادها مفتتحا القصيد بالفضل حسب الطريقة المألوفة التقليدية :

سرت ورداء الليل اسحمت حالك (١) ولا سائس الا النجوم الشوابك
عشية اعشى (٢) الدمع انسان مقلتي ونمت (٣) باسرار الدموع السوابك
وطاف انكرى (٤) بالطرف وهو محجب كما طاف بالبيت المحجب ناسك
سرت موهنا ثم استناعت فودعت تجاذبها حقف (٥) من الرمل عاتك
به غصن بان اثمر البدر طالعا عليه قناع من دجأ الليل حالك
غريبة حسن يحسن انهجر عندها واعجب بها محبوبة وهى فاتك
واحور (٦) مكحول المدامع عافنى عن الصبر فاستولت على مهالك
رعى الله اكناف الجزيرة ان رعى سوائمها الغراء ريس (١) ناتك
يشيد اعاديه الحصون منيعة وهل منع الافشين ما شاد بابك
وانى لآتى الحق فيما اقوله وما انا فيما يعلم الله باتك (٢)
شهدت لقد حاز العلا يمينه غداة تجدها الردى وهو ضاحك
ليوث وغي اذكت خلال ضلوعها لهيبا انارته لهن الحسائك (٣)

عمار بن المنصور الكلبى - الامير ابو محمد عمار بن المنصور الكلبى من
امراء بنى الحسين الكلبين ملوك صقلية نشأ فى بيت الملك واتعزة والجاه ،
وانقطع للعلم والادب ، فكان من افاضل علماء زمانه المبرزين فى الفقه والحديث
له من اروع الشعر ، يصف بيته ويمجد قومه ، ويجمع بين شرف العلم
وهمة الابطال :

تقول لقد رايت رجال نجد وما ابصرت مثلك من يمان
الفت وقائع الفمرات حتى كانك من رءاهما فى امان
الى كم ذا الهجوم على المنايا وكم هذا التعرض للطعان
فقلت لها سمعت بكل شيء ولم اسمع بكلمى جبان

(١) السحمت ، اسود حالك شديد السواد (٢) اعشى ، اساءت بصره (٣) نمت فشيت واذاغت
(٤) الكرى ، النوم (٥) الحقف ، المعوج من الرمل والعاتك من الرمل ما تعقد وارتفع ؛ يعنى
بذلك ردفها ، كما قال الشاعر :
كيف اسلو وانت حقف وغصن وغزال لحظا وقد وردفها (٦) واحور ، الحور

ويقول في ابن عمه الامير ، وقد أساء اليه :

ظننتك سيفاً انتضيك (٤) على العدا وما خلت انى انتضيك على نفسى
وجثتك ابغى رفعة وكرامة فامسيت مقهوراً بقربك فى حبس
الرشيد احمد بن قاسم - من ابناء صقلية وكبار علمائها ، هجر وطنه بعد
توطد قوم النصارى فيه ، وجاب الآفاق حتى استقر بمصر واصبح ايام الملك
الافضل قاضى القضاة بها ، ولقد دخل يوماً على الافضل فوجد بين يديه دواة
من عاج محلاة بمرجان فانشد :

الين لداود الحديد بقدرة يقده فنى السرد كيف يريد
ولان لك المرجان وهو حجارة على انه صعب المرام شديد
مجبر بن محمد بن مجبر - كان من رجال الادب والعام بصقلية ، بها
ولد ونشأ وتثقف ، ثم هاجر منها وأستقر بمصر مع القاضى الرشيد الأنف
الذكر ، وكان زينة مجالس الادب ، وله من قصيد فى الغزل والمدح :
ليس أنفراق بمستطاع فدعيه من ذكر الوداع
وعديبه ما يحى به من طيب وصل واجتماع
يا وجه مكتمل البدو روحسن ما تحت القناع
يا اخت يوسف ان قلبى فى هواك هو الصواع
فلئن ظفرت به لـديـك وكنت سارقة المتاع
فلأخذنك من قبيـلك اخذ ملك واقتطاع
يا نفس حسبك لا تهابى بالخطوب ولا تراعى
يكفيك انك فى حمى من ليس يرضى ان تضاعى

بالفتح شدة بياض العين وسواد سوادها (١) راس الشيء ضبطه وغلبه والقوم اعتل عليهم ،
النك جذب الشيء تقبضه ثم تكسره يعنى : ان رعاها قهوى شديد قابض على زمام الامور
(٢) باتك ، قاطع السيف (٣) الحسايك جمع حسيكة اداة للحرب تصنع من حديد على شكل
الحسك المعروف (4) انتضيك ، اسلك .

مصعب بن محمد - ابو الغرب مصعب بن محمد ابن ابى الفرات القرشى، ولد ونشأ وتعلم فى صقلية ؛ اما ولادته فقد كانت سنة ٤٦٤ (١٠٥٤ م) ، وام بلاط المعتمد بن عباد ، ملك اشبيلية بالاندلس ، قال يمدحه ويذكر وطنه الضائع :

الى م اتبعنى للامانى الكواذب	وهذا طريق المجد بادی المذاهب
اهم ولى عزمان ، عزم مشرق	وأخر يغرى همتى بالمغارب
ولا بد لى ان اسأل العيش حاجة	يشق على اخفافها والغوارب
على لآمالى اضطراب مؤمل	ولكن على الاقدار نجح المطالب
فيا نفس لا تستعجبى الهون انه	وان خدعت اسبابه شر صاحب
ويا وطنى ان بنت عنى فائتى	سأوطن اكوار(١) العتاق النجائب
اذا كان اصلى من تراب فكلها	بلادى وكل العالمين اقاربى

عمر بن وحيق - شاعر رقيق الاحساس ، نشأ بصقلية وهجرها عند تلعب النرمان عليها ، وله من قصيد يذكر به مدينة بالرمة بعد ان زال عنها سلطان المسلمين :

نفسى تحن الى اهلى واوطانى	وهل رأيتم محبا غير حنان
كانوا بقلبى احياء وفى كبدى	نار تاجج من شجوى (٢) واحزانى
ما ضر حين نأوا لو ودعوا (٣) دنفا	رهن الحوادث فى كف الهوى عان (٤)
عز اصطبارى لرزه قد دهيت به	وبان عنى لوشك البين سلوانى

محمد بن الحسن بن على ، **ابوبكر الربيعى** - ولد بمدينة جرجنت ، وتفقه بها وتبحر فى العلوم العربية الاسلامية متما فى مدينة القيروان علمه ؛ وكان من خيار الرجال وافاضل المسلمين ، هاجر صقلية عند زوال سلطان المسلمين ، واستقر بمدينة الاسكندرية وبها توفى سنة ٥٣٧ .

محمد بن خراسان - يعرف بالنحوى الصقلى ؛ كان مولى لبنى الاغلب سمع من ابى جعفر النحاس مصنفاته ؛ وروى عن ابى بكر محمد ابن بدر القاضى ، ومروان بن عبد الملك بن بحر وروى عنه يوسف بن ابى حبيب بن

محمد وقد قضى رحمه الله كامل حياته في مجالس العلم ، وفي اوساط العلماء الى ان مات سنة (٣٨٦) عن ست وسبعين سنة .

محمد بن ابي فرج بن فرج - هو ابو عبد الله ، المالكي الكتاني ، المعروف بالذكي النحوي ، كان من كبار العلماء ، مبرزاً في علوم اللغة والنحو ، وسائر فنون الادب ؛ وكان مولعاً بالمغامرات والاسفار .

ساح جهات العراق وفارس وغزنة حتى وصل بلاد الهند وجرت له مفاوضات مع جماعة من الائمة ، آلت الى طعنه فيهم ، وبسط لسانه الى ما لا يليق بهم .

ما يدل على علو كعبه وسمو مكانته في العلم والنزاهة ، انه حضر املاء محمد بن منصور السمعاني ، فلم يصادق ابن ابي الفرج على ما املاه السمعاني وقال للناس ليس الامر كما املاه عليكم بل هو كذا وكذا فقال السمعاني رحمه الله اكتبوا كما قال فهو اعرف به ، فغيروا الكلمة وكتبوا كما قال الذكي ، فبعد ساعة قال الذكي ياسيدي انا سهوت والصواب ما املت انت فتمال السمعاني اذن غيروه وارجعوه كما كان ومات محمد بن ابي الفرج متسوحاً في ارض خراسان سنة ٥١٢ ؛ وقد كان مولده بصقلية سنة ٤٢٧ .

الشريف محمد بن احمد الادريسي - ليس هذا النابغ الفذ من ابناء صقلية بل هو مغربي قح ، من سلالة الاشراف الادريسيين ، مؤسس الدولة العلية الادريسية بالمغرب الاقصى ، لكنه قد سجل اسمه في التاريخ الصقلي ، بآثرته الخالدة التي فتح بها فتحة جديدة في وجه التمدن العالمي ، وفجر بها ينبوعاً حياً لعلم الجغرافيا ، وهو يعتبر حقاً اول اساطينه ، وبالف سيرة منتهاه في عصره . ولد الشريف الادريسي بمدينة سبته سنة (٤٩٤ هـ) (١١٠٠ م) وابتدأ تعلمه ببلاد المغرب الاقصى ، ثم خرج سائراً في الارض راكضاً وراء التعمق في العلم ؛ فام مدينة قرطبة كعبة القصاد ومنبع الهدى والنور في القرون الوسطى ؛

(١) اكوار جمع كور - الرجل المتأق من الخيل نجيب يعني انه يوطن سروج الخيل النجيب (٢) شجوى ، حزنى واحزانى مرادف (٣) دلف ؛ مريض مرضاً مزمناً - (٤) عانى ، اسير

وهناك اقبل على علم الجغرافيا والنجوم والطب ؛ فلما استكمل معلوماته خرج سائحاً يكتشف البلاد ويطلع على الامصار ، فزار اسبانيا والبرتغال وايطاليا وسواحل فرنسا وبلاد الانكليز وبلاد اليونان وبلاد الشرق التركي والعربي والرومي .

ادى به المطاف يومئذ الى جزيرة صقلية ؛ ايام ملكها الكبير رجار الثانى ، فاتصل به واكرم مثواه ، واختصه لنفسه ، وبذل له اقصى ما يبذله ملك حكيم عالم ، لرجل فى مثل قيمة الادريسي ؛ فاستقر الشريف فى صقلية ، واصبح درة لامعة فى بلاط الملك النرمانى .

هناك اخذ الادريسي طوعاً لاشارة الملك رجار ينجز مآثرته الكبيرة خريطة العالم ، كما كان معروفاً يومئذ .

نقشها على دائرة من الفضة وزنها ١٨٠٠ اوقية ؛ وقسم الدنيا المعروفة اذذاك الى سبعة اقاليم متوازية ؛ يبتدىء الاقليم عند خط الاستواء تقريبا وينتهى الاقليم السابع عند المنجم الشمالى ، الذى يدعوه بحر الظلمات (١) . ولكى يبين ما نقشه فى الخريطة الف كتابه الجليل الشان : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ؛ وقد قسمه الى سبعة ابواب ؛ حسب تقسيم الاقاليم ، وكل باب مقسم على عشرة اقسام يقول مسيو لوريش ، فى دائرة المعارف الفرنسية الكبرى « هو اكمل كتاب جغرافى تركه لنا العرب ، وان ما دققه الادريسي من تحديد المسافات ، وما حققه من دقائق الوصف ، يجعل من هذا الكتاب وثيقة نفيسة لعلم الجغرافيا فى مستهل القرون الوسطى . » وقد اتم تاليفه سنة ٥٤٥ (١١٥٠) .

ويقول عنه حاجى خليفة فى كشف الظنون « اورد اوصاف الممالك والبلاد مستوفيا وهى المسافات بالميل والفرسخ لكنه لم يذكر الاطوال والعروض » . وقد ترجمت قطع كبيرة من كتاب الادريسي ، لمختلف لغات العالم ؛ وكادت كل بلاد تترجم ما يتعلق بها من نزهة المشتاق ، اما بالفرنسية فقد ترجمه برمه مسيو جويير ، ونشره فى جزاين ، سنة ١٦١٩ .

وله مع ذلك كتاب : الجامع لصفات اشتهت النباتات .

وتوفى الشريف الادريسي في صقلية ودفن ببالرمة بعد ان ادى للعالم
خدمة تذكرها الاجيال ، خلال سنة ٥٦٢ هـ : (١١٦٦)

جمهرة من العلماء والكتاب والشعراء

عند جسيم ممن اشتهر في صقلية بالعلم والادب ، وتبرز في الشعر ،
وركض في ميدان النفع والتأليف ، لا نستطيع أن نترجم لهم ترجمة وافية ،
لان ذلك ربما اخرجنا عن دائرة الايجاز التي حددناها لانفسنا في هذا البحث ؛
ولكننا لا نستطيع كذلك ان نغفل اسماءهم ، ونترك ذكرهم ، وهم ممن شادوا
صرح المدنية الاسلامية في صقلية ورفعوا عاليًا ذكر هذا القطر الذي جعلوه
منبع نور وهدى ، ومركز حضارة ومدنية ، فلنذكر اسماءهم في ايجاز
واختصار ؛ الى ان تسمح الظروف لي او لغيري بتأليف خاص عن تراجم وآثار
علماء وادباء صقلية الاعلام :

ابو الحسن احمد ابن الحسن الكلبي - من امراء الكلبيين من عائلة بنى
الحسن كان اديبا فاضلا ، وكان ميالا للشعر له فيه باع وابداع ، يقول :

شئت البيض حين شنين شيبى وتأباني التي ملكت فؤادى
وهل يختار ذو عقل ولب بياض المقلتين على السواد

ابو القاسم عبد الله ابن سليمان الكلبي - من الامراء الكلبيين كذلك ، كان
مثل بقية امراء تلك العائلة الزكية ، من رجال العلم والفن والادب ، انما ادركته
حرفة الملوك ، فكان اكثر قوله فى الغزل والنسيب والصهبا ، يقول :

كفى حزنا على البلوى مقامى اخص عداك دونك بالسلام
فجد بالنوم اذ منعوك عنى لعل ان ازورك فى المنام
رجوت بمقلتيك شفاء قلبى وهل يشفى السقيم من السقام
وما ابقى الحمام على عطفها ولكني خفيت عن الحمام

(١) اعادها المجمع العلمى العراقى الى اصلها العربى سنة ١٩٥٩ ، ونشرها (٢) ميتر x ٩
وصحح بها الخريطة التى نشرها ميلر ، بما جمعه من خرائط الادريسي .

واذا ما جاريت الادباء فى ابثائهم ، قلت ان قوله هذا ماخوذ عن ابى
الطيب المتنبى .

كفى بجسمى نحولا انتى رجل لولا مخاطبتى اياك لم ترنى
ثم يقول من خمرة وقد ابدع :
ما ان سمعت ولا زابت بمثلها نار على ايدى السقات تدار
وجلوتها غلس الظلام فراعنى ان قام فى غلس الظلام نهار
محمد بن عيسى بن عبد المنعم - من علماء علم الهندسة ، وله فى علم
النجوم بساع طويل وقد ذكر بهاذين العلمين ، خاصة بكتاب تاريخ الحكماء
للخطيبى .

على بن حبيب ابو الحسن - يقال له اللغوى الصقلى ؛ كان من علماء اللغة
المعدودين واكابر البلغاء المبرزين ؛ وكان ممن يشار اليهم بالبنان ، فى نقد
الشعر وتحليل معانيه .

عمر بن خلف بن مكى - من اكبر علماء عصره ، وافاضل المبرزين فى
مصره ، جمع الى علم الدين علوم الادب ، فكان من المتقدمين فى كليهما ؛ وقد
ادى به علمه الى تقدمه لمنصب قضاء حضرة تونس فوليه ، وروى انه كان خطيبا
مفوها بليفا يخطب كل جمعة خطبة من انشائه تفوق خطب ابن نباته حسبا
يقول الشيبانى فى انباء الرواة ، وقد كان آخر قضاة المسلمين بصقلية
الاسلامية خرج منها مع آخر امرائها ابن الحواس عند الانجلاء النهائى وتغلب
النرمان .

ظاهر بن عمر بن الرقبانى - من علماء صقلية الاعلام فى اللغة والادب
وكلام العرب ؛ قال الشيبانى انه لم يكن فى زمانه اعلم منه بلغة العرب وكلامها
ونثرها ونظمها ، وكان بينا مقدما ، جليلا معظما ، قصده العلماء من كل جهة
الى صقلية فلقوا منه بحرا طاميا .

عمر بن على بن عمر السرقوسى - من كبار علماء العربية بصقلية له
تأليف فى القراءات والنحو والعروض ، وقد استوطن مصر ، وكانت له حلقة

للقراء ، يؤمها الطلاب .

محمد بن علي بن الحسن بن عبد البر - التميمي القرشي الصقلي ، نبغ في موطنه ، ثم رحل لأتمام التفقه في الدين ومسلء الوطاب من علوم العربية والادب ، وعاد الى الجزيرة بحرا من العلم والفضل والهدى ؛ واستقر في مدينة مازرة وصحب اميرها الذي قر به واكرم مثواه وكان امير مازرة يومئذ ابن مذكور ، على غاية من الزهد والورع وانتقوى ، وكان محمد موجودا الى سنة ٤٠٠ (١٠٥٩ م) وقد انتفع به وتخرج عليه جمهور كبير من العلماء الجلة ، ومن اشهر تلاميذه ابن القطاع الانف الذكر والترجمة .

يوسف ابن احمد ابو يعقوب الدباغ - من علماء العربية الاعلام بصقلية كان حافظا لكتب الاقدمين ، وله شعر جيد حسن .

ابو محمد اللمعة - كان معدودا من كبار الشعراء ؛ وكان من اكابر المعلمين ورؤسائهم بصقلية نخرج عليه جمهور كبير من الادباء .

سليمان بن محمد الصقلي - قال عنه صاحب مسالك الابصار ، صقل الفهم الجلى مرآته ، وضور في حياة المصباح المضىء ، مشكاته ، وداوى به سقم الادب حتى ازال شكاته ، وكان من اهل الادب والشعر وحافظا لكلام العرب ؛ وتقدم بفضل ادبه عند الكبراء .

بعض مؤلفات الصقليين

مما ورد ذكره في كتاب كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون للعلامة المحقق المدقق مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة التركي :

الاشتراك اللغوى والاستنباط المعنوى : للشيخ محمد بن عبد الله بن ظفر المتوفى سنة ٥٦٨ (سبقت ترجمته) .

اعراب القرآن - لابي طاهر اسماعيل بن خلف الصقلي المتوفى سنة ٤٥٥ ؛ في تسع مجلدات .

اعلام النبوة : للشيخ ابن ظفر الانف الذكر

الافعال وتصاريقها : للشيخ ابي القاسم ابن القطاع المتوفى سنة ٥١٥ وقد
ذكر ابن خلكان ان تاليفه اجود من افعال ابن القوطية .
- انباء نجباء الابناء ؛ للشيخ ابن ظفر .
تاريخ صقلية لابن القطاع السالف الذكر .
الدرة الخطيرة ، والمختار من شعراء الجزيرة ؛ لابن القطاع ايضا ؛ اورد فيه
ذكر مائة وسبعين شاعرا ، من شعراء صقلية .
تثقيف اللسان ؛ لابن القطاع ايضا
تجويد ، لبغة المزيدي ؛ كتاب فى القراءات السبع ، للشيخ ابي القاسم عبد
الرحمن ابن ابي بكر بن الفحام الصقلى ، المتوفى بالاسكندرية سنة ٥١٦
تفسير القرآن لابن ظفر
تهذيب المطالب ، لعبد الحق الصقلى ؛
المعلم ، للامام المازرى الشهير ، المتوفى سنة ٥٣٦
سلوان المطاع ، فى عدوان الاتباع ، لابن ظفر ،
الشافى ، فى علم القوافى ، لابن القطاع ؛
طبقات الشعراء ، لابن القطاع ؛
الملح العصرية ، له ايضا ؛
المختار فى النظم والنثر ، لافاضل اهل العصر ، تأليف ابن بشرون الصقلى ؛
كتاب المشى والسير ، لابن القطاع ؛
التنقيب ، على ما فى المقامات من غريب ، لابن ظفر ؛
الروضة الانيقة ، لىحى ابن عبد الرحمن بن عبد المنعم
ينبوغ الحياة فى التفسير ، لابن ظفر ؛

عبد الجبار بن حمديس

هو رابع اربعة اعلام ذاع صيتهم في كل الاصقاع والبقاع ؛ وتردد ولا يزال اسمهم يتردد دوما واستمرارا ، كلما ذكر العلم والادب والشعر هم : المازري وابن الطقاع ، وابن ظفر وابن ظفر وابن حمديس ؛ وان صقلية لو لم تنجب من ابنائها الكرام البررة الا هؤلاء الاربعة لكفاها ذلك فخرا على مر الايام ، ولبقى بهم ذكرها حيا خالدا لا تعتدى عليه عوادي الزمان .

كان ابن حمديس علما من اعلام الشعر ؛ وفذا من افذاذ البيان . وكان روحا سامية ، ونفسا ابية ، وفيضا نورانيا يشع بنفسه كالراديوم ، كان يمثل اجلى تمثيل وطنه صقلية ؛ في عبثه ترى عبثها ، وفي لهوه ترى لهوها ، وفي حماسه ترى حماسها ، وفي اوصافه ترى اوصافها ذات الالوان الزاهية الحلابة ، وفي تلديداه باهلها ترى وتسمع لسانها العاقل يندد بابنائها الذين اضاعوها ؛ وفي رثائه لها ، وبكائه عليها ، يخيل لك انك تسمعها تبكي وتنتحب ؛ تندب سلطانا ضائعا ، وملكا مفقودا .

بل ان شعر ابن حمديس في مجموعته ، يعد ملحمة من ابداع ما اخرج الشعراء للناس من الملاحم .

ولد ابن حمديس في مدينة سرقوسة من صقلية سنة ٤٤٦ (١٠٥٥ م) في وقت كان حكم المسلمين فيه يسلم الروح ؛ وقد فتح عينيه النافذتين فرأى مصائب قومه وفتنهم وتغلب الافرنج عليهم ؛ وصورها لنا كما قلت ، فابعد تصويرها ، ثم نزح عنها اذ لم يستطع البقاء تحت حكم النصارى ؛ فجاب بلاد المغرب والاندلس واتصل بملوكها وامرائها ؛ ومدح ابن علناس في بجاية ؛ ويحيى ابن تميم ابن المعز بن باديس في المهديّة والمعتمد بن عباد ملك اشبيلية الشاعر وغيرهم وكان اينما حل وحيثما ارتحل يترنم بذكر صقلية ويزفر حار الرفرات كأنه يستحث المسلمين عامتهم وخاصتهم امراءهم وسوقتهم على الاخذ بيدها واستخلاصها من يد الاعداء الغاصب الى ان هزم ، وجاوز الثمانين واصبح يقول :

اسلمنى الدهر للرزايا وغير الحادثات نفسى
 وكنت امشى ونست اعيىا فصرت اعيىا ولست امشى
 كائننى اذ كبرت نسر يطعمه فرخه بعش
 سألته بعض الادباء عن تشبيهه نفسه بالنسر ، فقال ليس فى الحيوان من
 يطعمه ولده اذا هرم الا النسر »

واصبح يسير الهوينى متكئا على عصاه :

ولى عصا من طريق الظم احملها بها اقدم فى تاخيرها قدمى
 كانها وهى فى كفى اهش بها على الثمانين عاما لا على غنمى
 كائننى قوس رام وهى لى وتر ارمى عليها زمان الشيب والهرم
 ومات رحمه الله كئيب النفس ، مجروح الفؤاد ، سنة ٢٧ د (١) ؛ وانى
 لذاكر لك ، فى خاتمة هذا الباب بل فى خاتمة هذا الكتاب ، شيئا من ملاحم
 ابن حمديس كانها تلخيص لجميع ما مر فى هذا السفر ، او استدراك لما لم
 يتوصل هذا القلم لبسطه وتسجيله عن صقلية الاسلامية .

يقول فى قصيد رائع ؛ يذكر شبابه وشباب صقلية

قضت فى انصبا النفس اوطارها وابلفها الشيب انذارها
 وما غرس الدهر فى تربة غراسا ولم يجن اثمارها
 نعم واجيلت قداح الهوى عليها فقسمن اعشارها
 فافنيت فى الحسب الاتها واعددت للسلم اوزارها
 كميتا لها منرح بالفتى اذا حث باللهو ادوارها
 مجالس الشرب واللهو :

تناولها الكوب من دنها فتحسبه كان مضارها
 وساقية زررت كفها على عنق الضبى ازرارها
 تدير بياقوتة درة فتغمس فى مائها نارها

(١) بجاية ، وهو الاصح . وقيل بجزيرة ميورقة .

وفتيان صدق كزهر النجـ يوم كرام النجادة أحرارها
يدرون راحا تفيض الكـ ووش على ظلم الليل انوارها
كان لها من نسيج الحباب شباكا يعقل اطيـارها

راهبة دير ؛ او مديرة ماخور ؟ :

وراهبة اغلقت ديرها فكنا مع الليل زوارها
هدانا اليها شذى قهوة تذيع لانفك اسرارها
كان ترائجه عندها دنان مضمنة قارها
طرحت بميزانها درهمي فاجرت من الدن دينارها
خطبنا بنات لها اربعا كيفترع اللهو ابكارها
من اللاء اعمار زهر النجوم تكاد تطاول اعمارها
تريك عرائسها ايديا طولا تصافح اخصارها

خير بنت الحنان

تفرس في شمها طيبها مجيد الفراسة فاخـتارها
فتى دارس الكاس حتى درا عصير الخـمور واعـضارها
يعد لما شئت من قهوة سنيها وريـعرف خـمارها

مجلس الطرب :

وعدنا الى هالة اطلعت على قضب البان اقمارها
نفى ملك الهم عنا الهموم تشور فيقتل ثـسوارها
وقد سكنت حركات الاسى قيان تحرك اوتارها
فهذي تعانق عودا لها وتلك تقبل مزمـارها
وراقصة لقطت رجلها حساب يد ثـقرت طارها
وقصب من الشمع مصفرة تريـك من النار نوارها
كان لها عمسدا صففت وقد وزن العدل اقطارها
تقل الدياجي على هامها وتهتك بالنور استارها
كانا تسلط آجالها عليها فتحقق اعمارها

الحنين لصقلية :

ذكرت صقلية والاسى
ومنزلة المتصايبى خلت
فان كنت اخرجت من جنة
ولولا ملوحة ماء البكاء
يهيج فى النفس تذكراها
وكان بنو الظرف عمارها
فانى احدث اخبارها
لحلت دموعى انهارها

التوبة والندم :

ضحكت ابن عشرين من صبوة
فلا تعظمى لديك الذنور
بكيت ابن ستين اوزارها
ب اذا كان ربك غفارها

* * *

ثم يبكى صقلية بكاء مرأ ، كآله قد ضاقت به الارض على سعتها بعدها
وكان ما لاقاه من عطف الملوك والامراء ، ورعاية اكابر القوم لا يعد شيئا
مدكورا امام « جنته المفقودة » فيقول :

فبت من الليل فى ظلمة
ويا ريح اما مریت (١) الحيا
فسوقى الى جمام (٢) الغيوم
ويسقى بكثائى ربيع الصبا
ولا تعطشى طللا (١) بالحمى
فلا تعجبنى فمغانى الهوى
ولى عندها مهجة صبة
ديار تمشت اليها الخطوب
صحت بها فى الغياض (٤) الاسود
وراءك يا بحر لى جنة
فيا غرة انصبح هاتى الضياء
ورويت منه الربوع الظماء
لاملاها لك بالدمع ماء
فما زال فى المحل يسقى البكاء
تدانى على مزنة او تناء (٢)
يطيب طيب تراها انهواء
تزودت فى الجسم منها ذماء
كما تتمشى الذئاب الضراء (٣)
وزرت بها فى الكناس الظباء (٥)
لبست النعيم بها لا الشقاء

(٢) جمام جمع جم وهو الكثير من كل شيء - يريد هنا الكثير من الغيوم .
(١) مرى الناقة مسح ضرعها ، يريد الشاعر من الريح اما ان تعلب المطر الخ .

إذا أنا طالعت منها صباحا تعرضت من دونها لى مساء
فلو اننى كنت اعطى المنى اذا منع البحر منها اللقاء
ركبت الهلال به زورقا الى ان اعانق فيها ذكاء (٦)

* * *

ويذكر فى ديار الغربية ، اسود العرين ، ابطال صقلية الذين لم يتركوا
السيف حتى فارقهم النفس الاخير ؛ فان كانوا فيما بينهم ذئابا ، فقد كانوا
تجاه الاعداء اسودا ؛ فيقول من قصيد طوويل :

ويا رب نبت تعتريه مرارة وقد كان يسقى عذب ماء السحائب
علمت بتجريبى امورا جهلتها وقد تجهل الاشياء قبل التجارب
ومن ظن امواه الزواجر عذبة قضى بخلاف انظن عند المشارب
ركبت الهوى فى رحل كل حبيسة (١) تواصل اسبابى بقطع السباب
قلاص (٢) حناهن الهزال كانها حنيات نبع (٣) فى اكف جواذب
اذا وردت فى زرقة الماء اعينا وقعن على ارجائها كالحواجب
بصادق عزم فى الاماني يحيلنى على امل من همة النفس كاذب
ولا سكن الا مناجاة فكرة كاني بها مستحضر كل غائب
قلما رأيت الناس يرهب شرهم تجنبتهم واخترت وحدة راهب
احتى خيال كنت احظى بوصله له فى انكرى عن مضجعى صد غائب
فغبر :

فهل حال من شكله عليه تغير نحافة جسمى وابيضاض ذوائبى
اذا عد من غاب الشهور لغربة عدت لها الاحقاف (٤) فوق الحقائب
ولى فى سماء الشرق مطلع كوكب جلا من طلوعى بين زهر الكواكب
متى تسمع الجوزاء فى الجو منطقى تصح من معانى الارتجال الغرائب

(١) الطل ؛ الشاخص من آثار الدور ؛ (٢) التناهى ، البعد ؛ يعنى ترانى على مقربة من منزلة
و بعد منها ؛ (٣) الضراء ، جمع ضرر ، والضارى من الوحوش الذى تعود أكل لحم الصيد ودمه
واولع به ؛ (٤) الفياض ، جمع غيضة ، الائمة مجتمع الشجر فى مفيض الماء (٥) الكناس
بالكسر مستتر الظبي من الشجر ؛ (٦) الذكاء ، بالضم ، الشمس

اخوان الانس والصفاء :

وكم لي من صفو وود محافظ
اخى صبوة نادمته الراح والصبأ
معتقة دع ذكر احتباب عمرها
اذا خاض منها الماء فى مضمحل الحشا
الىالى لم يذهب الا لثالثا
لذى العيب من اعدائه غير عائب
له من يد الايام غير سوالب
فقد ملئت منها انامل حاسب
بدا الدر منها بين طاف وراسب
نظمت عقودا للسنين الذواهب

مصيبة صقلية بين اعداء الخارج واعداء الداخل :

ولو ان ارضى حرة لاتبعتهما
ولكن ارضى كيف لي ابفكاكها
احين تغانى (١) اهلها طوع فتنة
ولم يرحم الارحام منهم اقارب
وصف ابطال صقلية فى الجهاد
بعزم يعيد السير ضربة لازب
من الاسر فى ايدى العلوج الغواصب
يضرهم فيها ناره كل حاطب
تروى سيوفنا من دماء الاقارب

وكان لهم حذب (٢) الاصابع لم يكن
انس اذا ابصرتهم فى كريمة
اذا خالدوا فى مازق الحرب جردوا
لهم يوم طعن السمر ايد مبيحة
تخب (٤) بهم قب يطيل صهيلها
اذا ما ادارتها لذكر حسبتها
اذا سكتوا فى غمرة الموت انطقوا
ترى شعل النيران فى خلع (٥) الضبا
اولئك قبوم لا يخاف انحرافهم
اذا ضل قوم عن سبيل الهوى اهتدوا
رواجب (٣) منها حاتيات رواجب
رضيت من الآساد عن كل غاصب
صواعق من ايديهم فى سحائب
كلا الاسد فى كراتهم للشعالب
بارض اعدائهم نباح النوادب
تدور على اتهامات فوق الكواكب
على البيض بيض المرهفات القواضب
تذيق المنايا من اكف المواهب
عن الموت ان حامت اسود الكتائب
واى ضلال للنجوم الشواقب ؟

(١) الحبسة ، من الخيل المعبوسة فى سبيل الله ، هذا هو الاصل (٢) قلاص جمع قلائص وهذا جمع قلووس ، وهى الناقة الطويلة القوائم (٣) نبع ، شجر للمسى وللشهام (٤) الاحتاف ، جمع حقف وهو الموج من الرمل ، كما تقدم ، والحقائب جمع حقب وهو مدة ثمانين سنة وقيل غير ذلك .

وكم فيهم من صادق الناس مفكر إذا كر في الاقدام لا في العواقب
غزواتهم في بلاد ايطاليا :

إذا ما غزوا في الروم كان دخولهم بطون الحلايا (١) في متون السلاهب
يموتون موت العز في حومة الوغى إذا مات اهل الجبن بين الكواعب
حشوا من عجاجات الجهاد وسائدا أعدت لهم في الدفن تحت المناكب
فعادوا. افول الشهب في حفر البلا وابقوا على اندنيا سواد الغياهب
التوجع والحنن :

امثلها في خاطري كل ساعة ومرت لها قطع الدموع السواكب
احن حنين البنيت للموطن الذي مغاني غوانيه انيه جواذبي
ومن سار عن ارض ثوى قلبه بها تمنى له بالجسم اوبى آيب
ثم استمع اليه يشدو بذكر وطنه وقومه فيرفع ذكر صقلية الى السماك
الاعزل ويسموا باهلها الى منزلة الابطال :

رجال الحرب الصقليون :

رعوا ورق البيض الذي زهره دم لهم ورق عن زهرة الروض تبسم
جبابرة في الروع تعدو جيادهم بهم فوقها رشح الوشيح (٢) المقوم
تنوء (٣) بهم في ذبل الخط انجم سمحائبها تقع وامطارها دم
ترحل من آجارها (١) الاسد خيفة اذا نزلوا للرعى فيها وخيموا
تري كل جو من قناهم وتقعهم يكوكب ان ساروا اليه ويعتم
فصاح غداة الحرب عز سكوتهم واتسنة الاغماد عنهم تترجم
كان بايديهم اذا ضربوا الطلا (٢) عزائمهم لو انها تتجسم

(١) تغاني اهلها ، استغنى بعضهم عن بعض (٢) حذبه بالسيف - ضربه او قطع اللحم
دون العظم (٣) الرواجب - المفصل اصول الاصابع ؛ حاتيات - حثيته خطته واحكمته وفثلته
يعنى انها - بعد قطع الاصابع - لم يكن في امكانها ان يحكم بعضها بعضا (٤) تخب ، تسرع ،
قب اي خيل ضامرة البطون (٥) الخلج - بالفتح الفساد ؛ والضبا يقال ضبته النار غيرته
وشونه ؛ والضبابى الرماد ولعله يريد انك ترى شعل النيران في رماد فاسد من جثثهم وامتعهم
فليحرر .

اذا ما استوى فعل المتأيا وفعلمهم
 اعارب ابقى فى تباريح (٣) حبههم
 صحتهم فى موحش الارض مقفر
 سقا الله عنا عذبة (٧) الدمع ان بك
 بارض يميت الهم عنك سرورها
 وكم لى بها من خل صدق مساعد
 يفيض على ايدى الكماة سماحة
 اذا فرت الابطال كسر وسفيه
 يمج به بحر كان حبابه (١٠)
 ونحن بنو الثغر الذين ثغورهم
 ومن حلب الوداج (١) يغذى فطيننا
 لنا عجز الجيش اللها (٢) وصدرة
 يضاعف ان عد الفوارس عدنا
 نؤخر للاقدام فى كل ساعة
 فان كان للحرب العوان معول
 ونسج يوم الروح من نسج جردنا (٤)
 فمن كل صنديد على اعوجية
 اسطول المسلمين الصقل :

وطارئة بالدمر ملء عنانها لها السبق فى شأو البروق مسلم

(١) بطون الخلايا ، الخلايا جمع خلية ، ما يصل فيه التحل ؛ والسلاية من الخيل ، الجسيمة ؛
 والسلاية الجريئة . ولم يتضح لنا ما يريده الشاعر هنا ، ولعله يريد انهم اذا ما غزوا فى
 الروم كان دخولهم فيهم دخول الزنابير فى بطون الخيل فليحمر (٢) الوشج الاشتباك والوشج
 فى الاصل شجرة تصنع منها الرماح وتطلق على الرماح ذاتها . (٣) تاء به الحمل ينوء انقله
 واماله . ببل الرماح الدقيقة ؛ الخط مرفا للسفن بالبحرين حيث تباع الرماح - يعنى تشغل بهم
 من حمل الرماح الدقيقة اسنة الرماح الحديدية اللامعة كالنجوم ، النقع النبار

رمينا عداة الدين فى عقر دارهم بمادية فى غمرة الموت تقحم
 تعموم بها بين العلوج مظلة كما خلقت فتح على الجو حوم (٧)
 فمن حامل من غير فحل وفرخها لدى وضعها فى ساحل الروم صيلم (٨)
 ومنسوبة للحرب منشاة لنا طوائر بالآساد فى الماء عوم
 كان قسيا فى مؤاخرها التى يفوق منها فى المقادم اسهم
 وترسل نبطا يركب الماء محرقا كمهل (١) به تشوى الوجوه جهنم
 مدائن تغزو للعلوج مدائننا فتفتح قسرا بالبيوف وتغنم
 ومنتخذي قمص الحديد ملايسا اذا نكل (٢) الابطال فى الحرب اقدموا
 كانهم خاضوا سرايا بقيعة ترى للثريا فيه عيننا عليهم
 صبرنا لهم صبر الكرام ولم يسغ لنا الشهد الا بعد ما ساغ علقم (٣)
 فغادر افواها بهم هبر ضربنا بواحدنا من مرهفات يثلم
 وان بايدينا الحديد لناطق اذا ما غدا فى غيرها وهو ابكم

الراية الحمراء :

واجنحة الرايات فينا خوافق كان دم الابطال فيهن عديم (٤)
 امن ابرق بالدار او مض بارق كطائش كف بالبنان يسلم
 مرى من عيون ساهرات مدامعا وكحلها بالنور والليل مظلم

(١) آجارها جمع وجار ، حجر الاسد يعنى نرحل من اججارها (٢) الطلا ، بالكسر الاعناق
 او اصولها (٣) تباريح الحب نوحجه (٤) اعوج ، فرس شهير لبنى حلال وتنسب اليه الاعوججات
 (٥) اوجف الفرس ، جعله يعدو ؛ (٦) شدقم : فحل للنعمان ومنه الشدقييات من الابل يعنى
 ان خيلهم العتاق وابلهم الفحلة ن جودتها لا تسنحق تسييرها واسراعها بل تسيير وعدو وحدها ؛
 أعلم انه لقرار الابطال وكره على العدو يختص به وحده فيبقى لسيفه حكم الحل ولدم العدو فيه
 (٧) عذبنه الدمع ، مانعته وناركته ، شحيحته ؛ (٨) متبم ، مبد مذلل بالحب ؛ (٩) يعنى والله
 الحرم لا حق لاحد دونه ؛ (١٠) الحباب بالفتح ، ما يعلو الماء من الفقاقيع ؛ (١١) دلاص ، يقال
 درغ دلاص أى ملساء لينة ؛ سردها ، نسجها

الحنين لصقلية البائسة الاسيرة :

ويا عجباً من روضة زار طيفها جفونا من التهويم فيها توهم
أثم بساقى عبرة حد قفرة بمنسم حرف كلما بل يلطم
واهدى اريجاً من شذاها ودونها بمقتحم الاهوال شهب وحضرم (٥)
وللصبح نور فى الظلام كما اكتسى حميماً (٦) بطول الركض فى انصد ادهم
إحن الى ارضى التى فى ترابها مفاصل من اهلى بلين واعظم
كما حن فى قيد الدجى بمضلة (٧) الى وطن عود من الشوق يرزم
وقد صفرت (٨) كفاى من ريق الصبا ومنى ملآن بذكر الصبا فسم

* * *

أليس هذا الشاعر الفحل ، جديراً بما قاله فيه ابن بسام : « هو شاعر
ماهر يقرطس اغراض المعانى البديعة ، ويعبر عنها بالالفاظ النفيسة الرفيعة ،
ويتصرف فى التشبيه المصيب ، ويفوص فى بحر الكلام على در المعنى الغريب » ؟

رثاء صقلية

واخيراً بلغ بابن حمديس الياس من انقاذ صقلية ، مبلغاً جعله يعلن عن
ذلك الياس اعلاناً فيه حرقة الموجدوع ، وزفرة الملتاع فيقول ، ونحن نجعل من
قوله هذا خاتمة هذا الباب ، ونهاية هذا الكتاب :

(١) الوداج عروق بالعنق - يعنى من دم عروق اعناق الاعداء يغذى فطيمنا حال فطامه وهو
فى أحضان الحرب (٢) اللهام بالضم العظيم من الجيش (٣) يعنى ائنا نؤخر لاجل الاقدام فى كل
ساعة ما دام التقدم يفضى الى الحتف المحقق ؛ (٤) الاجراد الفرس الفصير الشعر رقيقه والسباق،
(٥) ملأ ، جمع ملأة - الربطة وهى من الثوب ما يكون من نسج واحد غير ذى لفقتين او كل
ثوب لبن رفبق ؛ (٦) القشاعم جمع قشعم ، القشعم الاسد ، اى قشعم الموت ؛ (٧) كان شاعرنا
المفلى ، قد اطلع على الغيب فوصف فى هذه الابيات الثلاثة الطائرات المدمرة الحديثة
(٨) الصفلم . الداهية ، والامر الشديد

اعاذل دعنى اطلق العبرة التى
 اود لارضى ان تعود لقومها
 وعزيت فيها النفس لما رايتها
 عهدت لها من اجمل الصبر حابسا
 فساءت ظنوني ثم اصبحت يائسا
 تكابد داء قاتل السم ناحسا

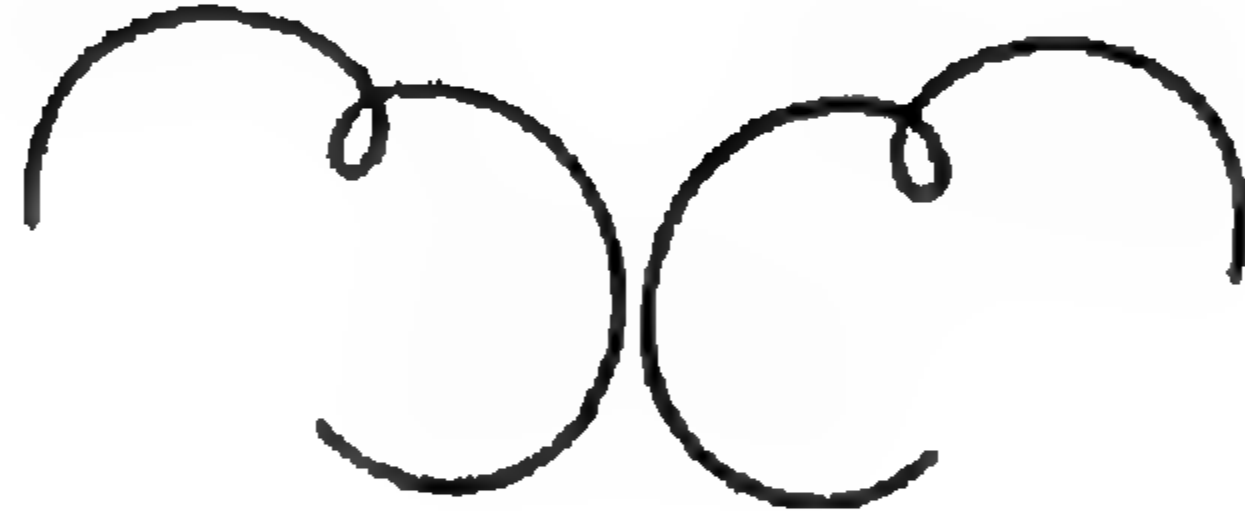
* * *

صقلية كان الزمان بلادها
 فكم اعين بالخراف امست سواها
 ارى بلدى قد سامه الروم ذلة
 عدمت اسودا منهم عريية
 اما ملئت رعبا « قلوورية » بهم
 وساقوا بايدي السبي بيضا حواسرا (١)
 افى « قريانا » رقة يعمرونها
 ومن عجب ان الشياطين صيرت
 واضحت لهم « سرقوسة » دار منعة
 مشوا فى بلاد اهلها تحت ارضها
 ولو شققت تلك القبور لخرجت
 ولكن رايت الغيل (٢) ان غاب ليثه
 وكانت على اهل الزمان محاربا
 وكانت بطيب الامن عنهم نواعسا
 وكان بقومى عزه متقاعسا (٣)
 ترى بين ايديها العلوج فرائسا
 واردوا بطاريقا بها واشاوسا (٤)
 تخال عليهم الشعور برانسا
 واسيبا من الاسلام اصبح دارسا
 بروج النجوم المحرقات مجالسا
 يزورون بالدربين فيها النواوسا (٥)
 وما ماريبوا منهم ابيا ممارسا
 انيهم من الاجداث اسدا عوايسا
 قبختر فى ارجائه الذئب مائسا

(١) المهمل بضم الميم ، القطران الرقيق وما ذاب من صفر او حديد ؛ (٢) اذا نكل نكص وجبن ؛
 (٣) العلقم ، المنظل ؛ (٤) العندم ، دم الاخوين ؛ (٥) حضرم القوس ، شد توتيرها (٦) حميما
 عرفا ومنه سمي الحمام لانه يعرق (٧) مضلة ارض يفضل فيها ؛ - عود المسن من الابل والشاء ؛
 - يرزم ، رزم ، البعير يرزم لا يقدر ان يقوم من هزال .

(٨) صفرت ، خلعت ؛ ريق الصبا ، لعانه - (٩) متقاعسا ، ثابتا منيعا ؛ (١٠) اشاوسا ، جمع
 اشوس ، الشديد الجريء فى القتال .

تم الكتاب
والحمد لله رب العالمين



(١) حواسر ، منكشفات (٢) النواويس ، جمع ناووس ، مقبرة النصارى (٣) الخيل ، الاجمة
موضع الاسد .

اهم المصادر العربية



كتاب العبر ، وديوان المبتدا والخبر	لابن خلدون
كامل التواريخ	لابن الاثير
اتحاف اهل الزمان	احمد بن ابي الضياف
مروج الذهب	للمسعودي
الامامة والسياسة	لابن قتيبة
نهاية الارب	للتويري
الفارسية	لابن قنفذ
تقويم التواريخ	لحاجي خليفة
المؤنس	لابن ابي دينار
رحلة	ابن جبير
رحلة	التيجاني
معجم البلدان	لياقوت الحموي
وفيات الاعيان	لابن خلكان
مسالك الابصار	لشهاب الدين العمري
نزهة المشتاق في اختراق الافاق	للشريف الادريسي
الوافي في الوفيات	للفسدي
نفع الطيب في غصن الاندلس الرطيب	للمقري
كشف الظنون	لحاجي خليفة
طبقات اللغويين	للسيوطي
خرينة القصر	عماد الدين الاصفهاني
طبقات علماء افريقيا (نشر الدكتور ابن ابي شنب)	محمد بن الحارث
الفتح القدسي	عماد الدين الاصفهاني
ديوان	ابن حمديس

محمد فريد وجدي

دائرة معارف القرن العشرين

اعمال الاعلام ، فيمن ولي قبل الاحتلام من

لابن الخطيب

ملوك الاسلام

حسن حسنى عبدالوهاب

تعاليق وحواشى على اعمال الاعلام

« « «

بساط التعقيق فى حضارة القيروان

« « «

المنتخب المدرسى من الادب التونسى

الى غير ذلك من نصوص عربية جمعها العلامة المحقق الاستاذ ميكال غمارى

فى كتابه الجليل : « المكتبة العربية العقلية »

Bibliotheca Arabo-Sicula

(Lipisa) 1857

اهم المصادر الغربية

La grande Encyclopédie Française.

Le Épigraphi Arabiché de Sicilia - M. AMARI

Les Civilisations des Arabes - G. LEBON

Storia Dei Musulmani de Sicilia M. AMARI

Les Civilisations de l'Afrique du Nord - Vitor PIQUET

L'école Méditénale de Kaïrouan - D. A. BEN MILAD

La Domination Musulmane en Sirile - H.H. ABDELWAHAB

Le Moyen âge - Albert MALET

Histoire de l'Algérie - H GARROT

Histoire de la Tunisie - G LOTH

Les Siècles obscurs du Magreb - E. F. GAUTIER

La Berberie Orientale sous la dynastie des Benous l'Aghlab - Von Derheyden

Origine de la Renaissance en Italie - GEHART

Contribution des Arabes aux Progrès des Sciences Médicales - ABDALLAH
MANSOURI

Les Invasions Barbares - Ferdinand LOT

Histoire du Moyen Age - G. MARÇAIS

Histoire de l'Afrique du Nord - Ch. André JULIEN

Manuel d'Art Musulman - G. MARÇAIS

Essai sur l'Architecture des Arabes - Girauld DE PROGEY

الفهرست

<p>(القسم الاول) وصف جريزة صقلية</p>	<p>الجرمان . اخراج المسلمين مذابيح صقلية</p>
السواحل	الحكم الاسباني
الجبال	الجمهورية
المياه . المناخ	بونابارت
الثروة الطبيعية	عهد الظلمات
السكان	غاريبا لدى
المجتمع	الحكم الطلياني
<p>(القسم الثاني) موجز تاريخ صقلية</p>	<p>(القسم الثالث) امعات المدن والمعالم والآثار</p>
الفنيقيون . الاغريق	بالرمة
تدخل قرطاجنة	قصر الفوارة والعزير
روما وقرطاجنة	القبة . القصر الملكي . الكاتدرائية
الحكم الروماني	المتحف والضواحي
الروم - المسلمون	مسينا
الترمان	شيفالو . ترميني . مازرة
مملكة الصقليتين	مرسى علي . طرابنش . قلعة النساء
تاريخ صقلية .-	

	المسلمون في ايطاليا	طبرمين . قطانية
	فتح مسينا ولسنى	سرقوسة . نوطس
74	* العباس بن الفضل	(القسم الرابع)
	فتح قصر يانة	الحكم الاسلامي الاغلبى
	محاولة فتح رومة	47 نشأة الدولة الاغلبية
	محاولة فتح اقريطش	المحاولات الاولى للفتح
	انهزام الروم في البحر	اسباب الفتح
77	* عبدالله بن العباس بن الفضل	العزم على الفتح
79	* خفاجة بن سفيان	* اسد بن الفرات
	المرأة في السياسة	المعارك الاولى
	مقاومة سرقوسة	63 * محمد بن ابي الجوارى
	حادثة طبرمين	غلمة الروم
	فتح مالطة	ابن فرغلوش الاندلسي
82	* محمد بن خفاجة	الوباء
83	* احمد بن اعمر يحيى	65 * زهير بن عوف
84	* جعفر بن محمد بن بربر	فتح بالزمة
85	* احمد بن ابي عبد الله الاغلبى	احتلال مسينا الاول
	فتح سرقوسة	القاضى ابن ابي محرز
88	* الحسين بن رباح	69 * ابو الاغلب ابراهيم
	نكبة بحرية	الحرب البحرية
88	* الحسين بن العباس	وقائم قصر يانة

عصر الولاة والارهاب	محمد بن الفضل
109 * الحسن بن ابي خنزير	89 * سواده بن محمد بن خفاجة
110 * علي بن عمر البلوي	* عبودة الروم
110 احمد بن قهراب	91 * ابو مالك احمد حبشي
— * الخلافة العباسية	* ابو العباس عبد الله بن الاغلب 91
— رجوع الفاطميين واندحارهم	الانتصار البحري
ندالة وسقوط	في قلورية
113 * ابو سعيد الضيف	فتنة عمياء
114 سالم بن راشد	95 * ابراهيم بن الاغلب
— الفتح في جنوب ايطاليا	— احتلال طبرمين
القاضي ميمون النزبه	فتح رمطة
طريقة القضاء في اروبا	في ايطاليا
مبدأ ظهور الترمان	سيرة ابراهيم بن الاغلب المجنون —
استمرار الفتح بايطاليا	الدعوة الشيعية
— الثورة	انهيار الدولة الاغلبية
* خليل بن اسحاق الطاغية	العبيديون بالقبروان
الروم والترممان	تأسيس المهدية
121 * عطاف الاردي	105 * محمد السرقوسي
(القسم السادس)	* علي بن ابي الفوارس
عصر الاستقلال الذاتي	(القسم الخامس)
123 * الحسن بن علي	الحكم الاسلامي الفاطمي

العدل اساس الملك	قصيد ابن قاضي ميله في مدحه
فتح طبرمين	صفحة سوداء في تاريخ الفاطميين
مسجد ريو	* تاج الدولة جعفر 143
محاولة الروم في جنوب ايطاليا —	ثورة على —
معركة المجاز الكبرى	ثورة الامة —
* احمد بن الحسن بن علي 128	خسارة جنوب ايطاليا
الاجهاز على الروم —	الهجرة الى صقلية
الصلح	استطراد عن اعمال المسلمين 145
ختان اطفال الجزيرة —	بجنوب ايطاليا
* ابو القاسم علي 130	* اسد الدولة احمد الاكمل 153
تدخل النرمان —	سياسة فرق تسد —
رسالة الباياء للاميراطور	تدخل المعز بن باديس
نتيجة التدخل النرمانى	نكبة هائلة
الفاطميون بمصر	* صمصام الدولة حسن 155
استمرار الفتح	* القادر بالله بن الائمة 156
انتصار قلورية الاكبر	الحرب الاخوية والخيانة
* جابر بن ابي القاسم علي 137	خراب دولة المعز على يد بني هلال
* جعفر بن محمد 137	قصيد ابن رشيق عن خراب
من اجل جارية يخرب ملك	القيروان
* عبد الله بن محمد 140	ملوك لطوئف بافريقيا
* ابو الفتوح يوسف —	تميم بن المعز

محاولة انقاذ صقلية	
ابن حمديس يدافع الثور	161
الانجلاء النهائي عن صقلية	
آخر مقاومة	
سيرة النرمان الاولى	
(القسم السابع)	
صقلية الاسلامية تحت الحكم النرمانى	
* رجار الثانى	165
ملوك النرمان بصقلية	167
النفوذا لاسلامى تحت امرة النرمان	168
بعد مائة عام - حكاية ابن جبير	
* الملك غليام	
النصرانيات يزي المسلمات	
ابتداء امر الفتنة فى الدين	
الزعيم ابن حمود	
حادث الينم	
* فريدريك الثانى ملك صقلية	177
اقرار المسلمين بجنوب ايطاليا	177
تاسيس المملكة	
البلاط - الافكار الدينيه	
فى الحرب الصليبية	
اخراج آخر المسلمين من صقلية	
استشهاد مسلى نصيرة	
(القسم الثامن)	184
(التمدن والعمران)	
النظام الادارى	
القضاء	—
الجباية والديوان	—
الحرية الدينية - التسامح	—
الزراعة	
الصناعة. التجارة	—
الآثار	
نزهة المشتاق	—
بالرمة	188
مسبنا - طبرمين	189 - 190
قطانية . لنتني . سرقوسة	190 - 191
نوطس ، دغوس . بثيرة	191 - 192
جرجنتي . مازرة . مرسالا	193 - 194
طرابنة . برطينق . قرينتش	195
الحزان . الصنم قلعة النساء	
قصر يانبا	—
حياة اللغة العربية	

انتشار العلم والآداب

قسطنطين الأفريقي

محمد بن علي المازري

محمد بن يونس التميمي

— محمد بن محمد بن ظفر

عبد الرحمن بن عمر

ابن أبي العباس

عيسى بن عبد المنعم

— عمر بن حسن النحوي

ابن القطاع

— أبو عبد الله محمد بن الحسن

— الإصلاح الإسلامي

أبو الفضل مشرف ابن راشد

عمار ابن منصور الكلبي

— الرشيد أحمد بن غانم

مجبر بن محمد بن مجير

— مصعب بن محمد

عمر بن رحيق

محمد بن الحسن بن علي بن بكر الربيعي -

— محمد بن خراسان

— محمد بن أبي فرج بن فرج

الشريف بن محمد الأدرسي

جمهرة من العلماء والكتاب والشعراء 213

— أبو الحسن أحمد بن الحسن الكاظمي

أبو القاسم عبد الله بن سليمان الكلبي -

محمد بن عيسى بن عبد المنعم

— علي بن حبيب أبو الحسن

— عمر بن خلف بن مكي

— طاهر بن عمر بن الرقباني

— عمر بن علي بن عمر السرقوسي

محمد بن علي بن الحسن بن عبد البر

— يوسف بن أحمد أبو يعقوب الدباغ

— أبو محمد الدمة

— سليمان بن محمد الصقلي

215 بعض مؤلفات الصقليين

217 عبد الجبار بن حمديس وشعره

فهرست ابجدی

ابن القاسم	أ
ابن القطاع	ابن ابی دینار (مؤرخ)
ابن قهر ب	ابن ابی الفضل
ابن کاس	ابن ابی عامر
ابن وکیل (اصبغ)	ابن الاثیر
ابو الاغلب ابراهیم	165
ابو بکر المالکی	ابن الجزار (طیب)
ابو جعفر النعمان	ابن جیر
ابو حنیفة (الامام)	ابن حمید
ابو زکریا الحنفی	ابن حمود (زعیم)
ابو سعید الضیف	ابن حوقل
ابو الطیب المتنبی	ابن الخطیب
ابو عبد الله المؤدب	
ابو عبد الله الصنعانی	ابن خلدون
ابو عبد الرحمن الاسدی	ابن رشد
ابو الفتوح یوسف	ابن رشیق (الحسن)
ابو الفرج الاصفهانی	ابن زدغة (مفتی وقسیس)
ابو الفضل الدارمی	ابن فرغلوش
ابو فہر محمد بن عبد الله	ابن قادم

ابو القاسم بن عبيد الله

ابو القاسم علي

ابو محمد عبد الله

ابو محمد الدمعة

ابو محرز العنكناثي

ابو يوسف

ابراهيم بن الاغلب الاول

ابراهيم بن الاغلب الثاني

اينان

ايدوس كلوديوس

اتنا

اتريثا كريبا

احمد الاكمل

احمد ابن ابي الضياف

احمد ابن ابي الحسين

احمد بن ابي عبد الله

احمد بن الحسن بن علي

احمد بن حنبل (الامام)

احمد بن طولون

احمد بن عبيد

احمد الجرجاني

احمد بن عمر يحيى

احمد بن عمر حبشي

احمد القديدي

احمد بن قزح

احمد المهدي النيفر

الاخشيد

الاخوة الاسلامية

ادرياتيكا (بحر)

اداري (نظام)

ادلغيز (امير)

ادريس الاكبر

ارجريوس (بطريق)

ارخيدس

ارغون (عائلة)

ارسولو (دوج)

الاربص

اردونيو (ملك)

ارستقراطية

اروبا

الازهر الشريف

الاسباب	الاطلس
اسد بن الفرات	اعتصاب الجوع
الاسدية (كتاب)	الاغريق
استقرار ديني	اغسطس (امبراطور)
استقلال	الاغاني (كتاب)
	الاغلبية (دولة) .
استعمار	
اسطول	اغاثة (مدينة)
	افريقيا
	افنيون (مدينة)
	الافضل (الملك)
اسيا	افريطش
اسماعيل شاه	الاقطاع
اسماعيل الطبري	اكسiris
اسحاق بن عمران	اكروشي
اسحاق بن سليمان	الالمان
الاشراف (غزوة)	الكانو
الاشراكية	الف فارس (معركة)
الاصلاح الاسلامي	املاك
اطباء	النصور بالله (خليفة)

تاريخ مقلية —

باتنة (مدينة)

الاموية (دولة)

بازيل (امبراطور)

امية بن ابي الصلت

بافية (مدينة)

اميركان

بادو —

انداس

بارى (اماره)

انكشارية

باريس

الانسان الاول

باسيرو

انكليز

بالمة

انهار صفاية (اسباب)

بانورم

انوسانت - بابا

بايزيد (سلطان)

اورننه (مدينة)

بشيرة (مدينة)

اوستى —

بجاية

اوطنون (امبراطور)

البحر المتوسط

اوكتافوس —

بخارى

ايطاليا

بربر

ايوب بن تميم

برتقال

ايوب بن المعز

برغونيا

بنو هلال	برندبزي (مدينة)
بواتية - معركة	بردويل (زعيم)
بومباي	بزطيق
بوربون - ملوك	برلمان
بورديو - مدينة	البصرة
بونابارت	بطرس وبولس (كنيسة)
بونيقيه - حرب	بغداد
بيا تراروسا - قصر	بقر
البيت الحرام	بلاطة
بيمان لبريف - ملك	بلزمة
بمزنطة	بلقان
بينيفانت - اماره	بنو بويه
ت	بنو جبارة بن مكي
تاج الدولة	بنو حماد
التجارة	بنو الحسن
تداول الولاة	بنو حمدان
تركيا	بنو خراسان
الترك	بنو الرند
التسامح الديني	بنو سامان
تقويم المنصور	بنو الطبري
التمدن	بنو مدافع بن جامع

ترميني - مدينة

تن - سمك

تسيم بن المعز

نونن

التونسية - البلاد

تبير - نهر

تيمورلنك

تيهرت - عاصمة

ث

ثومة - مدينة

الثريا - مجلة

الثروة الفلاحية

ثقة الدولة

الثقل النوعي

الثورة الكبرى

الثورة العالمية

ج

جابر بن ابي القاسم

جاربه

جامعة سالرنه

— مونيبي

— نابولي

جبايه

جيهار - مؤلف

جربة

جرجان

جرجنتي

الجرمانيون

الجريد

الجزائر - سقوطها

الجزائر - قطر

جزية

جص

جعفر بن احمد

جعفر بن فلاح

جعفر بن محمد

جعفر بن محمد بن بربر

جعفر بن يوسف

جلاص

جمهورية

جنصريق

حسان بن النعمان	جنوب ايطاليا
الحسن بن احمد بن نافذ	
الحسن بن ابي خنزير	جنوة
الحسن بن علي الكلبي	جوهر الصقلي
الحسن بن عمار	جوزاف. بونا بارت
الحسن بن عمار بن علي	الجواري
حسن بن محمد البغائي	جوير - مؤلف
حسن بن يزيد	جيلبون
الحسن بن يوسف	ح
الحسين بن احمد	حادث البنت المسلة
الحسن بن العباس	الحاكم بامر الله
الحسين بن رباح	حاجي خليفة
جلوان - مدينة	الحبشة
حنايا	حبيب بن ابي عبيدة
حنبل	ح. ح. عبد الوهاب
حنون	الحجاج بن يوسف
حملة الاريب	الحديد
خ	الحرية
خالد بن ابي حبيب	حرية الدين
الخالصة	الحرب
ختان اطفال الجزيرة	الحسابات العامة

ديار بكر	الخراج
دي سالسو	خراسان
دي قالو	خرج الرعونة
دي-نس	خريطة الادريسي
دواوين	حزف
ديوان المظالم	الخطبة
ديوان	خفاجة بن سفيان
ديوانة	الخلافة .
ذ	١٨١
الذكي النحوي	الخلدونية
الذهب	خلق القرآن (محنة)
ر	خليل بن اسحاق
راشليديس	د
رجار الاول	دار صناعة تونس
رجار الثاني	دار مبرغ .
٢٣٧ ٢٣٠	دانمارك - بلاد
رجيو	دعاة الهزيمة
رخام	دمشق
ردولف	دمياط
رسالة البابا	دنيابر - نهر
الرستمية (الدولة)	دومنيون

الزكاة	الرشد احمد بن قاسم
زلازل	رغوص
زلزال قطانيا	رقادة
زلزال مسينا	رمطة
زنوج	135 - 138
الزهراء	رهبان
زهير بن عوف	روير الترماني
زي النصرانيات	روح بن حاتم
زيادة الله الاول	روسيا
« الثاني	رولان الترماني
« الثالث	رومان
الزيتون	روم
الزبدونة - جامنم	
ص	
سبالنة	روما
سالامين	ز
سالسو	الراب
سالم بن راشد	الزير
سامانية (دولة)	الزراعة
سبتة	زعفرانة - قرية
سبستكين (قائد)	زقاق - مدينة

سودان	سهرينة (مدينة)
سيكار	سبط
سين (نهر)	ستراتيج
ش	سجلاسة
شارل الاصلم	سحنون
شارل دانجو	سردينيا
شارل العاشر	سردين
شارل مارتيل	سرقوسة
الشام	
شامبيوني (زعيم)	سر من راى (مدينة)
شان سى (الصين)	سعيد بن عثمان
الشتاء	السكان
شرمان	السلط (الفصل بين)
الشرىف الادريسي	سلايس
شريك	سليمان بن محمد
الشعراء	سمرقند
الشعير	سمك
شلندي	سواب
شمال افريقيا	سواده بن محمد
134 - 163	سوسة
شيفالو (مدينة)	

الشيعة الاسماعيلية

ص

الصنافي (قائد)

صاحب المظالم

صبغة

صدر بعل

الصعيد المصري

صفاقس

صفالبة

صلاح الدين الايوبي

صليبية (حرب)

صمصام الدولة

الصناعة

الصنم

ضماجة

الصيف

صيقول (شعب)

الصين (الأتراك في)

تاريخ صقلية —

ض

ضرائب

ط

طارق بن زياد

طارنطة

طانكرت (ملك)

طاهر الرقباني

طبرستان

طبرمين

طرابلس الغرب

طرابنة

الطقس

طرمولي

طرميس

طغيات

طلليان

طنجة

الطور

العاصد لدين الله

العباس بن الفضل

العباسيون

عبد الرحمان (الثالث)

عبد الرحمان الداخل

عبد الرحمان بن زياد

عبد الرحمان بن العباس

عبد الرحمان بن محمد

عبد الرحمان بن القاسم

عبد الرحمان النافقي

عبد الرحمان بن رستم

عبد الله الاغلب

عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب

عبد الله بن ابي سرح

عبد الله بن احمد

عبد الله بن الحسن

عبد الله الحضرمي

عبد الله بن حبيب

عبد الله بن سليمان

عبد الله بن العباس

عبد الله بن محمد

عبد الله بن المعز

عبد الله بن منكوث

عبد الله بن موسى

عبد الحق بن خراسان

عبد المسيح

عبد المؤمن بن علي

العبيد

عبيد الله المهدي

عبيد الله بن الحبحاب

عدوة (معركة)

عثمان بن عفان

عثمانية (دولة)

العرب

109 - 166

العربية (اضمحلها)

عراق

العزير بالله

عطارين

عطاف الازدي

عناية	عقبة بن نافع
عنب	علقمة
عياض (القاضي)	العلم
عيسى بن عبد المنعم	علي بن ابي طالب
غ	علي بن ابي الفوارس
الغابات	علي بن حبيب
غارات العمج (كتاب)	علي بن زياد
غاندي	علي بن العباس
غاريبادي	علي الرضا بن موسى
غرادات	علي بن يوسف
غريغوريوس (بابا)	عمار بن علي
غليام الفاتح	عمار بن منصور الكلبي
غليام الاول	عماري ميكال
الثاني	عمال الفلاحة
الثالث	عمال المناجم
غوسطاف لوبون (مؤلف)	عملكرض
ف	عمر بن ابي محرز
فارس	عمر بن حسن النحوي
فاطمة البتول	عمر بن خلف المكي
فاطمية (دولة)	عمر بن رحيق
	عمر بن علي السرقوسي

فكتور عمانويل الاول	فاشيست
الفلاحة	فاليز (مدينة)
فلسطين	الفتح بن خاقان
الفتحيون	فتيمان غليام
الفوارة	الفتنة في الدين
ق	فرجيوة
قابس	فرديساد
قابو (مدينة)	« الثاني
القادر بالله بن الثمنة	فرديسان لوط (مؤلف)
القار	القربس
قاطون	فرنسا
القاموق (مدينة)	الفرنسيون
القاهرة	فرنسوا الاول
القبلة (قصر)	فريدريك الثاني
قبر مسيحي	القسطاط
القدس الشريف	فسقية الأغابة
القديس يوحنا (كنيسة)	فضة
القراطة	الفضل بن جعفر
قرصان الاندلس	« بن يعقوب
— يزنطة	فكتور يكي (مؤلف)
— المسلمين	

القطن	قرصان الترمان
القضاء	قرطاجنة
قضاء القرون الوسطى	
قلاع حصينة	قرطبة
قلعة السبت	قرقنة
قلعة الملك (اقتصار)	قرقشنة
قلعة النساء	القرون الوسطى
قلعة نصر	القرية الصقلية
قلورية	قسطنطين الافريقي
	قسطنطينية
القماش	قشالة
القمح	قصب السكر
القطرة	قصر سعد
قنوات الري	قصر العمارة
القوط	القصر الملكي ببارمة
قونية	قصر المولى
القيروان	قصريانا
ك	قطانية
كاتدرائية بالرمة	
كافور الاخشيدي	القطاني

كافور (سياسي)	كنعان
كاربوناري (جمعية)	كورا دين (راهب)
كارليانو (معركة)	كوزو (مدينة)
كارولين (امبراطورة)	كوفي (خط)
الكاهنة	ل
الكبريت	اللباس
الكتائب القرآنية	لسي (مدينة)
الكتان	لنقيني (مدينة)
كستامة	لندن
123 - 153	لصيرة (مدينة)
الكتيبة الخامسة	لوثير (امبراطور)
كرسكا	لوردات
كسته	لويس (امبراطور)
كستيلامارى	— (ملك ايطاليا)
كسيلة (زعيم بري)	— فليب (ملك فرنسا)
كسين (دير جبل)	— القديس
كفر فريدريك الثانى	ليريتو
كاس	ليدون
كايماى الرابع (بابا)	ليون التاسع (بابا)
كنائس	م
كنستنس (ملكة)	مازرة

محمد بن الاغلب	مأز
محمد بن الحارث الحشني	مأفون
محمد بن الحسن	مافيا (جمعية سرية)
محمد بن الحسن الربيعي	ماكسويني
محمد بن خراسان	مالك بن انس
محمد بن خفاجة	مالطة
محمد بن عبد البر	مالي
محمد بن عبد الله	المأمون (خليفة)
محمد بن علي المازري	مانويل
محمد بن عيسى	متحف بالرمة
محمد بن القاسم الثقفي	— قطانية
محمد بن الفضل	— سرقوسة
محمد بن محمد بن ظفر	ملوس
محمد بن منصور السمعاني	التوكل على الله (خليفة)
محمد بن يونس التميمي	المجانيق
محمد الثاني العثماني	المجاز (انتصار)
محمد علي باشا	مجير بن محمد
محمد السرقوسي	مجنفور (بطريق)
المحمديّة	محمد (صلم)
محمود الثاني العثماني	محمد بن الاشعث
المدن	محمد بن أبي الجوارى

المدينة المنورة	مصعب بن محمد
المرأة	مصعر (امير)
المرأة في السياسة	معاوية بن خديج
المرجان	معبر صقلية
مرسى علي (مرصالا)	المعتمد بن عباد
مروان (مكتبة قصر)	المعتصم بالله (خليفة)
مروان بن محمد	معروف الرصافي
مسائل صقلية (كتاب)	المعز بن باديس
مساجد	المعز لدين الله
مستعمرة	المعزية (جزيرة)
المستنصر بالله الحفصي	معطية
مسرح سرقوسة	مغرم
مسيحية	مفتي
مسينا	مفرج بن سليمان (امير)
مشرف بن راشد	مقبرة مسينا
مصاب القيروان (قصيد)	المقتدر بالله (خليفة)
مصارف	مقدونيا
مصر	مكتبة بالرمة
	المكتفي بالله (خليفة)
	مكوس
	الملك الكامل

مليلي (مدينة)	نارنج
مملكة الصقليتين	الناصر
المناخ	نخيل
منصور بن نصر (زعيم)	نذالة
المواريث	نربونة
الوحدون	نرمان
مور كولي - راهب	168 - 164
موسى بن نصير	نرمنديا
الموصل	نرويج
المهدية	نصر بن الصمصامة
منليك - فحاشى -	نصيرة (مدينة)
ميناء - مدينة -	نقش حديدة
ميمون القاضى	نقود (مجموعة)
« السيف	نلسون (امير بحر)
ميمونة - الاميرة	نمسا (دولة)
« العذلى	نهضة اوروبا
ن	نوارين
نابولي	نوطس (نوتو)
	191
نابوليون الثالث	نويل دى فرجي (مؤلف)

الوهابية

ي	هارون الرشيد
اليابسة (جزيرة)	هاستينق
ياقوت الحموي	هجرة
يحي الطراز	هشام بن عبد الملك
يعقوب بن اسحاق (امير بحر)	هملقون
يمامة	الهند
يهود	هو هانستوفن
يوحنا بروتشيدا	هيارون (الملك)
يونان	و
يوسف بن ابي حبيب	وادي الامير
يوسف بن عبد الله (ابو الفتوح) 138	واري (اوريا)
142	الوباء
يوسف بولاقين	الولايات
يوسف الديباغ	الوليد بن عبد الملك
يوغوسلافيا	الوندال

انتهى

الإيداع القانوني : 2007-515
ردمك : 978-9947-24-140-0

سحب الطباعة الشعبية للجيش
الجزائر - 2007

Bibliotheca Alexandrina



0645642

ISBN 978-9947-24-140-0



9 789947 241400